أسست عام ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م

الوعي الإسلامي

AL-Wa'i AL-Islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

العدد (٥٠٨) شعبان ١٤٣٥هـ - يونيو ٢٠١٤م

العمران الإسلامي

هدية العدد: ذاكرة مجلة الوعي الإسلامي (٢)

المخطوط العربي يستشرف المستقبل بتراث الأجداد

حوار مع رئيس مؤسسة ماس الأمريكية

قراءة في مشروع رعاية أجيال الكويت

ما يطلبه المراهقون

مجاناً مع العدد «براعم الإيمان»

الافتتاحية

منادمة الأطلال

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

الله خلق الإنسان وشرفه بالخلافة على هذه الأرض، وأمره بالمشي في مناكبها.

وتحقيقا للأمر الإلهي، بعمارة الأرض، عمارة صالحة، دون فساد واعتداء، ولا ضرر ولا ضرار، جاءت شريعتنا لإقامة المبادئ العامة التي ينبني عليها نظام حياتنا، وتصلح لكل زمان ومكان، وهذه المبادئ هي التي قامت عليها خطة الحسبة، التي كان من مهماتها تنظيم النواحي العمرانية في المدن الإسلامية، وإن مراعاة الأنظمة والقوانين، والمحاسبة عليها من أهم العوامل التي تؤثر في استمرار بقاء المدينة المتحضرة، وواجب أن يراعى فيها دفع المضار، وجلب المنافع، وتسهيل المرافق.

وما الحضارة إلا مظهر حي وترجمان عملي لهذه العظمة، ونتائج مباشرة لهذه الأفكار والقيم والأنظمة، والأمة الإسلامية بقي لها من زاهر حضارتها، وشامخ مجدها، رصيد من الثروة العمرانية، فإذا ضعفت، وخفت نجمها في ميدان المجد والعظمة، بقيت الديار والآثار والأسفار، أعظم مورد، وأصدق شاهد، على سابقها وماضيها.

تلك آثارنا تدل علينا
فانظروا بعدنا إلى الآثار

ومازال أهل الصدق والإنصاف، من علماء الغرب، يعترفون بفضل تلك الآثار والديار.

ومازال أهل الغرب يدرون قدرنا
مدى الدهر ما أبدوا من الفضل معجما
متى يذكر الأفضال فيهم خطيبهم
على منبر صلى علينا وسلما

والحق أن بلادنا هي التي أوحت فيما مضى إلى الغرب بتجديد مظاهر العمران في بلدانهم، فتاريخ حضارتنا نفخر به ونعتز بآثاره، ويعتبر المسجد البناء المعماري المميز للحضارة الإسلامية، كونه مكان العبادة والعلم والعمل والريادة، وكيف لا يكون للمساجد هذا الإقبال، وهي بهذا الشرف والإجلال، وقد أجمع العقلاء، في خطط العمران والبناء، على أن التربية القويمة، والأنظمة والقوانين المستقيمة، هما الوسيلة العظيمة، لارتقاء الأمة في حضارتها.

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٨٨ | شعبان ١٤٣٥ هـ
العام الواحد والخمسون
يونيو ٢٠١٤ م

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح

الإخراج والجرافيك
أبورواش زكي محمد
يحيى بوم

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات
رئيس التحرير – مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ ـ
الكويت – هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ – ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي ٣٠٦ – ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية–٤٣ شارع دجلة – متفرع من شارع جامعة الدول العربية – المهندسين – الدور الأول – مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

المجلة غير ملزمة
بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر.
والمقالات لا تعبر بالضرورة
عن رأي المجلة.

في هذا العدد

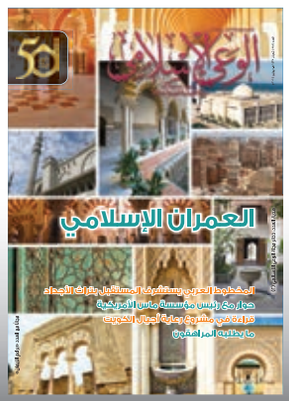

توسع المسلمين في العمران أساس التقدم والازدهار في مجالات الحياة والدال على رقي الأمة، وعلى سلامة ذوقها، وأصالة حضارتها.

٦٦

«فرانكشتاين في بغداد»
للروائي أحمد سعداوي

٧٠

حوار/ رئيس منظمة ماس الأميركية

٨٢

ثقافة الاعتذار بين الحق والكبرياء

٨٦

الجامع الصحيح للإمام البخاري

التوزيع وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦- ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) – فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر – القاهرة – شارع الصحافة – جريدة أخبار اليوم. – ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢)
- اليمن – صنعاء – الدار العربية للنشر والتوزيع ت – ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان – شركة نعنوع الصحفية – ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا – دمشق – برامكة – ص.ب ١٢٠٣٥ – ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ – المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن – عمان – شركة وكالة التوزيع الأردنية – ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ – ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب – الدار البيضاء – ص.ب ١٣٦٨٣ – ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس – ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ – الشركة الشريفية
- مملكة البحرين – المنامة – ص.ب ٣٢٦٢ – ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ – مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة – ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ – شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية – الرياض – ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ – ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ – الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان – مسقط – ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ – ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ – مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر – الدوحة – ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا– شركة – المصطفى ميديا جروب سندرين برحد – ت– ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر – شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس – الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة – لندن – شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار
●الكويت : ٥٠٠ فلس ●السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة ●الأردن:دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ●اليمن : ١٠٠ ريال ●لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا: ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠درهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ●تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

الوعي الإسلامي
مجلة كويتية شهرية جامعة

المحتويات

٣	الافتتاحية/ منادمة الأطلال	فيصل يوسف العلي
٦	مؤتمرات/ المخطوط العربي يستشرف المستقبل بتراث الأجداد	دار الإعلام العربية
١٠	حوار/ الغنيم: مخطوطاتنا تقينا متاهات العولمة	إسلام لطفي
١٣	رثاء: الشيخ رواس قلعجي والعلامة محمد هشام البرهاني	التحرير
١٤	ملف العدد/ العمارة فن وذوق وأخلاق	التحرير
١٧	ببليوجرافيا «الوعي» والعمران الإسلامي	التحرير
١٨	مساجد الكويت القديمة	تركي النصر
٢١	الأوقاف وبداية عمران المساجد الكويتية	التحرير
٢٢	مجموعة السلطان قلاوون.. ياقوتة القاهرة الإسلامية	إسلام لطفي
٢٥	ثراء المعمار العربي.. نظرة غربية	السنوسي محمد
٢٨	عيون دمشق	-
٣٠	سنان باشا.. أبو العمارة التركية	التحرير
٣١	مكية والمسجد الكبير	التحرير
٣٢	التراث الكويتي.. قاطرة التقدم الحضاري	نشوة صالح
٣٤	خصائص الحدائق الإسلامية	محمد إلهامي
٣٦	عيون المغرب	-
٣٧	عيون الأندلس	-
٣٨	حسن فتحي.. وسكن البسطاء	التحرير
٤٠	عيون القاهرة	-
٤١	عيون الكويت	-
٤٢	بيت السناري.. تفرد معماري	التحرير
٤٦	ماذا فعل الاحتلال الفرنسي بالعمارة الجزائرية؟	التحرير
٤٨	رؤية المستشرقين للعمران الإسلامي	يحيى وزيري
٥٢	الأبعاد الأمنية.. وفقه التدبير العمراني المستقر	عطية الويشي
٥٦	عن العمران والبشرية: بين التفكير.. والتدبير	د. هبة رؤوف عزت
٦٢	لغة وأدب/ القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٢٢)	عبدالله أيت الأعشير
٦٤	كسر الحاجز	مياسة النخلاني
٦٦	«فرانكشتاين في بغداد» للروائي أحمد سعداوي	محمد أبوالسعود
٦٨	أنباء الكتب/ قراءة في مشروع رعاية أجيال الكويت	التحرير
٧٠	حوار/ رئيس منظمة ماس الأميركية	علاء عبدالفتاح
٧٣	رثاء/ نادر النوري في ذمة الله	التحرير
٧٤	أسرة/ ما يطلبه المراهقون	د. آندي حجازي
٧٨	الطفل بين الحياء والخجل	رندة السراج
٨١	أخلاق/ التسامح والحلم مهارتان نكتسبهما	بشرى شاكر
٨٢	تحقيق/ ثقافة الاعتذار بين الحق والكبرياء	منير أديب
٨٤	علوم/ العواصف الغبارية	محيي الدين عواد
٨٦	كتب عربية علمت الإنسانية/ الجامع الصحيح للإمام البخاري	خالد خلاوي
٩٢	فتاوى الوعي	د. محمود الكبش
٩٤	بريد القراء	التحرير
٩٦	ينابيع المعرفة	التحرير
٩٨	مسك الختام/ حرية التعبير	د. السيد شعيب

كلمة العدد

الحضارة الإسلامية

الفن المعماري الإسلامي له أهدافه وغاياته، وتميز ببهائه وجماله الفريد، وعاش فترات طويلة من الازدهار والتألق، وترك آثارا عمرانية رائعة نابعة من الروح الحضارية التي تجمع بين أصالة الماضي وإبداع الحاضر.

وتنوعت أشكال العمارة الإسلامية إلى ستة عناصر رئيسية، هي: المسجد الجامع، ومقر ولي الأمر والقاضي، والمدارس، والبيمارستانات، والحمامات، والقلاع والأسوار.

وكان من الملاحظ اهتمام كثير من علماء المسلمين بموضوع العمارة والبناء والخطط، وكذلك اهتمام المؤرخين بوصف المعالم الحضارية وصفا دقيقا يقربها من الناس ويعطي صورة في منتهى الدقة والوضوح.

ولقد شجعت حضارة الإسلام على البناء والعمران، ففتحت مشارق الأرض ومغاربها، مما ساهم في ازدهار العمارة الإسلامية في الشام، والعراق، ومصر، وشمال أفريقيا والأندلس.

ولعل توسع المسلمين في العمران ليس مظهرا حضاريا فحسب، بل هو أساس التقدم والازدهار في مجالات الحياة (العلمية، والفنية، والاقتصادية، والاجتماعية).. كل هذه المرافق يجب أن تنال حظها من العمران الدال على رقي الأمة، وعلى سلامة ذوقها، وأصالة حضارتها.

خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه كان يرى: أن المال الذي أنفق على بناء الجامع الأموي لم يكن في موضعه، وأن بيت مال المسلمين قد تأثر بسبب ذلك، فأمر بنزع الجواهر الثمينة، واستغنى بالحبال عن السلاسل الذهبية، التي علقت فيها المصابيح، لكنه لما علم أن بعض سفراء الروم لما زاروه استعظموه، واغتاظوا من بنائه، وقالوا: إن من يبني مثل هذا البناء لابد أن تكون دولته قائمة إلى أمد طويل، لما علم بذلك، ترك ما عزم عليه من نزع نفائسه.

التحرير

الاشتراكات
- داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

المخطوط العربي يستشرف المستقبل بتراث الأجداد

القاهرة : دار الإعلام العربية

احتفل حشد من التراثيين وأساتذة المخطوطات والخبراء والباحثين العرب أخيرًا في العاصمة المصرية القاهرة بـ«يوم المخطوط العربي»، برعاية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (إلكسو)، وبتنظيم من معهد المخطوطات العربية في القاهرة. وقد تم خلال الاحتفالية تكريم العالم الكويتي د. عبدالله يوسف الغنيم، وزير التربية والتعليم العالي الأسبق. «الوعي الإسلامي» شاركت في فعاليات الاحتفالية، وجاءتكم بالتفاصيل.

بدأت الفعاليات بكلمة من الأمين العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الدكتور عبدالله حمد محارب، قال فيها: «لقد وفينا بالعهد بأن يكون للمخطوط العربي يوم سنوي، يوافق الرابع من أبريل، كونه اليوم الذي أنشئ فيه معهد المخطوطات العربية عام ١٩٤٦، وتأتي احتفالية هذا العام بعد النجاح الذي شهدته الدورة الأولى في العام الماضي».

وأضاف: «من حق «المخطوط العربي» علينا أن نحتفي به، على أن نخرج من مفهوم الاحتفاء القريب، فليس الاحتفاء تكريما ولا تبجيلا ولا تغنيا، بل هو درس ولفت وحفز وكشف واكتشاف، ومقاربات للعوالم المعرفية والجمالية والحضارية لما يحمله هذا الوعاء التاريخي من ذلك كله، لكون المخطوط يجمع بين أمرين: الأثر والمعرفة. لكن قيمته من جهة كونه أثرا حاملا للمعرفة لا تقل عن قيمة المعرفة التي يحملها. وعلى هذا، فإن احتفاءنا بالمفهوم الذي اعتمدنا يشمل العنصرين معا».

كائن تاريخي استعصى على الموت

كما أوضح محارب أن علوم العربية جميعا جاءت عبر المخطوط، الذي استطاع، رغم سطوة عوامل التلف واعتداءات الإنسان وظلمه؛ أن يقهر كل العوامل ويصل إلينا بجسده وروحه، مختزنا حمولة معرفية وثقافية وعلمية وفنية وحضارية متميزة.

وشدد على أنه حان الوقت للانتقال بالتراث، الذي يمثله المخطوط، من قاعات الدرس المغلقة وصالونات الثقافة إلى الفضاءات المفتوحة، والهبوط به من علياء النخبة ومحاوراتهم ومجادلاتهم، إلى واقعية المثقف العام واهتماماته اليومية.

ولفت إلى أن المخطوط العربي كائن تاريخي استعصى على الموت أكثر من خمسة عشر قرنا، ولا يزال حيا، إذ إنه يختزن عوالم الفكر والعلم والمعرفة والفن، لكن المقاربة

تحتاج إلى مغامرة غير تقليدية تتحرك بوصلتها في الاتجاه المعاكس، الماضي، لهذا استحق أن نحتفل به ونستدعيه لنستدعي معه الهوية والخصوصية والقدرة على مواجهة المستقبل. فيوم المخطوط العربي كما هو احتفال به، هو في الوقت ذاته احتفال لتكريم رجاله، والتعرف على حمولته الثقيلة من الإنجازات العلمية، ورصد حكاياته الآسرة.

العالم الكويتي د.عبدالله الغنيم يتوج «شخصية العام التراثية» لإسهاماته في تحقيق التراث

تراث أمة

من جانبه، قال منسق برامج معهد المخطوطات العربية، والمسؤول الأول عن المشاريع العلمية التي يتبناها المعهد، د. فيصل الحفيان، إننا نريد من الاحتفاء بيوم المخطوط العربي أن نحقق الانتقال من الماضي إلى الحاضر، أو توظيفه، فما عاد يكفي أن نعرف الماضي ونُعرف به، بل أصبح لزاما علينا أن ننظر في شأنه نظرا يتيح لنا أن نستفيد منه، حتى يصبح جزءا من حياتنا العصرية، وداخلا في نسيجها.

وأشار إلى الأهمية العظيمة التي تكتسبها المخطوطات العربية، مؤكدا أنها نقلت إلينا علوم الأمة التي استفاد منها العالم بأسره، شرقا وغربا. كما أن هذه المخطوطات هي التي نقلت إلينا الوحي وتفسيره؛ وكذا أحاديث النبي ﷺ وشروحها، إضافة إلى فقه الأمة، وعلم الأئمة، وتاريخها، ولغتها، وغير ذلك. خاتما مداخلته بعبارة: «أمة بغير ذلك ليست أمة».

ولاشك أننا ما زلنا حتى اليوم في حاجة ماسة إليها، بل إنه كلما تقدمت بنا السنون ازدادت حاجتنا، وحاجة الأمة عامة، إليها.

الغنيم شخصية العام التراثية

وخلال الاحتفالية، تم تكريم العالم الكويتي د. عبدالله يوسف الغنيم، وزير التربية والتعليم العالي الأسبق، كونه رائدا من أبرز رواد الدراسات التراثية الجغرافية، وأهداه معهد المخطوطات درع «شخصية العام التراثية» لعام ٢٠١٤، نظرا لإسهاماته في تحقيق التراث.

وبحسب وصف مدير المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم د. عبدالله محارب، فقد ارتبط اسم الغنيم بالجغرافي واللغوي أبي عبيد البكري، صاحب «المسالك والممالك» و«معجم ما استعجم»، والربان بن ماجد صاحب «الفوائد». وأضاف أنه أستاذ استثنائي في الدرس التراثي الجغرافي، عنى عناية بالمخطوط الجغرافي العربي، فهرسة وتحقيقا ودرسا، وانشغل انشغالا جيدا بالمصطلحات الجغرافية، وتحديدا مصطلحات أشكال سطح الأرض.

وأضاف د. محارب: «الغنيم تميز برحلاته الميدانية، منفردا أو برفقة تلاميذه، وعاين فيها مناطق عديدة في شبه الجزيرة العربية، وعانى التعامل مع التربة والصخور، وتتبع خطوط الرحلات التاريخية، وله تراث غزير ومتنوع في حقول معرفية دقيقة تعاني من انصراف الباحثين وزهدهم فيها، مثل الزلازل في المصادر العربية، والخرائط الجغرافية العربية، وعلوم البحر العربية».

وأعلن د. فيصل الحفيان عن إهداء د. عبدالله يوسف الغنيم مجموعة من المخطوطات بلغ عددها ١٥ ألف مخطوطة إلى معهد الدراسات العربية، وهي مجموعة مختارة من عدة مكتبات عالمية.

التراث عنوان أصالتنا

بدوره، قال الدكتور الغنيم: «التراث العربي يعد المعبر عن هوية أمتنا العربية، وعنوان أصالتها. والركن الجغرافي يمثل ركنا مهما من التراث العربي».

وأوضح أنه اهتم بدراسة التراث الجغرافي في الستينيات من القرن الماضي. وقد وضع العرب أسسا ومناهج جديدة للدراسات الإقليمية، فضلا عن النظريات، مثل فكرة تبادل اليابس والماء، وتوازن الأرض.. وغيرهما من الإضافات المهمة التي أسهمت في صياغة النظريات الجديدة الآن.

وأثناء حديثه، انتقد الغنيم إهمال الباحثين دراسة الخرائط العربية التي لم تلق عناية بها، موضحا أن موقف الدارسين كان إما تجاهلها وإما ترك مكانها خاليا، ولم يتكلفوا عناء قراءة الخرائط أو التحقق من أسماء البحار والأنهار! لذلك، كان هذا جهدا شاقا يقابل المحقق لهذا التراث.

الببليوجرافيا التكوينية

كما تم تكريم الدكتور المصري كمال عرفات نبهان، عميد كلية المكتبات بجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، بجائزة

أمين المنظمة العربية للتربية والثقافة د.محارب في حديث مع د. الحفيان

«كتاب العام التراثي»، تقديرا لتأليفه كتاب «عبقرية التأليف العربي»، الذي استغرق ثلاثين عاما في كتابته، حيث قدم الكتاب نظرية غير مسبوقة في مجال علم الببليوجرافيا والمعلومات والاتصال العلمي والتعليمي «الببليوجرافيا التكوينية»، والتي قدمت نظاما مبتكرا في وصف علاقات النصوص الأدبية بعضها ببعض. ووصفت الجائزة الكتاب بأنه قدم استكشافا لستين نوعا من التأليف النصي، وخصائص كل نوع، وطبيعة الجهد العلمي فيه، ووظائفه الاتصالية العلمية، وعلاقاته مع الأنواع الأخرى.

وخلال كلمته، قال الدكتور كمال نبهان: «الكتاب يرتبط بسياق عمري وحياتي، ويلخص فكرة «علاقات النصوص»، فهناك نوع من الكتب يقوم بدور الإمام، وحين يغيب النص، كان الأستاذ النص يقوم مقامه. ومن العناية بهذا النص، جاء شرحه وتحليله، وتلخيصه».

وأكد: «الفكرة تقوم على أن العلاقات الإنسانية تنبني على العائلة، واكتشفت بالدراسة أن للكتاب عائلة (عائلة النص)، فكثير من كتب التراث العربي لها أقارب وأحفاد وأجداد. وقد مثلت هذه العلاقات بالرسوم، واستخرجت ٦٤ نوعا من علاقات النصوص، فالتأليف العربي حظي بعلاقات كثيرة بين النصوص، أسميتها «الببليوجرافيا التكوينية»، لتتبعي الكتاب كجنين، ودراسة علاقاته بآبائه وأجداد».

د. محارب: احتفالنا بالمخطوط درس ولفت وحفز وكشف ومقاربات لعوالم المعرفة والجمال

وأشار إلى أنه حين أسماه «عبقرية التأليف» لم تكن مجاملة للعرب، فقد أجادوا صناعة التأليف بالفعل، لافتا إلى أن علاقات النصوص المذكورة لا توجد في لغات أخرى إلا بشكل بسيط، ففي اللغة الإنجليزية هناك الشرح والتلخيص، لكن الكتاب العربي حظي بأنواع كثيرة في العلاقة بين النصوص، وأوضح أنه خرج بمصطلح «الجغرافيا التكوينية»، التي تستخدم الزمن لقياس مدى تأثير النص زمنيا على الكتب الأخرى، قائلا: «هناك كتاب ظهر في القرن الرابع الهجري ولا يزال يؤثر إلى الآن وهو كتاب «ابن سينا» في الطب».

تعريف الناس بتراثهم

بدورها، قالت الأستاذة في كلية الآداب جامعة القاهرة إيناس عباس، إن أهم ما يميز يوم المخطوط العربي أنه فعالية تحاول الوصول إلى غير المتخصصين، كي تعرف عموم الناس بتراثهم وحضارتهم، وتربطهم بتاريخهم.

جانب من المعرض الذي أقيم على هامش الإحتفالية

وأشارت إلى أن الاحتفالية اهتمت بالشباب، وقدمت لهم ما يثير اهتمامهم من خلال ورش عمل تمكنهم من التعامل مع قطع من تراثهم، مثل ورش صناعة «الاسطرلاب»، ورش الاختراعات، والأمسيات الفلكية واستكشاف النجوم، ورش صناعة المخطوط وتجليده، إضافة إلى العروض السينمائية.

مخطوطات كوسوفو

من جهته، قال سفير كوسوفو في القاهرة بكر إسماعيل: «نحن في أشد الحاجة إلى من يعاوننا في الحفاظ على ما تبقى من مخطوطات عربية في بلاد البلقان، خصوصا كوسوفو وألبانيا، لأن الاحتلال الصربي قد قضى على معظمها حرقا وتدميرا».

وأشار إلى أنه لا تزال هناك مجموعة غير قليلة من المخطوطات تحتاج إلى التحقيق والفهرسة والترميم في المكتبة القومية، وفي مكتبة المشيخة الإسلامية في كوسوفو، بل في البيوت التي نجت من الحرق والتدمير أثناء الحرب الصربية الأخيرة.

ألف حكاية وحكاية

«ألف حكاية وحكاية».. هو اسم احتفالية هذا العام، والتي تضمنت ندوات وجلسات نقاش وورش عمل ومعارض للمخطوطات وعروض أفلام وألعابا ترفيهية ومسابقات للكبار والصغار، ليس من باب الاحتفاء

د. نبهان: اكتشفت أن كثيرا من كتب التراث العربي لها أقارب وأحفاد وأجداد

فحسب، بل أيضا كمنهج عمل اتفق عليه القائمون على معهد المخطوطات التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، في محاولة للتعريف بأهمية ما تحمله المخطوطات من مضامين معرفية وجمالية وحياتية، عكست نضوج العقل العربي، واتساع تأثيره في مختلف أنحاء العالم، واعتبار المخطوط أثرا حاملا للعلم والمعرفة يجب الحفاظ عليه. وعلى هامش الاحتفالية، أقيم معرض «صناعة المخطوط».

كما نظم معهد المخطوطات في القاهرة عددا من المعارض التراثية وورش العمل والمحاضرات التثقيفية طوال المدة المخصصة للاحتفالية، شاركت فيها مكتبات الإسكندرية والأزهر وجامعة القاهرة ودار الكتب، كما شاركت أيضا جهات عدة منها مجموعة البحث العلمي «صناعة المخطوط الإسلامي»، والمكتبة المركزية للمخطوطات الإسلامية، واللجنة المصرية للمتاحف، ومركز الطفل للحضارة والإبداع، والجمعية المصرية لعلوم الفلك، ودار الملك عبدالعزيز بالرياض، ومركز الدراسات التاريخية، وجمعية الدعوة الإسلامية بطرابلس، واللجنة الوطنية الليبية للتربية والثقافة والعلوم، كما شارك أيضا بيت السناري، ومتحف المخطوطات، ومركز توثيق التراث الطبيعي والحضاري.

بعد تكريمه في يوم المخطوط العربي بالقاهرة الغنيم:

مخطوطاتنا تقينا متاهات العولمة!

إسلام لطفي - القاهرة
دار الإعلام العربية

أكد رئيس مركز البحوث والدراسات الكويتية، ورائد علم الدراسات التراثية الجغرافية، ووزير التربية والتعليم العالي الأسبق، الدكتور عبدالله يوسف الغنيم، أن تكريمه خلال شهر أبريل الماضي من معهد المخطوطات العربية كشخصية العام التراثية لعام ٢٠١٤، وكذا فوزه خلال الفترة ذاتها بجائزة الأمير سلمان بن عبدالعزيز لدراسات وبحوث تاريخ الجزيرة العربية، إنما يعكسان ما وصل إليه أبناء الكويت من جد واجتهاد. وشدد خلال لقائه مع «الوعي الإسلامي» على ضرورة أن تطلع الأجيال الشابة على تراث أمتها الذي حملته إلينا المخطوطات، التي أكد أيضا أنها التي تمنح الأمة العربية الإسلامية الحصانة ضد طوفان العولمة.. وإلى التفاصيل.

● جائزة وتكريم للدكتور عبدالله الغنيم في وقت واحد.. ما الذي يعنيه ذلك؟

- يعني أن على المرء أن يواصل السعي دائما في مسيرة العلم من دون توقف، ويعني أيضا أن أبناء وطننا الغالي الكويت قطعوا شوطا طيبا نحو الجد والاجتهاد، وأن يأتي

الغنيم مع محرر الوعي

بعض المكتبات العالمية تضم مخطوطات عربية نادرة فهرست بشكل خاطئ

تكريمي كشخصية العام التراثية في احتفالية «يوم المخطوط العربي» التي شهدتها القاهرة مطلع أبريل الماضي، وحصولي في التوقيت نفسه على جائزة الأمير سلمان بن عبدالعزيز لدراسات وبحوث تاريخ الجزيرة العربية، فإن هذا يعكس تقديرا للإسهام الفكري والأدبي الذي تكللت به مسيرتي العلمية.

● دعنا نبق مع المخطوطات التي تحتل مكانة متقدمة ضمن اهتماماتك العلمية.. ما الأهمية التي يكتسبها المخطوط في وقتنا الحالي؟

– المخطوطات تعني الأصالة، والعودة إلى الهوية العربية، فنحن في أشد الحاجة إليها في وقتنا الحالي لتقينا من شرور العولمة بما نمتلكه من تراث علمي وديني لا نظير له. لذا، لابد من العودة إلى تراثنا المخطوط، والعمل على دراسته وتحليله، وأن ندرب أبناءنا أيضا للتعرف على هذا التراث العظيم الذي حفظه لنا الآباء والأجداد.

وهذا الأمر بطبيعة الحال يحتاج إلى مثابرة وجهود كبيرة من المؤسسات الثقافية العربية، وجهود مكثفة من الجامعات، وحتى على مستوى التعليم العام، للتعريف بالمخطوطات، ففي تعليمنا القديم كان هناك كثير من النصوص التي نقرأها في كتب المطالعة والمحادثة، ومن المؤسف أن هذه الكتب تكاد تندثر عما كانت عليه بالسابق. وبالتالي، فإن إحياء تراثنا القديم إنما هو إحياء له ولنا، وعلينا أن نعمل بجد ونشاط.

شبابنا يفتقدون القدوة.. وعليهم الاطلاع على تراثنا المخطوط ليدركوا قيمة حضارتهم

والأمر الآخر، أن نتعرف على تراثنا المخطوط المنتشر في معظم مكتبات العالم. صحيح أن هناك جهودا بذلت في ذلك الأمر، إلا أنه ما زال هناك الكثير من المخطوطات العربية والإسلامية مجهولة، لم نستطع أن نتعرف عليها حتى في الجامعات العريقة التي عرفها كثير من المحققين، سواء من المستشرقين أو من العرب، فمثلا هناك مكتبات توجد بها مخطوطات كثيرة لم تدون في الفهارس، وهناك مخطوطات دونت بياناتها بشكل خاطئ.

● وكيف ترى تخصيص يوم للاحتفال بالمخطوطات؟

– هذا أمر جيد، ولابد من تشجيع ذلك، لأن الإعلام مقصر وبعيد عن المخطوطات، فمن خلال هذه الاحتفالية المنتشرة في عدة أماكن، تعطي إعلاما جيدا وتوجيها للناس.

● وما العلاقة بين المخطوطات واللغة العربية؟

– العلاقة وثيقة، فلا يمكن التعرف على المخطوطات من دون وجود ثقافة لغوية واسعة وكافية، فلابد منها، واحتياجنا ليس فقط إلى اللغة العربية، لكن لابد من وجود توسع في الثقافة، وأن يكون التراث في حد ذاته موسوعيا، فكوني جغرافيا أستفيد من كتب أخرى في المادة الجغرافية قد تفوق كتب الجغرافيا العربية القديمة، فالذي يبحث لابد أن يكون ذا ثقافة عامة في مختلف المجالات.

● وما مدى أهمية المخطوطات بالنسبة إلى الشباب؟

– لابد أن تكون المخطوطات والتراث العربي بشكل عام، معبرة عن الهوية وتكوين الثقافة للشباب، فلا ينبغي أن ينجرفوا، كما هو قائم في الوقت الحالي، نحو ثقافات العولمة التي تضيع فيها هوية العرب وشخصيتهم، فهذا التراث هو الذي يحفظ شخصيتنا أمام الأمم الأخرى، فبينما هناك كثير من الأمم تتفاخر بتراثها كبريطانيا وفرنسا وغيرهما من الدول، نجد أننا نتهاون مع تراثنا وشبابنا، فنجد الألفاظ والكلمات الأجنبية شاعت في حياتنا وعلى ألسنتنا، بينما هناك كثير من الألفاظ يمكن الاستفادة منها من خلال التراث العربي.

● كوزير سابق للتربية والتعليم العالي.. ماذا يفتقد الشباب في وقتنا هذا؟

– الشباب يفتقدون القدوة، فمن الضروري أن يرتبطوا بشخصية ثقافية بعينها ويحاولوا أن يأخذوا عنها، ففي السابق كان هناك

الكثير من العلماء في مختلف الدول العربية يعتبرون مركز إشعاع، غير الجامعات، فلابد أن يتجمع الشباب حول العلماء ويأخذوا عنهم ليبنوا ثقافة جيل جديد. فمثلا ندوة العقاد -رحمه الله- كانت تجمع الكثير من الشباب وأنجبت الكثير من الباحثين المتميزين.

● وماذا عن دراستك للتراث؟

- اعتنيت بالمخطوط الجغرافي العربي، فهرسة وتحقيقا ودرسا، وانشغلت بالمصطلحات الجغرافية، وتحديدا مصطلحات أشكال سطح الأرض، كما كانت لي رحلات ميدانية، عاينت فيها مناطق عديدة في شبه الجزيرة العربية، إضافة إلى التعامل مع التربة والصخور، وتتبعت خطوط الرحلات التاريخية، كما كانت لي دراسة حول الزلازل في المصادر العربية والخرائط الجغرافية العربية، وعلوم البحر العربية، فالتراث العربي يعبر عن هوية أمتنا العربية، وعنوان أصالتها، إضافة إلى أن الركن الجغرافي يمثل ركنا مهما من التراث العربي، فكانت لي دراسة في الستينيات، خصوصا مع وضع العرب أسسا ومناهج جديدة للدراسات الإقليمية، فضلا عن النظريات، مثل فكرة تبادل اليابس والماء، وتوازن الأرض، وغيرهما من الإضافات المهمة التي أسهمت في صياغة النظريات الجديدة الآن.

● ماذا عن المخطوطات في دولة الكويت؟

- المخطوطات في الكويت قليلة مقارنة بما هو موجود في كثير من البلدان العربية، فأقدم مخطوطة كتبت في الكويت هي مخطوطة كتاب الموطأ للإمام مالك، حيث نسخت في جزيرة فيلكا الكويتية في عام ١٦٨٢، وهي نسخة بخط جميل وبتجليد متقن له دلالة على وجود ثقافي وحضاري في هذه المنطقة، كما أن تلك المخطوطة تدل على أن التاريخ الحديث يمتد إلى أبعد من التاريخ الذي حددته المصادر الحديثة، وهو بداية القرن الثامن عشر، فالمخطوطة في الفقه المالكي، وهو المذهب الذي كانت تأخذ به القبائل والأسر التي نزلت الكويت وأسستها في بداية القرن السابع عشر، وعلى وجه التحديد في عام ١٦١٣.

● كيف يتحدد الوضع العام للتراث الجغرافي العربي؟

- الوضع العام للتراث الجغرافي العربي يتحدد في أمور ثلاثة، فهناك كتب حققت قديما وفي حاجة إلى إعادة النشر؛ لندرتها ولتوافر مخطوطات جديدة يمكن أن تثري نصوصها وتصلح ما أشكل منها.

وهناك كتب أخرى حققت حديثا ولم يتم الاهتمام بتصحيح أسماء المواضع وبيان أماكنها، ولم تستقص المخطوطات الخاصة بالكتاب محل التحقيق، فجاءت أعمالا لا فائدة ترجى من ورائها، علاوة على وجود كتب ورسائل جغرافية لم يتم تحقيقها، وتحفل مكتبات الشرق والغرب بمثل هذه الكتب التي نأمل أن ترى طريقها للنشر. وهنا لابد من الإشارة إلى أن كثيرا من المكتبات الأوروبية العريقة التي يظن أنه قد تم التعرف على جميع ما تحتويه من مخطوطات من خلال الفهارس التي وضعت لتلك المكتبات، فإن الفحص الدقيق لموجودات تلك المكتبات سوف يكشف لنا عن كثير من الكتب التي كان يعتقد أنها مفقودة أو أنها فريدة نادرة النسخ، وهذا ما تحققت منه في دراستي للمخطوطات الجغرافية العربية المحفوظة في مكتبة البودليان بجامعة أكسفورد، حيث وجدت أن هناك بعض المخطوطات المهمة التي لم تفهرس فهرسة صحيحة، فأضيفت إلى كتب أخرى بعناوين مختلفة.

د. عبدالله الغنيم في سطور

جغرافي كويتي بارز، ووزير التربية والتعليم العالي في الكويت سابقا. سبق أن شغل منصب عميد كلية الآداب في جامعة الكويت، وكان محاضرا وأستاذا مساعدا، وأستاذا بقسم الجغرافيا بجامعة الكويت، وقام بالتدريس في مجال الفكر الجغرافي العربي وجيمورفولوجية شبه الجزيرة العربية منذ عام ١٩٧٦ ميلادية إلى الوقت الحاضر، كما ترأس تحرير مجلة دراسات الجزيرة العربية والخليج منذ ١٩٨٠-١٩٨٥، والتي تصدرها جامعة الكويت، وترأس أيضا مركز البحوث والدراسات الكويتية منذ عام ١٩٩٢ حتى وقتنا الحالي، إضافة إلى عضويته في العديد من الهيئات، مثل المجمع العلمي المصري، والمجلس الأكاديمي الدولي لمركز الدراسات الإسلامية بجامعة أكسفورد، ومجلس إدارة متحف المخطوطات بمكتبة الإسكندرية.

الشيخ رواس قلعجي رحمه الله

فقدت الأمة الإسلامية الفقيه السوري، والأستاذ السابق في كلية الشريعة في جامعة الكويت، وخبير الموسوعة الفقهية؛ الشيخ محمد رواس قلعجي، فجر الأربعاء ٢٣ أبريل الماضي في السعودية، عن عمر يناهز الـ ٨٠ عامًا، قضى الكثير منها في التأليف والفقه والتعليم، وفي البحوث العلمية الإسلامية.

والدكتور محمد رواس قلعجي رحمه الله، من مواليد «حلب الشهباء» ١٩٣٤م، حصل على الدكتوراه في عام ١٩٧٥م من الأزهر بمصر، وقد تأثر كثيرا بمحدث حلب العلامة الشيخ محمد راغب الطباخ رحمه الله، كما تأثر بالعلامة الشيخ «منتصر الكتاني» في كلية الشريعة بجامعة دمشق ومنهجه في تقديم فقه السلف، وتعلق بمنهج «ابن حزم» في المحلى.

تولى التفتيش في مديرية أوقاف حلب، ثم تنقل بين الكويت والسعودية أستاذا جامعيا وباحثا أكاديميا، وانشغل كثيرا بتقديم فقه كبار الصحابة وفقه كبار السلف، وجمع ذلك في مؤلفات متكاملة للأجيال المعاصرة بلغة علمية معاصرة، وتجلى ذلك في عطائه العلمي الغزير.

من مؤلفات الشيخ محمد رواس قلعجي رحمه الله، عدا ما جمعه عن فقه كبار الصحابة:

- الموسوعة الفقهية الميسرة.
- موسوعة فقه ابن تيمية.
- معجم لغة الفقهاء (عربي إنكليزي) تأليف مشترك.
- كتاب المعاملات المالية المعاصرة.

أشرف الدكتور قلعجي رحمه الله في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت على موسوعة «فقه المعاملات المالية المعاصرة».

العلامة الفقيه «محمد هشام البرهاني» في ذمة الله

فقدت دمشق والأمة الإسلامية أحد علمائها الأعلام وأفاضلها الكرام، العلامة الفقيه الشيخ محمد هشام برهاني -رحمه الله تعالى-، والذي توفي صباح يوم الأحد (١٧جمادى الآخرة ١٤٣٥هـ)، الموافق (٢٧/٤/٢٠١٤م) عن عمر ناهز (٨٤) عاما.

اسمه ومولده ونشأته:

هو العلامة الفقيه الداعية فضيلة الشيخ محمد هشام ابن الشيخ محمد سعيد برهاني.

ولد الشيخ محمد هشام برهاني -رحمه الله- في مدينة الياسمين «دمشق» في زقاق النوفرة قريبا من المسجد الأموي عام (١٩٣٢م).

نشأ الشيخ محمد هشام في حجر والده العلامة المربي محمد سعيد برهاني، الفقيه الحنفي، وهو سليل أسرة من الأسر الدمشقية العلمية التي توارث أبناؤها العلم والمعرفة والصلاح والتقوى.

شيوخه:

تأثر الشيخ محمد هشام بوالده كثيرا، واستقى من معينه، واستفاد من العلماء المعاصرين له، وقرأ عليهم ومعهم العلوم الشرعية، وعلوم الآلة التأصيلية.

من أمثال الفضلاء الأكابر:

١. العلامة الشيخ المجاهد حسن حبنكة الميداني (علامة الشام).
٢. العلامة الشيخ الفقيه أديب الكلاس.
٣. العلامة الشيخ الفقيه صالح الفرفور.
٤. العلامة الشيخ محمد أبي الخير الميداني.
٥. العلامة الشيخ محمد الهاشمي التلمساني.
٦. العلامة الشيخ المقرئ عبدالوهاب الحافظ (المعروف بـ: دبس وزيت)،

وحفظ عليه القرآن الكريم.

٧. العلامة الشيخ عبدالرزاق الحلبي.
٨. العلامة الشيخ مصطفى السباعي.

وغيرهم من أهل العلم والفضل.

أعماله وإنجازاته العلمية:

- عمل الشيخ محمد هشام برهاني مدرسا في دار الحديث بمنطقة العصرونية بدمشق.
- ومدرسا في معهد التمدن الإسلامي.
- مدرسا في ثانويات محافظة السويداء (في الجنوب السوري).
- معيدا في كلية الشريعة بدمشق عام (١٩٥٩م) إلى عام (١٩٦٠م).
- مدرسا في كلية الشريعة جامعة دمشق للفقه والأصول.
- مشرفا في كلية التربية على طلاب التطبيقات المسلكية لمدة ثلاث سنوات.
- خبيرا في الشؤون الشرعية في قسم القانون لهيئة الموسوعة العربية.
- مدرسا في الجامع الأموي بدمشق، إضافة إلى دروسه العامة في جامع التوبة.
- شغل العديد من المناصب الإدارية والعلمية في دولة الإمارات العربية المتحدة، التي بقي فيها مدة ثمانية عشر عاما درس خلالها في «جامعة العين» مادة الفقه والفكر الإسلامي.

من كتاب «الحسبة على المدن والعمران» للدكتور وليد المنيس:

العمارة فن وذوق وأخلاق

التحرير

يتصور البعض أن الحسبة في الإسلام تقتصر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحقيقا لمصالح الناس الدينية فقط، لكن من خلال كتاب مهم صدر قبل سنوات عن حوليات كلية الآداب جامعة الكويت، هو «الحسبة على المدن والعمران» يبحر بنا الدكتور وليد عبدالله عبدالعزيز المنيس في عالم الحسبة الشامل، الذي لم يترك فيه الإسلام صغيرة ولا كبيرة إلا خول لولي الأمر الحق في تعيين من يقوم على ضبطها، وفقا لشرع الله تعالى.

ومن خلال مختارات الدكتور المنيس لبعض المهمات والأعمال التي يقوم بها المحتسب ومواقعها في المدن، كما ظهرت في كتب الحسبة، نتعرف على ما اهتم به المشرع المسلم في مجال العمارة من إصلاح الشوارع بأدق التفاصيل التي تتناول حتى وضع الميزاب، واتخاذ الدكاك على الأبواب، ومنع عمارة الحيطان في شيء من الشوارع، بالإضافة إلى منع شغل هواء الشارع بالجناح، وحتى سلوك الجيران في التصرفات المضرة، كالنظرة لمحارم الجار، وسد الضوء... إلى أن الحسبة على الحمامات العامة آنذاك، ومنكرات الأسواق، ورفع الضرر عن الأزقة والرحاب وغيرها.

يذكر الدكتور المنيس أن المحتسب يحرص على ملاحظة مواد بناء المساجد التي لا تسبب أذى للمصلين، ولا تخالف الشرع، وأن يكون المسجد من السعة وجودة التصميم بما يتناسب مع أعداد الناس، ويورد المنيس قول السنامي في «نصاب الاحتساب»: «ويكره نقش المسجد بالجص وماء الذهب، إذا كان للرياء وزينة الدنيا، ولا يكره إذا كان لتعظيم الدين، لأن عثمان رضي الله عنه فعل ذلك بمسجد النبي ﷺ، وأصحابه متوافرون، فلم ينكره منهم أحد».

وإذا كان ذلك العهد على دراية بحدود المعقول من تجميل المساجد، فإنه في عهودنا يجب الحذر من ذلك، للجهل بحدود المعقول، مما سيصرف المساجد عن وظائفها الأساسية، وقد جاء أن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة أراد أن يزيل ماء الذهب من نقوش مسجد دمشق، فقيل له، أنه إذا أزيل فلا قيمة له فتركه.

وتحت عنوان «أحجام الطرق وأنواعها» يقول المنيس: الطرق في المدينة لها أحجام وأطوال تتناسب مع الاستخدام الذي يقوم عليها، والمتأمل لكتاب الحسبة التي أفردت أبوابا وفصولا للحسبة على الشوارع، يلاحظ أن المدن الإسلامية قد ظهر فيها جميع أنواع الطرق، فمنها «الشارع الأعظم» أو المربد، ويصل عرضها إلى ٢٠ ذراعا.

ويضيف المنيس: يلاحظ في هذا النص مسميات أنواع الطرق، فقد ورد مصطلح «الشارع الأعظم»، ثم «الشوارع» ثم «الأزقة» ثم «الطريق»، والأخير يتوافق عرضها مع عرض «الزقاق»، ويدل ذلك أن الحال في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد تبدلت، مما وسع الطرق أكبر مما كانت عليه في المدينة المنورة، حيث إن الطريق ٧ أذرع، وهي تعادل «الزقاق» في العرض.

الجسور والقناطر

ويذكر لنا الدكتور المنيس ظهور توسع وتنوع في الطرق والشوارع بعد عصر النبوة والخلافة، فلقد ظهرت فيما بعد الجسور والقناطر، والمعابر، والوصلات التي تربط بين أطراف ونهايات الطرق، أو التي تظهر لتخطي عوائق الطرق، كما هو الحال في مدن الأندلس، وبلاد الشام، ومصر، وقد ذكر ذلك المقريزي.

ولما تطور السلاح وزادت الأحمال وكثر الناس والوافدون ازدادت هذه الشوارع طولا واتساعا وتنوعا، فالطرق الخاصة للنقل على الدواب، والتي يستعملها الناس أيضا يتوقع أن يكون اتساعها حوالي تسعة أذرع لتستوعب الجمال أو البغال المحملة، بينما في المقابل الشوارع التي تشهد المواكب والعروض العسكرية ومواكب الملوك قد تصل إلى حوالي ٤٠ ذراعا أو أكثر من ذلك، ولقد ازدادت أطوال الطرق حتى قدر عدد شوارع القاهرة في العصر المملوكي، مثلا بحوالي ٢٤٠٠ شارع وحارة، منها ٢٤ شارعا رئيسيا طويلا. بل وأضيئت الشوارع لتيسير الأمور على السالكين، فضلا عن التجميل، ولقد بلغ أطوال الطرق المضاءة حوالي عشرة كيلومترات، كما في شوارع قرطبة في الأندلس، واستخدم فيها المصابيح، والقناديل، والفوانيس وغير ذلك.

مخطط الأسواق العام

ويلفت المنيس إلى أن مخطط الأسواق العام يعطي انطباعا واضحا عن أهميته كعنصر أساسي من مكونات المدينة العربية والإسلامية، مستشهدا بما ذكره الشيزري عن ضوابط إنشاء الأسواق، حيث قال رحمه الله تعالى: «ينبغي أن تكون الأسواق في الارتفاع والاتساع على ما وضعته الروم قديما، ويكون من جانبي السوق إفريزان يمشي عليهما الناس في زمن الشتاء، إذا لم يكن السوق مبلطا، ولا يجوز لأحد من السوقة أن يخرج مصطبة دكانه عن سمت أركان السقائف إلى الممر الأصلي، لأنه عدوان على المارة، يجب على المحتسب إزالته والمنع من فعله، لما في ذلك من لحوق الضرر بالناس، ويجعل لأهل كل صنعة منهم سوقا يختص بهم وتعرف صناعتهم فيه، فإن ذلك لقصادهم أرفق ولصنائعهم أنفق. ومن كانت صناعته تحتاج إلى وقود نار كالخباز والطباخ والحداد فعلى المحتسب أن يبعد حوانيتهم عن العطارين والبزارين لعدم المجانسة بينهم وحصول الأضرار».

ويقول الدكتور المنيس: بالنظر إلى هذه الضوابط الدقيقة التي وضعها الشيزري واشترطها لحسن تخطيط السوق، يمكن أن نستنتج أبرز معالم التخطيط للأسواق آنذاك وهي:

١- السعة، وذلك يسهل إدخال البضائع وإخراجها بوسائل النقل المختلفة، ويسهل دخول المرتادين للسوق، وتسهل الحركة العامة، للناس والبضائع والدواب، والمخلفات المترتبة على ذلك.

٢- الارتفاع، أي ارتفاع أسقف السوق عن الأرض مما يساعد على حركة الهواء، والبضائع ذات الأحجام المتباينة، والدواب.

٣- تبليط السوق، وهذا يساعد على سهولة تنظيفها، وسهولة السير عليها، ويمنع تشكل الوحل إذا نزل المطر، أو سالت الميازيب بالمياه مما يعوق سير الناس والدواب والبضائع، وقد يكون السوق مبلطا بأكمله، وقد تبلط ممراته وهو ما أسماه «بالإفريزان» ويترك الباقي.

٤- تسقيف الأسواق، والسقائف مفردها سقيفة، وهي الأسواق المظللة لحماية السابلة من المطر والشمس، والتسقيف سائد في أسواق المدن العربية والإسلامية إلى الآن، في كثير من المدن، ويرجع البعض أصل السقائف إلى الدولة البيزنطية كما بين ذلك الشيزري في قوله «على ما وضعته الروم»، والحقيقة أن السقائف يصعب أن تربط بحضارة، لأنها من ضرورات

ضوابط العمارة وحق الجوار

ذكر المؤلف أنه يحرم على الجار أن يحدث في ملكه أي شيء يضر بجاره، كحمام يتأذى الجار منه بدخانه، أو يضر ماؤه حائطه، أو كنيف (خلاء) يتأذى جاره بريحه أو يصل إلى بئره، ورحى يهتز بها حائطه، أي حائط الجار، وتنور يتعدى دخانه إليه، لقول النبي ﷺ «لا ضرر ولا ضرار» (أخرجه مالك في الموطأ مرسلا، والحاكم والبيهقي وابن ماجه)، وهذا إضرار بجاره، وللجار أن يمنعه.

ولا يرفع بناءه على بناء جاره إلا بإذنه، ولا يفتح عليه ما يكشفه.

السوق، إذ لا يمكن أن يستمر السوق طوال النهار في الصيف والشتاء وهو مكشوف، يتعرض للشمس والريح والمطر.

٥- انتظام توزيع الدكاكين في السوق على طوال الممرات بخطوط دقيقة مستقيمة، لا تخرج عن سمت أركان السقائف، فلا تتقدم مصطبة دكان على أخرى، وهذا بلا شك يسهل مرور السابلة والبضائع عبر خطوط مستقيمة، أو واضحة المعالم متقاربة السعة، تتناسب وتوزيع الدكاكين، ولهذا يقول الشيزري: «لا يجوز لأحد من السوقة إخراج مصطبة دكانه عن سمت أركان السقائف إلى الممر الأصلي، لأن في ذلك عدوانا على الممر الأصلي، لأنه من حق المارة كما أن فيه فائدة للدكاكين، إذ إنه يمكن السابلة من النظر إلى السلع وتقليبها دون إعاقة التحرك في الطرقات داخل الأسواق.

فهذه أنواع المساكن التي يستعملها الناس لسكنهم، وهي على نوعين كما بيناها، وتعتبر المساكن من الضرورات التي لا تقوم المدن والحواضر إلا بها، وهي أبرز معالم الاستقرار. والبناء أعم من المساكن، وعرفه الفايز بقوله: «البناء أصل وقرار، وأطلق عليه في عرف الناس بناء، والبناء في هذا المعنى يشمل الدار والبيت والمنزل والمسجد والحصن والقنطرة والسور والعرصة المبنية والقرية والرصيف، وكل ماله تربيع، والبناء ليس قاصرا على ما يتخذ من آجر وحجارة وطين ومواد بناء، وإنما يتسع ليشمل الأخشاب وجذوع النخل والسعف والقصب».

ولننظر إلى عظمة ودقة المحتسب، إذ يولي اهتماما بالمهارة في التشييد مع تحديد فترة لاختبار عمر البناء، فبحسب الدكتور المنيس كان ينبغي على الذين يشيدون الأسوار والقباب أو الطاقات الضخمة أن يراعوا في عملهم العناية والمهارة حتى لا يكون الأساس ضعيفا فيتعرج البناء ولا يستقيم، ويعطى مدة عشر سنوات من إنشائه، فإذا انهار أو تداعى من غير قضاء وقدر تحتم عليه أن يشيد بديلا عنه وعلى نفقته. أما المباني المشيدة من الطين فتعطى ست سنوات تحت الملاحظة، فإذا تداعى البناء في خلال هذه المدة تحتم عليه إعادة البناء دون أن يتقاضى أجرا.

حماية الطير والحيوان

ويقول الدكتور المنيس: لعل من أبرز الدلالات على عظمة وأهمية هذه الوظيفة التي هي نتاج الدين الإسلامي، حتى أثناء البناء، ما جاء في «معبد النعم»، قال مؤلفه السبكي: «وربما صادف ما لا يحل، فأنت ترى كثيرا من الطيانين يعجلون في وضع الطين على الجدار، وربما صادف ما لا يحل قتله لغير مأكلة، من عصفور ونحوه فقتله واندمج في الطين، ويكون حينئذ خائنا لله تعالى، من جهة قتله هذا الحيوان».

الخلاصة

ويخلص المؤلف إلى أن كثيرا من عناصر المدينة الإسلامية في زماننا المعاصر قد اختفى أو تغير مع تبدل الحاجات وتغير الأحوال. ولعل من أبرز المؤثرات التي سببت ذلك ترجع إلى أمرين أساسيين:

أولهما: اختفاء مهمة المحتسب من إدارة وتنظيم المدن المعاصرة.

ثانيهما: قيام نظام البلدية المعاصر محل الحسبة، والذي عمل على تغيير معالم المدينة الإسلامية التي صقلت ونظمت تحت ضوابط الحسبة، وذلك لأنها أي البلدية في زماننا تقوم تحت مظلة المدارس الغربية التي تقوم مبادئها وقواعدها على أسس مغايرة لأسس وقواعد الحسبة، ولهذا تعاني مدننا المعاصرة من ازدواج في الشكل والشخصية، فهي في المسمى العام مدن عربية وإسلامية، لكن بناءها وعناصر تكوينها غربية، وهذا الأمر يغلب على كثير من مدننا في العالم العربي والإسلامي.

ويؤكد المؤلف أن المدينة العربية والإسلامية تنتمي إلى حضارة أصيلة تقوم على أسس متينة، جاءت لتعطي أوضح مثال يحتذى وأحسن نموذج يقتدى في كيفية تأسيس المدن، ولقد ظهر هذا في المدينة المنورة في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ومن تبعها بإحسان. ومعلوم كيف قام النبي ﷺ بتحديد مكونات المدينة، بدءًا بالمسجد، ثم المسكن، فالسوق، وهكذا.. وكان ذلك بتناسق وتتابع يتناسب مع الفطرة والدين، ثم شرع ﷺ في بيان كيفية العيش الصحيح في المدن والحواضر بالطريقة التي تضمن السعادة في الدارين، بأفعاله وأقواله وتقريراته، فمنها مثلا: الحفاظ على خصوصية الأسرة التي هي لبنة المجتمع ولب البيت السكني وروحه، ومراعاة التصميم الذي يضمن استمرارها وبقاءها بالصورة المناسبة، والنظافة، وحقوق الجار، وحقوق المسلمين والناس، وإكرام الضيف، وعدم التطاول والإسراف في البنيان، والتوسط في أمور الدنيا، وإتقان العمل، والعمل للآخرة، وحياة الجماعة، وطاعة ولي الأمر في غير معصية، بما يضمن ديمومة المدن والحواضر.

ببليوجرافيا «الوعي» و العمران الإسلامي

م	اســم الكاتــب	عنــوان الموضـــوع	رقم العدد	رقم الصفحة
١	الدكتور محمود محمد قاسم	الجانب العمراني في الحضارة الإسلامية	٦٤	٢٦
٢	عبدالغني محمد عبدالله	عمارة الكعبة حتى العصر الأموي	١٤٤	٦٨
٣	عبدالغني محمد عبدالله	فن العمارة الحربية الإسلامية / قلعة الجبل	١٥٥	٦٨
٤	الأستاذ محمد إبراهيم الصيحي	العمارة الإسلامية	٢٣٦	٧١
٥	المهندس محمد عبدالقادر الفقي	عمارة المدن في الإسلام	٣٠٦	٧٦
٦	الأستاذ محمد الحسيني عبدالعزيز	أساليب العمارة الهندية وسماتها	٣٣٨	٢٨
٧	محمد أبو الأجفان	الحسبة وتنظيم العمران	٣٤٧	٥٨
٨	سمير البوزيدي	خصائص ومميزات العمارة المساجدية بالمغرب	٣٦٩	١٣
٩	أحمد أبو زيد	العمارة الإسلامية في جامع عمرو بن العاص في القاهرة	٣٧٠	٢٠
١٠	عبدالحي محمد عبدالحي	جامع السلطان حسن بالقاهرة درة العمارة الإسلامية ومفخرتها	٣٧٥	١٢
١١	التحرير	عمارة المساجد في مختلف العهود الإسلامية	٣٧٨	٧٢
١٢	حواس محمود	عمارة المساجد	٤٠٠	٣٦
١٣	أسامة سليمان	العمارة الإسلامية	٤٢٤	٨
١٤	كمال زوكيتش	العمارة الإسلامية في البلقان	٤٣٤	٩٥
١٥	يحيى حسن وزيري	عناية الفقه والقضاء الإسلامي بأحكام العمران	٤٥٩	٢٠
١٦	التحرير	ملف العمارة الإسلامية لماذا؟	٤٥٩	٤
١٧	محمد عبدالقادر الفقي	مراعاة البيئة في العمارة الإسلامية	٤٥٩	٢٩
١٨	يحيى وزيري	العمارة الإسلامية والبيئة	٤٦٩	٩٢
١٩	غازي عيسى أنعيم	أثر فن العمارة الإسلامية على فنون الحضارة الغربية	٤٨٤	٣٨
٢٠	مجدي إبراهيم	العمارة الإسلامية في الهند	٤٩٣	٣٧
٢١	ماجدة أبو المجد	المؤتمر العالمي الأول للعمارة والفنون الإسلامية	٥٠٧	٥٥
٢٢	يحيى وزيري	دور الأمر والنهي في الارتقاء بالفنون والعمارة الإسلامية	٥١٣	٥٦
٢٣	جاد الله فرحات	ملامح العمارة الإسلامية المعاصرة	٥١٤	٦٤
٢٤	جاد الله فرحات	عمارة السلطان قايتباي	٥٢٨	٨٦
٢٥	جاد الله فرحات	الأسواق والشوارع في العمارة الإسلامية	٥٣١	٥٠
٢٦	أحمد عبد الجواد زايدة	القرآن وبناء العمران	٥٤٥	٢٩
٢٧	محمد عبد الشافي القوصي	العمران (قصة)	٥٤٩	٥٥
٢٨	يحيى حسن وزيري	استخدام آيات القرآن في العمران	٥٦١	٥٤
٢٩	نبيه فرج الحصري	حقيقة الارتباط بين الإسلام والعمران الشامل	٥٧٩	٣٥

حصون العلم بين عراقة الماضي وإشراقة الحاضر

مساجد الكويت القديمة

تركي محمد النصر
إمام وخطيب بوزارة الأوقاف الكويتية

المسجد سمة أساسية من سمات المجتمع الكويتي، وقد شيد الكويتيون في الماضي مساجد عديدة في كافة أنحاء مدينة الكويت، بمساهماتهم المالية، فقبل عام ١٩٤٩ لم تكن هناك جهة رسمية ترعى شؤون المساجد، بل كانت هذه المسؤولية مناطة بأهالي منطقة المسجد، فعندما يتفق أبناء الحي على بناء مسجد لهم؛ يقومون بجمع تكاليف بنائه، ويعهدون بذلك إلى من يتوسمون فيه الصلاح.

تمتاز مساجد الكويت القديمة بجمالها وبساطة تصميمها، وكانت في بدايتها من الطين والصخر بشكل عام، وأسقفها من خشب الجندل، ومن «البواري»، وهي نوعية من الحصران السميكة تستخدم لتغطية السقف.

وكان المسجد قديما يتكون من «الخلوة» وهي مكان للصلاة بداخل المسجد، وتكون مفروشة بالحصير، وبخارج الخلوة يكون «الليوان» وهو جزء مسقوف، وأعلى نسبيا من صحن المسجد المعروف «بالحوش».

ويلاحظ أن جميع مساجد الكويت القديمة فيها «برجة» لغرض حفظ ماء المطر الذي ينساب من السطح بواسطة أنابيب معدنية تعرف «بالمزاريم»، وفي جزء آخر يكون مكان مخصص للوضوء، وكان يعرف «بالكرو» وهو مقسم بعدة قواطع من البناء لحجب كل متوضئ عن الآخر.

وفي فصل الشتاء تقام الصلاة بداخل «الخلوة»، أما في فصل الصيف فتقام في حوش المسجد، لسبب عدم وجود الكهرباء ووسائل التكييف بذلك الوقت، أما المراوح (البنكات)، فلم تدخل المساجد إلا في منتصف الخمسينيات تقريبا.

أما مآذنها فتمتاز بشكلها المربع البسيط، وهي قليلة الارتفاع عن سطح المسجد، حيث يصعد المؤذن سلما يؤدي إليها فيقف عند مدخلها وينادي للصلاة، ولا تستخدم الزخارف أو النقوش في تصميم هذه المساجد.

وكان الأهالي في بداية الأمر يتولون الإمامة والأذان وتنظيف المسجد ورعايته، والنظر إلى حوائجه ولوازمه، بالإضافة إلى ترميمه، وكان الأئمة والمؤذنون يحتسبون عملهم لوجه الله، ولا يتقاضون أي راتب، ومن كان منهم في حالة غير ميسرة أو بحاجة إلى شيء من المال، فتتم مساعدته من عوائد الدكاكين والأوقاف المتصلة بالمسجد، والمخصصة لهذا الغرض وغيره من احتياجات المسجد.

وكانت المساجد عامرة بالمصلين من كبير وصغير، نظرا لشدة تمسك المجتمع بالدين الإسلامي الحنيف، أما في رمضان فيكون المسجد مكانا روحانيا لأداء الصلوات والذكر، كما أن المساجد هي المكان المناسب في السابق لعقد القران، فيلجأ الكثير إلى بيوت الله تيمنا ببركة ذلك المكان.

وكانت المساجد القديمة أشبه بالمدرسة العامة؛ حيث تقام فيها حلقات تحفيظ القرآن الكريم والدروس الدينية والعلمية، وكان الكثير من الناس يذهبون إلى المساجد للاستفادة من تلك الدروس التي يقوم عليها ثلة من العلماء الأجلاء، من شيوخ العلم الذين تطوعوا لتعليم الناس أمور دينهم، بما يتوافق مع فهمهم وأمورهم الحياتية.

وهكذا بقيت هذه المساجد القديمة شامخة إلى يومنا هذا، إلا أنه مما يثير الحزن والأسى أن بعض هذه المساجد تعرضت للهدم وإعادة البناء، حيث لم يبق لبنائها القديم

أي أثر، بيد أن الفرح يعود إلى القلب والابتسامة ترتسم على الشفاه عندما نرى أن بعض مساجد المدينة القديمة التي شهدت على تاريخ الكويت منذ البدايات الأولى، ظلت عالية وشامخة أمام مظاهر الحضارة والبناء الحديث، فهي تاريخ وتراث وحضارة، هذه المساجد التي بنيت بأيد كويتية أصيلة، ومن أبرز هذه المساجد:

١- مسجد ابن بحر، أسسه الشيخ إبراهيم بن عبدالله البحر سنة ١٧٦٥م.

٢- مسجد الخليفة، أسسه عائلة آل خليفة سنة ١٧٣٧م.

٣- مسجد عبدالجليل، أسسه الشيخ أحمد بن عبدالجليل سنة ١٧٧٩م.

٤- مسجد ابن سلامة، أسسه سلامة بن سلامة سنة ١٨١٠م.

٥- مسجد ابن خميس، أسسه محمد الجلاهمة سنة ١٧٧٢م.

٦- مسجد ياسين القناعي، أسسه ياسين القناعي سنة ١٧٨٤م.

٧- مسجد الفضالة، أسسه السيد صالح فضالة الفضالة عام ١٨٩٩م.

٨- مسجد الشايع، اشترك في تأسيسه التاجر عبدالله بن سليمان النجدي، والسيد محمد بن حمود الشايع سنة ١٩٠٧م.

٩- مسجد السهول، أسسه السيد سليمان جاسم السهلي سنة ١٩٥١م.

وأخص بالتفصيل أقدم مسجدين تم إنشاؤهما في الكويت كنموذجين لبقية المساجد القديمة فيها، وهما مسجد «ابن بحر»، ومسجد «الخليفة».

أولا: مسجد ابن بحر:

كانت الكويت منذ عام ١٦١٣م تعيش كقرية صغيرة عامرة، اتخذها بعض الصيادين، والبدو، وحراس الحصن مقرا لهم في القرن الحادي عشر الهجري، الموافق السابع عشر الميلادي، وذلك قريبا من حصن بني خالد، وكان لابد لسكان هذه القرية الصغيرة أن يكون لهم مسجد تقام فيه الصلاة، فكان مسجد ابن بحر، أول مسجد بني في الكويت، وظل شاهدا تاريخيا إلى فترة الستينيات، حيث هدم المسجد القديم أيام بداية تكوين العمارة والسكنى الحديثة في الكويت، ولم يبق من عمارته القديمة إلا ما ترويه بعض المصادر التاريخية القديمة.

موقعه وتأسيسه: كان يقع إلى الجنوب من الموقع السابق لدائرة الجمارك، مقابل الفرضة، في محلة الإبراهيم التي كانت تقع شمال المناخ، مقابل قصر السيف.

وذكرت بعض المصادر أن مؤسس هذا المسجد هو «الشيخ إبراهيم بن عبدالله البحر»، فيما تذكر مصادر أخرى أن بعض الصيادين هم الذين أسسوا هذا المسجد.

ويعود تاريخ تأسيسه إلى سنة ١١٧٩هـ الموافق ١٧٦٥م، بحسب دائرة الأوقاف العامة في البلاد، فيما ذكرت بعض المصادر الأخرى التي تعتمد على الثبوتيات القديمة (الحجة) أن تأسيسه يعود إلى سنة ١٠٩٨هـ، الموافق ١٦٨٥م.

أما بناؤه فكان من الطين والصخر بشكل عام، وسقفه من الجندل، حاله كحال بقية المساجد القديمة التي بنيت في تلك الفترة.

تجديدات المسجد:

بحسب بعض المصادر فإن هذا المسجد قد مر بأكثر من تجديد، كان أولها سنة ١١٥٨هـ الموافق ١٧٤٥م، وهو ما أثبتته وقفية المسجد، التي نصها: «جدد بناءه عبد الله بن علي بن سعيد بن بحر... سنة ١١٥٨هـ الموافق ١٧٤٥م...».

وبعد مرور ما يقرب من ١١٧عاما، أي: في سنة ١٢٧٥هـ الموافق ١٨٥٨م، حدث التجديد الثاني الذي قام به السيد عبدالله بن عيسى بن محمد الإبراهيم.

أما التجديد الثالث فقد قامت به دائرة الأوقاف العامة في ٢٣ من ربيع الأول ١٣٧٦هـ الموافق ٢٧ أكتوبر ١٩٥٦م، وتم من خلال هذا التجديد عمل تعديلات كثيرة من قبل دائرة الأوقاف العامة على الجزء الشرقي من المسجد، شملت هدم وإعادة بناء لحوائط حوش المسجد والمنارة ودورات المياه والوضوء.

كما شملت التعديلات إضافة نقوش أسفل الحوائط الخارجية للمسجد، وقد تمت إعادة بناء ما سبق ذكره بواسطة الخرسانة والطابوق الإسمنتي، وتمت المحافظة في هذه الفترة على الحوائط الطينية للحرم والليوان، إضافة إلى سقف الجندل التقليدي، وفي فترة لاحقة تمت إزالة سقف الجندل وطبقات الطين فوقه، وتم استبدالها بسقف صناعي من الخشب.

ونظرا لقربه من مسجد الدولة الكبير الذي بني فترة الثمانينيات من القرن العشرين، ولحالته الإنشائية غير المرضية تم غلقه أمام المصلين.

وفي سنة ١٩٩٦م قامت الأمانة العامة للأوقاف بتأسيس لجنة مشروع المساجد التراثية، بالتعاون مع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية وبلدية الكويت والمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، حيث اعتبر هذا المسجد من أهم المساجد التراثية، والواجب المحافظة عليها، وتم عمل التوثيق والاختبار للمسجد في سنة ١٩٩٧م، وبوشر بأعمال التصميم على أساس المحافظة على المسجد، وإضافة توسعة داخل الحوش لسكن الإمام والمؤذن. وقد بوشر بالتنفيذ في منتصف سنة ٢٠٠٠م، لتنتهي في سنة ٢٠٠١ م.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر بأنه أثناء أعمال الترميم تهدم جزء من الحائط الطيني الجنوبي للمسجد، وذلك بسبب الرياح الشديدة والأمطار التي هطلت أثناء أحد أيام الشتاء في سنة ٢٠٠٠م، كما أن هناك سببا آخر لسقوط الجدار وهو ضعف أساساته.

الحياة العلمية للمسجد:

تذكر بعض المصادر أن ثلة من العلماء والمشايخ أموا هذا

المسجد ودرسوا فيه، وأقاموا فيه حلقات القرآن الكريم، والدروس الدينية، ونذكر بعضا من الأئمة والمؤذنين الذين أموا المسجد في فترة الخمسينيات تقريبا، ومنهم:

١. الملا عبدالمحسن ابن عبدالله البحر، ت: ١٩٥٨م

٢. وخطب فيه الشيخ العلامة عبدالله بن محمد بن أحمد النوري ت: ١٩٨١م

٣. وصلى فيه الشيخ أحمد غنام الرشيد ت: ٢٠٠٩م.

٤. الملا محمد عبدالرحمن البحر، ولد: ١٩١٩م

وقفية المسجد:

لهذا المسجد وقف قديم جدا بتاريخ ١٣٨٨هـ، في القطيف، وهو عبارة عن قطعة أرض بها نخل أوقفها السيد محمد ابن غانم، حسب الحجية.

ثانيا: مسجد الخليفة:

وصفه وتأسيسه:

يقع مسجد الخليفة على شارع الخليج العربي، على ربوة مرتفعة قليلا، ويُدخل من خلال بوابته الكبيرة إلى ساحة المسجد، حيث يلاحظ ستة أبواب داخلية تؤدي إلى حرم المسجد، ويلاحظ به ست نوافذ من جهة الغرب، وبه ستة أعمدة خشبية، ويتصل المنبر بمحرابه، وله فناء واسع يتسع لحوالي مائتي مصل، وله بابان كبيران متجاوران من ناحية الخليج وآخر مقابل لهما، كما تشمخ منارته التي كانت صغيرة في بداية إنشائها من جهة الخليج أيضا، ولا يزال المسجد في موقعه القديم، شرقي مسجد الدولة الكبير، مقابلا لمبنى وزارة الخارجية الجديد.

وذكرت المصادر أن المؤسس الأول لهذا المسجد من عائلة آل خليفة حكام البحرين، وقال المؤرخ الكويتي سيف مرزوق الشملان: بأن تأسيسه كان سنة ١٧٣٧م.

تجديدات المسجد:

مر المسجد عبر تاريخه بعدة تجديدات، كان من أبرزها التجديد الذي وقع على عهد الشيخ مبارك الصباح رحمه الله، سنة ١٩٠١م، وزاد فيه زيادات كبيرة، وقد بلغت تكلفة هذا التجديد ثلاثة آلاف وستمائة ليرة عثمانية ذهبية، وزاره وصلى فيه بعد تجديده والي البصرة العثماني محسن باشا.

وبقي المسجد على هذا التجديد حتى عام ١٩٥٥م، حيث قامت دائرة الأوقاف الكويتية بتجديده وترميمه وتوسيعه، وبلغت تكلفته أكثر من ١٥٥ ألف روبية.

أما آخر تجديد للمسجد فقامت به الأمانة العامة للأوقاف، وتم الانتهاء من ذلك سنة ٢٠٠١م بحضور الشيخ خليفة آل خليفة.

التاريخ العلمي للمسجد:

احتضن المسجد العديد من حلقات العلم، وتحفيظ القرآن الكريم، وعمل أئمته وخطباؤه على تعليم الناس وتفقيههم في دينهم، ومن أبرز أئمته ومؤذنيه:

١. الشيخ عبدالرحمن محمد أحمد الفارسي، ت:١٩٤١م، أم وخطب في المسجد ودرس فيه العلوم الشرعية، وعلوم اللغة العربية.

٢. الملا يوسف بن راشد بن محمد بن حمادة، أم في المسجد أكثر من خمس عشرة سنة، وبقي فيه حتى عام ١٩٥٠م.

٣. الملا محمد بن ملا علي الإبراهيم، ت: ١٩٦٩م.

٤. الشيخ محمد بن أحمد بن حسين الفارسي، ت:١٩٨٢م، عمل إماما وخطيبا في مسجدنا هذا، وفي غيره من مساجد الكويت.

٥. الملا عبدالوهاب السنان. حيث كان من أوائل المؤذنين في هذا المسجد.

وقفية المسجد:

لهذا المسجد عدة أوقاف داخل الكويت وخارجها، منها:

١. عمارة مقابل المسجد على السيف أوقفها الشيخ سالم مبارك الصباح.

٢. قطعة أرض في القطيف مزروعة بالنخل، أوقفها عليه الشيخ خليفة بن محمد جد آل خليفة الأكبر ومؤسس المسجد.

الخاتمة:

مما سبق يتضح لنا الدور الفعال الذي كانت تؤديه المساجد القديمة، والمكانة المرموقة في نفوس وقلوب أبناء المجتمع الكويتي القديم؛ حيث كان للمسجد كبير الأثر في حياتهم على المستويات: الاجتماعية، والثقافية، والدينية، كما مر سابقا، وكان لمسجد الخليفة هذا مكانته بدولة الكويت، وإلى عهد قريب كان يعد المسجد الرسمي للدولة.

المصادر:

١- الكويت القديمة: صور وذكريات، د. يعقوب الحجي.

٢- تاريخ مساجد الكويت القديمة.

الأوقاف وبداية عمران المساجد الكويتية

هي مرحلة عمرانية نوعية تلك التي بدأت في الكويت مع سنة التأسيس لدائرة الأوقاف العامة عام ١٩٤٩م، إذ بعدها دخلت المساجد في تطور معماري ملحوظ باستخدام الأساليب الحديثة والمخططات الهندسية والاستعانة بالخبرات المعمارية من بعض الدول، ووفق إصدار الأمانة العامة للأوقاف تحت عنوان «الآثار والتراث المعماري للمساجد القديمة في الكويت» لسنة ٢٠٠١م، فقد تبين أنه قبل عام ١٩٤٩م كان الأسلوب المتبع في بناء المساجد يمثل نمطا آخر ومدرسة مختلفة، فهو يمثل في الحقيقة مدى القياس في الفرق ما بين منهجية أستادية البناء آنذاك وما بين المهندسين المعماريين الذين استعانت بهم دائرة الأوقاف العامة بعد عام ١٩٤٩م، إذ أصبح العمل في بناء المساجد يدخل في دائرة تنظيمية متطورة بالنسبة إلى ذلك الوقت، وليس معنى ذلك أنها كانت لم تستعن بأستادية البناء الكويتيين في بادئ الأمر، بل كان هناك تعاون حتى صار الأمر بعد ذلك بالتوجه نحو الاعتماد على المعماريين والمهندسين في السنوات التالية منذرا باضمحلال ونهاية حرفة أستاد البناء في الكويت.

شكلان للبناء

يوضح الباحث بشار خليفوه، الذي أعد هذا الإصدار القيم وزوده بالصور التي التقطها بنفسه، أن هناك مرحلتين لأشكال المساجد من الناحية المعمارية، وهما مرحلة ما قبل تأسيس دائرة الأوقاف العامة، ومرحلة ما بعد تأسيسها، إذ الفرق بينهما واضح تماما، وذلك أيضا سوف يلاحظه القارئ بوجود بعض الصور للمقارنة، والتي تترجم ذلك المعنى، حيث بدت دائرة الأوقاف أكثر تطورا من حيث توافر الإمكانات، وتأديتها دورا كان له أثر واضح في ترميم وإعادة بناء المساجد القديمة وإظهارها بصورة جديدة.

يقول خليفوه: أما المرحلة الأولى فهي مرحلة ما قبل تأسيس دائرة الأوقاف، فقد كانت مساجد الكويت في البداية عبارة عن عريش أو غرف صغيرة مبنية من صخور البحر والطين والأعمدة الخشبية القائمة بعرض الأسقف (الجندل)، وهي في غاية البساطة القائمة تحت إشراف أستادية البناء آنذاك، حتى أدخلت إليها بعض النقوش البسيطة على النوافذ والأبواب، وتم بناء المآذن الصغيرة الحجم التي غالبا ما تأتي على شكل مربع، وقليلا ما تكون دائرية أو أسطوانية الشكل. ويسعفنا هنا نص واضح يصف المساجد آنذاك، وهو مكتوب في تلك الفترة، وهو ما كتبه لوريمر سنة ١٩١٥م في كتابه «دليل الخليج» المنشور من قبل حكومة الهند في كلكتا آنذاك. والإفادة هنا أن لوريمر قد هم بجمع هذه المادة بنحو عشر سنوات قبل نشر هذا الكتاب لأول مرة، أي إنه بدأ العمل فيه عام ١٩٠٥م، وقد اعتبر هذا الكتاب وثيقة سرية لا يجوز الاطلاع عليها في بادئ الأمر، إلا أن الظروف اختلفت بعد ذلك. وحين وصف الكويت في تلك السنة، وهي إبان حكم الشيخ مبارك الصباح، رحمه الله، ذكر حينها أن المساجد لا تتميز بأي تصميم تصحبه معالم هندسية واضحة البيان. وذلك يفسر مستوى الإمكانات آنذاك، والوضع المعماري للمساجد في تلك الفترة.

ويوضح الباحث، الذي اعتمد على سجل دائرة الأوقاف العامة المنشور عام ١٩٥٧م في بحثه، أن دولة الكويت قد تأثرت بعدة ثقافات أثرت العمارة والبناء، كالثقافة العثمانية والهندية والفارسية وغيرها.

تضم مدرسة وقبة ومستشفى:

مجموعة السلطان قلاوون.. ياقوتة القاهرة الإسلامية

إسلام لطفي
القاهرة - دار الإعلام العربية

يصفها كل زائر لشارع المعز بأنها «ياقوتة القاهرة الإسلامية»، تعلو شامخة وسط شتى الآثار الإسلامية التي يزخر بها هذا الشارع الأثري في قلب القاهرة القديمة، إنها «مجموعة السلطان قلاوون» رمز العمارة المملوكية، والتي تضم مسجدا وقبة ومدرسة وبيمارستان (مستشفى)، والتي تحمل جميعها بريق جمال لم تستطع ملامح الشيخوخة التي تسللت إلى القاهرة أن تهزمها.. «الوعي الإسلامي» تجولت بهذه المجموعة وجاءتكم بهذه المشاهدات:

يشرف المدخل الرئيسي لهذه المجموعة الأثرية الرائعة على شارع المعز لدين الله، ويكسو مصراعي بابها كسوة نحاسية حفرت وفرغت بزخارف جميلة، ويؤدي هذا المدخل إلى مجاز طويل مسقوف يفصل بين القبة والمسجد، وبنهايته باب كان يؤدي إلى البيمارستان الذي أتي الزمن على معظم معالمه؛ فلم يبق منها سوى النزر اليسير من بعض قاعاته، بعد أن كان واسع الأرجاء فسيح الجنبات، اشتمل على كثير من الأقسام لعلاج الأمراض المختلفة، وألحق به صيدلية لتركيب وصرف الأدوية للمرضى، كما خصص به مكان لتدريس الطب.. وجعل المنصور قلاوون هذا البيمارستان مشاعا للغني والفقير، وهو كما وصفه المؤرخون، يعتبر من مفاخر مدينة الشرق في القرون الوسطى.

وقد عنيت لجنة حفظ الآثار العربية من سنة ١٣٢١

إلى سنة ١٣٣٠هـ (١٩٠٣-١٩١٢م) بتجديد هذا المدفن، فرممت بعض جوانبه، وأصلحت الرخام والزخارف، وأكملت الناقص منها، وجددت بعض الشبابيك الجصية، وأعادت الأسقف إلى أصلها، وأقامت عليه قبة على شكل القباب التي كانت تبنى وقت إنشائها. ولم يفتها أن تثبت هذا التجديد على لوح رخامي مركب على يمين باب الصحن المؤدي إلى المدفن.

أما وجهة هذه المجموعة الأثرية المشرفة على شارع المعز لدين الله، ففريدة في نوعها، إذ تتكون من قسمين: البحري منهما، وهو الواقع يمين الداخل من الباب الرئيسي، يكون وجهة المدفن الذي تغطيه القبة آنفة الذكر، وبنهاية هذه الوجهة تقوم مئذنة ضخمة ذات ثلاث طبقات، جددت أيام الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٣/١٣٠٤م) عقب سقوط أعاليها بزلزال سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٣م). والقبلي منهما، وهو البارز عن سمت وجهة المدفن، تتألف منه واجهة المدرسة.

ذكرى حسنة:

وكان المنصور قلاوون أحد مماليك الأتراك، اشتراه الأمير «علاء الدين آق» بألف دينار؛ لذلك لقب بالألفي، وبعد وفاته أصبح مملوكا للملك الصالح نجم الدين أيوب، ولقب بـ«الصالحي النجمي» نسبة إلى سيده الملك الصالح، وظل يترقى في المناصب، حتى أصبح كبير الأمراء أيام حكم الملك العادل سلامش بن الملك الظاهر بيبرس، وبعد أن تم خلع الملك العادل سلامش ٦٧٨ هجرية، ١٢٧٩م، تولى الحكم، وأصبح لقبه الملك المنصور بن قلاوون، واستمر حكمه ١١ عاما، وتوفي عام ٦٨٩ هجرية، ١٢٩٠م.

ونظرا لما لحق عهده من مظالم، فقد سعى إلى ترك ذكرى حسنة بين الناس من خلال تشييد مسجد يحمل اسمه، ملحقا به مستشفى، ومدرسة لعلوم القرآن، إضافة إلى قبة وضريح دفن به، وقد بدأ العمل في بناء هذه المجموعة في شهر ربيع الآخر من عام ٦٨٣ هجرية، وانتهت أعمال البناء بعد أربعة عشر شهرا فقط.

وتعد واجهة المجموعة تحفة معمارية تعكس عمارة العصر المملوكي، إذ تتكون من قسمين، قسم يقع على يمين المدخل الرئيسي، وهو وجهة المدفن، والذي يعلوه قبة مميزة يجاورها مئذنة ضخمة ذات ثلاث طبقات، تم تجديدها على يد الناصر بن قلاوون عام ١٣٠٤م، أما القسم الثاني فيتكون من واجهة المدرسة، وتحتوي على عدة شبابيك مفرغة، تتخذ أشكالا هندسية رائعة، أسفلها طراز مكتوب عليه بخط النسخ المملوكي اسم المنشئ وألقابه وأسماؤه.

وبمجرد الدخول من الباب الرئيسي، يوجد ممر كبير، ومساحة شاسعة ذات تصميم معماري فريد، فعلى يمين المدخل الطويل يقع مدفن قلاوون وقبته، ويتكون المدفن من صحن كبير مقام على أربعة أعمدة ضخمة من الجرانيت، يعلوها الرسوم والأشكال المذهبة، وتغطيه قبة مميزة، يقع أسفلها ضريح دفن به الملك المنصور وابنه الناصر محمد، محاط بأربعة جوانب خشبية مفرغة، ويكسو الجداران من الداخل كما يكسو أسفل الأكتاف وزرة من الرخام الملون والخردة الدقيقة المطعمة بالصدف، يعلوها طراز مكتوب عليه بالذهب آيات قرآنية، وتاريخ تجديد القبة سنة ١٣٢٦ هجرية، ١٩٠٨م.

أما المحراب الموجود داخل هذه المجموعة، فمصنوع من الرخام، تزينه رسوم وزخارف بديعة؛ يعتبره الخبراء من أجمل المحاريب التي أنشئت في مصر من فرط جماله وأناقته.

وفي نهاية المدخل باب كان يؤدي إلى المستشفى التي تهدمت واختفت معظم معالمها، فلم يتبق منها سوى القليل من القاعات ذات المساحات الكبيرة، وكان يضم العديد من الأقسام لعلاج الأمراض المختلفة، وألحقت بها صيدلية لتركيب وصرف الأدوية، كما خصص بها مكان لتدريس علوم الطب.

إبداع العمارة المملوكية:

وعن مجموعة السلطان قلاوون، يقول مفتش الآثار بالإدارة العامة للقاهرة التاريخية عمرو عبدالكريم: إنها من أهم المجموعات الأثرية الموجودة في شارع المعز لدين لله، لكونها من أروع ما أبدعت العمارة المملوكية.

وأشار عبدالكريم إلى أن السلطان قلاوون قام بشراء قصر «ست الملك»، وقاعة من مؤمنة خاتون بنت الملك العادل، وقام بتوسيعها، وأمر بإنشاء مجمع ديني، من مدرسة ومستشفى وقبة، وكانت المدرسة مخصصة في نفس الوقت لإقامة الشعائر الدينية، يوجد بها شبابيك

مستديرة من البرونز المصبوب بزخارف مفرغة، وبها محارب من أكبر وأفخر المحاريب في مصر في عهد الفاطميين، حيث جلبها الملك عبدالرحمن هدية لقلاوون، وكان الطلاب عند الصلاة يتوضأون من ممر مائي يأتي من الساقية.

وأوضح أنه كان يتم تدريس الفقه الشرعي بمذاهبه الأربعة، إضافة إلى جميع العلوم، من طب وحساب وهندسة وأدب وشعر وغير ذلك، كما كانت المدرسة تضم قاعة تسمى «قاعة الطوحية» توجد فيها مجموعة من الخدمات التي تقدم للطلاب ليتعلموا الكتابة والعلم من شيوخ المدرسة.

ونوه إلى أن «القبة» تعتبر من أبرز أعمال قلاوون في فنون العمارة الإسلامية، فهي عبارة عن ضريح يعلوه قبة خصصها قلاوون ليدفن فيه هو وأفراد أسرته بعد وفاتهم.. وهذه القبة كانت تستخدم كقاعة لتعليم علوم الحديث قبل بناء المدرسة، وكان بها مجموعة من المكتبات.

وأضاف عبدالكريم، أنه يوجد تخطيط في هذه القبة يشبه قبة القدس، فهي من أهم القباب الموجودة في العمارة الإسلامية، وتتكون من قاعدة مثمنة مكونة من أربع دعائم، وبها أربعة أعمدة رخامية مكسوة من الخارج بالرخام والحجارة الكريمة، ومكتوب عليها بالخط الكوفي، وكانت رقبة القبة مستديرة، وتتمتع بسقف خشبي مزخرف ببراعة منقطعة النظير.

وأكد أن العمارة الإسلامية في عهد السلطان قلاوون عنيت بالأسقف الخشبية المزخرفة، وكان أول ترميم يحدث للفنون الإسلامية بعد قلاوون، في عهد الخديوي توفيق، حيث تم تشكيل لجنة الآثار في عهد الخديوي توفيق عام ١٨٨٢م إلى عام ١٩٦٤ في عهد الرئيس الأسبق جمال عبدالناصر، ولم ترمم بعد ذلك.

وعن البيمارستان أوضح أنه ضم جميع التخصصات والمستلزمات الطبية، وكان الهدف منه معالجة جميع الحالات، خاصة مرضى القلب أو العقم أو رمد العين، وبه قسم خاص للنساء، وكان التركي «أوليا جلبي» أشهر الرحالة في الدولة العثمانية في القرن ١٧ الميلادي، من أبرز المرضى الذين تلقوا علاجهم في هذه المستشفى وتم شفاؤه من مرض العقم.

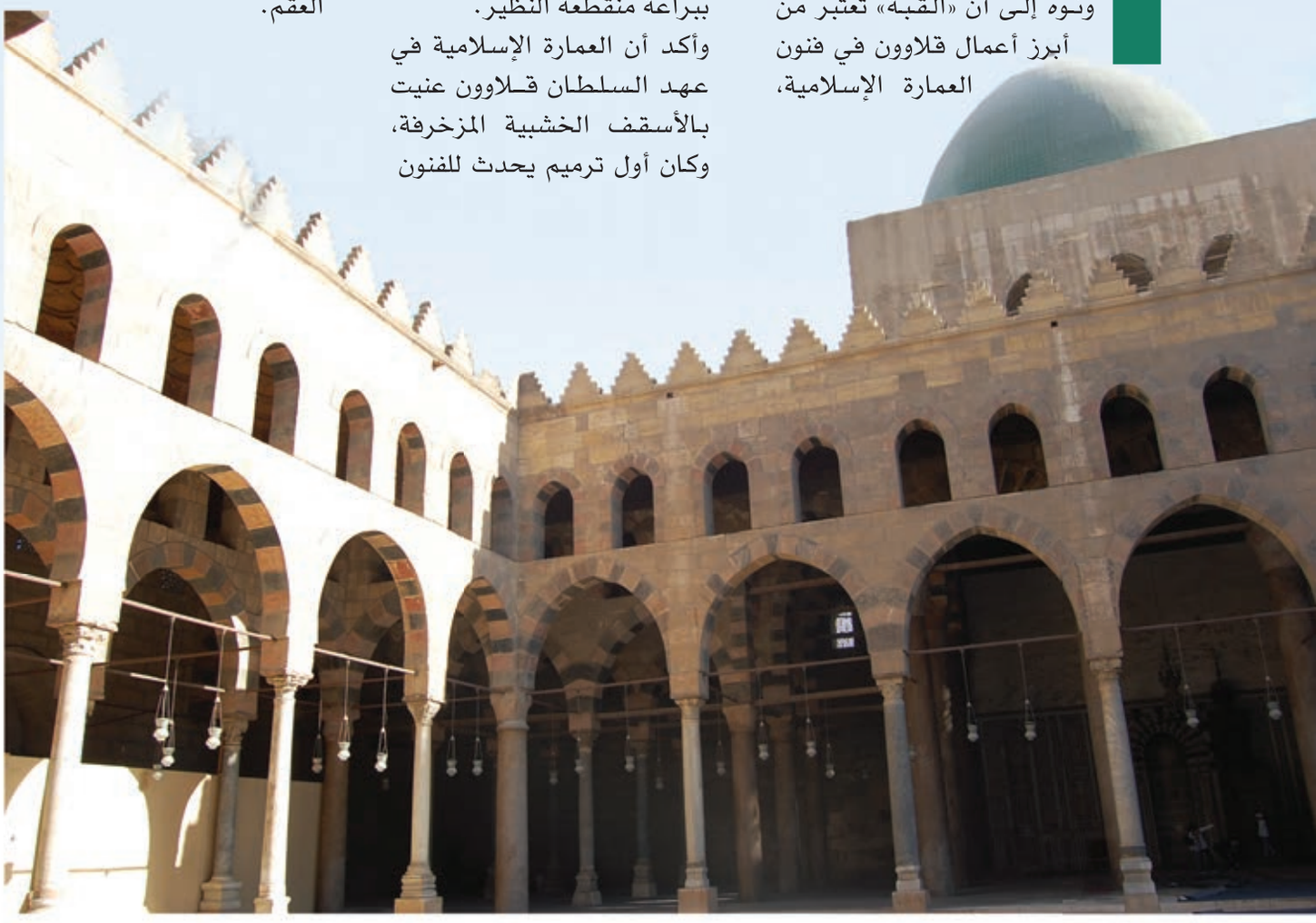

ثراء المعمار العربي.. نظرة غربية

السنوسي محمد السنوسي
باحث وصحافي

يخطئ من يظن أن الأحجار صماء، لا تنطق ولا تبين. كلا، إنها، وبقية نظائرها من المعادن والأخشاب والتراب؛ تحكي قصة الحضارة، وتشهد على القيم التي تنشأ في أحضانها، وتدل عليها.

ولذلك، تتميز حضارة عن أخرى، ليس بما تحمل من قيم ومبادئ فحسب، بل بما تخلف من آثار وعمران تكون وجها آخر لتلك القيم والمبادئ. وما يصدق بحق الإسلام، يصدق بحق غيره من الملل والنحل.

والعمران مصطلح أشمل من العمارة، التي هي الأبنية؛ مثل: المساجد والقصور والتكايا. بينما العمران يشمل كل ذلك، إضافة إلى أنواع أخرى كثيرة، مثل: النحت، وصناعة الأواني والخزف، والزجاج الفني، والنجارة.. إلخ.

وقبل أن نتناول العمران الإسلامي وجمالياته في عيون المفكرين الغربيين، من المهم أن نشير إلى ملاحظتين أساسيتين:

الأولى أن العمران الإسلامي، بفنونه المتعددة، قام على أساس من العقيدة الإسلامية، التي أسست على التوحيد؛ فجاءت المساجد في بساطتها وروعتها تعكس وضوح العقيدة الإسلامية وصفاءها، بخلاف الكنائس التي تعكس عمارتها تعقيد المسيحية وتحريفها. وعرف المسلمون وأبدعوا فن «الأرابيسك» الذي يعكس فكرة التجريد واللامتناهي، لا التجسيد؛ تأثرا بالتوحيد وبعدم قدرة الإنسان على الإحاطة بالذات الإلهية.

أما الملاحظة الثانية فهي أن العمارة الإسلامية تمتاز بخصيصة أساسية تعرف بخصيصة «الجوانية»، فأي مبنى، سواء أكان مسجدا أم مدرسة أم مسكنا، يحمل الطابع الجواني؛ بمعنى أن عمارته الخارجية أقل شأنا من عمارته الداخلية؛ ونرى ذلك في المساجد الأولى، كالجامع الأموي في دمشق وجامع عقبة في القيروان وجامع قرطبة، كما نراه بشكل شامل في المساكن والقصور. إن خصيصة الجوانية هذه تنسجم في المباني الخاصة مع شاغل المبنى الذي يبحث عن مجال خاص به يستقل فيه عن العالم الخارجي. ولذلك، فهو يغني هذا المجال الداخلي بأروع الزخارف والأثاث المعماري، ويهمل الواجهات الخارجية لأسباب كثيرة، أبرزها رغبته في عدم التظاهر والتفاخر والمضاهاة (١).

وهذه الخصيصة توفر أيضا الستر والخصوصية لأهل البيت، حيث تطل منافذهم على الداخل، ويستترون عن عيون المارة؛ بعكس العمارة الحديثة.

وقد التفت المفكرون الغربيون إلى إبداع العمران الإسلامي، وتجديده، وقدرته الهائلة على تجسيد قيم الحضارة التي انبثق منها.. وسنعرض فيما يلي لشهادة ثلاثة من هؤلاء المفكرين: لوبون، جارودي، هوفمان.

مرآة المجتمعات

يعد جوستاف لوبون واحدا من أبرز المستشرقين الذين رصدوا بإعجاب معالم الحضارة الإسلامية، من خلال سفره الضخم «حضارة العرب»، الذي طوف فيه بالمجالات والمظاهر المتنوعة لتلك الحضارة التي امتدت على رقعة مترامية الأطراف، في عصور متعاقبة؛ راصدا الإسهامات المتميزة التي قدمها المسلمون للعالم.

وهو يرى أن الفنون مرآة المجتمعات، تعكس واقعها؛ وأنه إذا «كانت الفنون عنوان مشاعر الأمة وتصوراتها، كانت العوامل القادرة على تحويلها كثيرة كثرة العوامل التي تؤثر في المجتمعات» (٢).

ويشير إلى ثراء الفنون العربية، الجميلة والصناعية؛ من العمارة، والنحت، وصناعة الخزف، والزجاج الفني، والفسيفساء، والنجارة، وغير ذلك، مؤكدا أن «مباني العرب أهم آثار العرب الفنية» (٣).

ويبين أن العرب في بداية حضارتهم وفنهم المعماري قد اقتبسوا من الفرس والبيزنطيين. لكنهم -برأيه- قد تحرروا من هذه المصادر، وانتهوا إلى إبداع طراز مستقل خصب (٤).

ومن خلال المقابلة بين مباني العرب في مختلف البلدان التي دانت لهم، يخلص لوبون إلى أن تلك المباني يظهر فيها «تماثلها، الذي نشأ عن وحدة النظم والمعتقدات. ويظهر تباينها، الذي نشأ عن اختلاف البيئات والعروق التي كانت تلك النظم والمعتقدات سائدة فيها» (٥).

أي إنه يلفت النظر إلى أن العمارة الإسلامية في مختلف البلدان تتشابه؛ لقيامها على نظام قيمي مستمد من المنهج الإسلامي. كما أنها تختلف وتتباين؛ لوجود مساحة من المرونة والانفتاح تسمح بأن تتأثر تلك العمارة ببيئاتها المختلفة.

ولوبون، سواء في تأكيده قيام العمارة الإسلامية على نسق قيمي، أو في تأكيده انفتاح العمارة الإسلامية على غيرها من الثقافات؛ فإنه يتفق مع رؤية المفكر الفرنسي رجاء جارودي كما سيأتي بيانه.

لقد أبدى رجاء جارودي اهتماما مبكرا بالعمارة الإسلامية وفنونها المتعددة، وسجل إعجابه بها بتفصيل ينم عن إحاطة ووعي، خصوصا في كتابه: «في سبيل حوار الحضارات». والمفارقة أنه أصدر هذا الكتاب قبل أن يعلن إسلامه، وأراد به إنصاف الحضارة الإسلامية، وإبراز دورها الأصيل في قيام النهضة الغربية الحديثة.

يؤكد جارودي -ابتداء- وحدة الفن الإسلامي، وارتباطه بالعقيدة الإسلامية القائمة على التوحيد، باعتباره -أي التوحيد- ركيزة أساسية تصبغ بطابعها ما يليها من تفصيلات وتفريعات؛ فيقول: «الفن الإسلامي يعبر عن تصور للعالم يقول بأن مصيره واضح» (٦).

ويعاود التأكيد على تلك النقطة لأهميتها في كتابه «وعود الإسلام» فيقول: «إن نظرة واحدة -وإن كانت سطحية- على الشواهد الكبرى للفن الإسلامي في العالم، تكشف عمق وحدته وأصالته؛ فأيا ما كان الحيز الجغرافي المقام فيه الأثر أو غايته، فإننا نحس بأننا نعيش فيه التجربة الروحية نفسها» (٧).

ويوضح جارودي أن مفهوم «التوحيد» قد أدى إلى أن ينطبع الفن الإسلامي بالتجريد، لا التجسيم؛ إضافة إلى الانفتاح على فنون الثقافات الأخرى.

وبالمقابل، أشار إلى أنه يمكن لمن يجري استقراء للفنون الإسلامية أن يهتدي إلى مفهوم «التوحيد» كخيط مشترك ينساب بين أنسجة تلك الفنون؛ فيقول: «هذا المفهوم عن التعالي الإلهي (التوحيد) يسود فنون الإسلام ويقودها إلى شكل مجرد (التجريد)» (٨).

ويضيف عن تجربته الذاتية في فهم الإسلام من خلال الفنون الإسلامية: «إنني انطلاقا من تأمل

فنون الإسلام ومساجده إنما شرعت أفهم عظمة العقيدة الإسلامية، بتأكيدها الجذري على التعالي. وفي الوقت ذاته، على انفتاح، وعلى قبول لا يقتصر على سائر أسر الإيمان الإبراهيمي وحسب، بل يمتد إلى إمكان حوار خصيب مع حكمة آسيا والهند واليابان» (٩).

أما عن جماليات العمارة الإسلامية، والتي تبدت كأوضح ما يكون في المساجد، فيشهد جارودي أن «المسجد -بلا ريب- هو المثل الرمزي الأعظم» للعمران الإسلامي وفنونه؛ وأنه «نوع من صلاة الحجارة، وملتقى جميع فنون الإسلام. وقد أصاب القائلون إن جميع الفنون تقود في الإسلام إلى المسجد، والمسجد إلى الصلاة» (١٠).

ويلاحظ جارودي أن من بين السمات الأساسية للمسجد أن بناءه يرتبط بوظيفته؛ فهو «من حيث بنيته ذاتها، يستجيب لوظيفته. إنه لا يشبه الكنيسة المسيحية، ولا المعابد الإغريقية. إنه لا يصلح صندوقا للاحتفاظ برفات قديس، ولا ديكورا لحفلة شعائرية؛ وهو يريد أن يكون مجرد مصلى لذكر الله. ومن هنا، نشأ شكله الأصيل؛ إنه لا يشبه في شيء خلية المعبد الإغريقي، ولا التصميم الطولاني للكنائس المسيحية. إنه أعرض ما يكون العرض؛ حتى يتيح لأكبر عدد من المؤمنين أن يقابلوا المحراب، الذي يدل على القبلة نحو مكة».

البساطة والتجريد

أما السفير مراد هوفمان فقد شرح جماليات العمارة الإسلامية -خصوصا بناء المساجد- على نحو يسترعي الانتباه، يكشف عن مدى الدقة والروعة والتناغم بين الحجر وبين إيحاءات العقيدة الإسلامية، التي تمتد خيوطها لتشمل كل نواحي الحياة. يقول هوفمان: «تثير العمارة الإسلامية في زخرفتها الخارجية والداخلية -رغم تنوعها الكبير- شعورا بالمكان ذا طابع إسلامي مميز، يستوعب ملامحه البارزة والدقيقة؛ وهو ما يمكن للمرء أن يشهده -على سبيل المثال- في مباني وباحة قصر الحمراء في غرناطة، أو في المساجد المميزة مثل تلك التي توجد في قرطبة والقيروان والقاهرة وإسطنبول».

ويبين هوفمان أن الخاصية الإسلامية المميزة لهذه التجربة الفنية ترجع إلى عدة عناصر، هي على وجه التحديد:

- المثل الأعلى الخاص بالبساطة في الواجهات الخارجية للقصور الإسلامية، التي تكاد توحي للمرء بالمسلمة الجميلة التي تسدل الحجاب على وجهها عندما تغادر دارها.
- الطابع الديموقراطي اللاطبقي للإسلام، والذي يغلب على تصميم أماكن العبادة الإسلامية.
- الدرجة العالية من التجريد، والتي تتفق مع جلال الله عن الوصف عند المسلمين.
- الأبعاد الإنسانية في تكوين النسب المعمارية، والتي تعكس حرص الإسلام على التوازن، والاعتدال، ومنهج الوسطية في معالجة كل الموضوعات.
- تجرد أماكن الصلاة من المناخ السحري، الذي يدل على خلو الإسلام من الطقوس والأسرار المقدسة والغموض.
- تصميم الحدائق بوحي من وصف القرآن للجنة.

ويشير هوفمان إلى أن «التجريد» المتمثل في التداخل اللامحدود للزخرفة العربية (الأرابيسك)، يطلق عقال العقل للتركيز في الله الجليل عن الوصف، والتحديد، والقياس. ولذلك، غابت عن المساجد الصور التي تصور الله أو الإنسان (١١).

ولعل بساطة المساجد -على النحو الذي فصله هوفمان- هي ما جعلت الكولونيل دونالدس روكويل، الذي أسلم، يذكر أنه عندما كان يقف في مساجد إسطنبول ودمشق وبيت المقدس والقاهرة والجزائر وطنجة وفاس، وغيرها من المدن، كان يحس بشعور عميق بقدرة الإسلام في بساطته على الارتفاع بروح البشر إلى الآفاق العليا؛ من دون حاجة إلى زخارف أنيقة، أو تماثيل، أو صور، أو موسيقى، أو طقوس رسمية؛ فالمسجد مكان للتأمل الهادئ، ونسيان الذات، وفنائها، واندماجها في الحقيقة الكبرى؛ في ذكر الله الأحد (١٢).

هوامش:

١ - د. عفيف البهنسي، فنون العمارة الإسلامية وخصائصها في مناهج التدريس.

٢ - لوبون، حضارة العرب، ص:٤٩٨، ترجمة عادل زعيتر، طبعة مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠م.

٣ - المصدر نفسه، ص:٥٠٦ و٥٠٧، باختصار.

٤ - المصدر نفسه، ص:٥٢٣، بتصرف يسير.

٥ - المصدر نفسه، ص:٥٢٣.

٦ - جارودي، في سبيل حوار الحضارات، ص:١٧١، ترجمة د. عادل العوا، طبعة مكتبة الأسرة، ٢٠١٣م.

٧ - جارودي، وعود الإسلام، ص:١٤٤ و١٤٥، ترجمة د. ذوقان قرقوط، دار الرقي، مكتبة مدبولي، ط٢، ١٩٨٥م.

٨ - جارودي، في سبيل حوار الحضارات، ص:١٧١.

٩ - المصدر نفسه، ص:٧. ولا يفوتنا أن نشير إلى أن جارودي يقصد من «أسر الإيمان الإبراهيمي»: الشرائع السماوية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام، لأنها تشترك في أنها -في الأصل- من عند الله سبحانه وترجع إلى أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام؛ لكن دخل التحريف والتبديل على كثير من أصول اليهودية والمسيحية، بخلاف الإسلام الذي حفظه الله وارتضاه لعباده إلى قيام الساعة. ومن هنا، فمصطلح «الإيمان الإبراهيمي» قد يستخدمه البعض للتمويه على الاختلافات الجذرية بين الإسلام من جهة واليهودية والمسيحية من جهة أخرى، بدعوى رجوعها جميعا إلى نبي واحد.. وهذا خطأ فادح يجب الحذر منه.

١٠ - المصدر نفسه، ص:١٧١.

١١ - هوفمان، يوميات ألماني مسلم، ص:٢٢-٢٤، بتصرف يسير، ترجمة د. عباس رشدي العماري، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط١، ١٩٩٣م.

١٢ - نقلا عن: محمد عزت الطهطاوي، في الدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين، ص:٢٠١، دار التراث، ط١، ١٩٧٩م.

عيون دمشق

الجامع الأموي
بناه الخليفة الوليد بن عبد الملك
سنة ٨٦هـ - ٧٠٥ م
MOSQUEE DES OMAYYAD
BATIE PARLE CALIFE AL WALID
705 AP – 86 HIJ

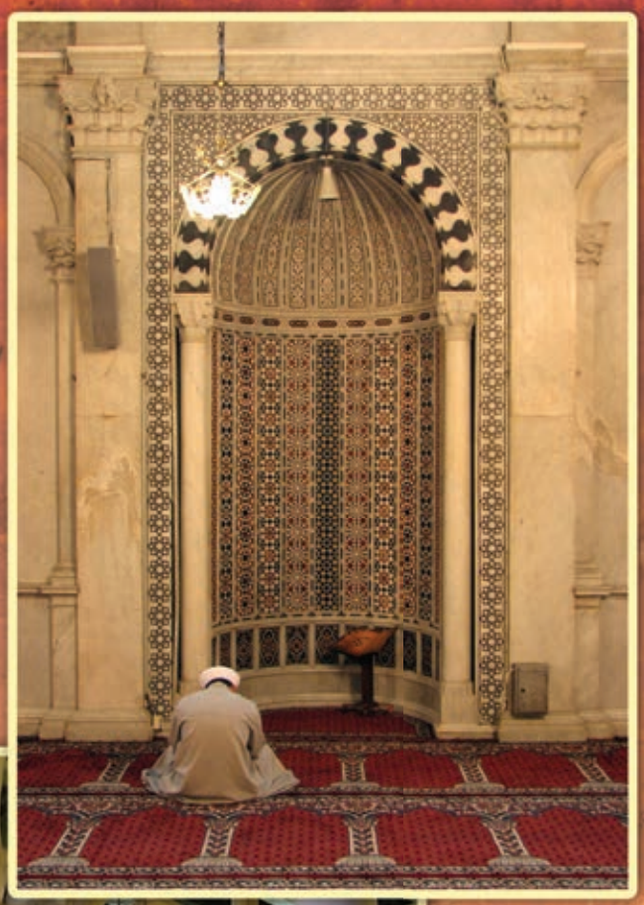

سنان باشا.. أبو العمارة التركية

التحرير

المعماري سنان باشا (٨٩٥هـ - ٩٩٦هـ/ ١٤٩٠م- ١٥٨٨م) أبرز وأشهر من امتهن عمارة المسلمين في القرن العاشر الهجري، سواء في الدولة العثمانية أو على مستوى العالم الإسلامي، نظرا لتميز أعماله البنائية والمعمارية بالكثرة والقوة والمتانة والضخامة، المصحوبة أيضا بمظاهر من الجمال والروعة.

مولده

ولد يوسف بن خضر بك بن جلال الدين الحنفي الرومي المشهور بسنان باشا في قرية «آغير ناص - آغريناس» التابعة لولاية قيصرية في الأناضول من عائلة مسيحية، سنة ٨٩٥ هـ/١٤٩٠م في عهد السلطان بايزيد الثاني بن محمد الفاتح، وعرف منذ صغره بحبه لشق قنوات المياه في الحدائق، وشغفه ببناء الأكواخ وحظائر الحيوانات.

ولأن طموح سنان باشا كان عاليا جدا فقد التحق بالجيش العثماني، ليحصل على فرصة للتعليم والحصول على وظيفة كبيرة في الدولة. انتقل سنان إلى العاصمة التي تلقى تعليمه في إحدى مدارسها، والتحق بمدرسة ابتدائية فيها تعلم القراءة والكتابة والفنون التطبيقية، ثم استكمل تعليمه في «الأوجاق» المعماري الخاص.

برز تفوقه المعماري خلال فترة حكم السلطان سليمان القانوني (٩٢٦هـ - ٩٧٣هـ/ ١٥٢٠-١٥٦٦م) الذي عرف عصره بالعصر الذهبي للدولة العثمانية، فأنشأ سنان جسرا فوق نهر «بروت» خلال ١٣ يوما، كما بنى جسرا آخر على الدانوب جعل السلطان سليمان القانوني على إثره يمنحه لقب كبير مهندسي الدولة العثمانية عام ٩٤٤هـ/ ١٥٣٨م.

واستمر عمل المعماري العبقري سنان في إشادة الصروح العمرانية الفريدة

إلى أن وافته المنية عن عمر ناهز المائة عام.

٤٠٠ صرح معماري

تعتبر أعمال سنان المعمارية صفحة ناصعة في تاريخ فن العمارة الإسلامية، حيث شيد خلال مسيرته المهنية الطويلة عددا كبيرا من المباني ذات الوظائف والمضامين المختلفة، ولاتزال العديد من الآثار العمرانية المهمة تشهد على عبقريته وإبداعه، وتحمل توقيعه في العالم العربي، كمجمع الخسروية في مدينة حلب، والتكية السليمانية في مدينة دمشق، كما قام بترميم قباب الحرم المكي الشريف في مكة المكرمة.

بناء القباب

ظهرت عبقرية سنان باشا العمرانية بشكل واضح في بناء القبب، وذلك بتوصله إلى إنشاء منظومة هندسية عالية المستوى، شغلت جميع العناصر التركيبية للمبنى، محققا بذلك أوسع قدر من الفراغات المتاحة، ومحققا انسجاما وتناسقا بين هيئة الشكل الخارجي ونوعية الفضاء الداخلي.

جامع السليمانية

يعد جامع السليمانية من أشهر أعمال سنان المعمارية المنجزة في عهد السلطان سليمان القانوني. ففيه قدم سنان تصميما جديدا وجريئا، أحدث تحولا مهما في فن العمارة العثمانية والإسلامية.

بني عام ١٥٥٧م على ربوة عالية مطلة على القرن الذهبي، وألحق به دارا لإطعام الفقراء، ومشفى ومدرسة للطب، وحماما ودارا للكتاب، وأربع مدارس عليا، وعددا كبيرا من الحوانيت، وفي الجهة الخلفية للجامع يوجد مدفن يضم ضريحين، أحدهما للسلطان سليمان وآخر لزوجته، بينما تموضع ضريح سنان باشا الذي شيده بنفسه على مقربة من الجامع.

جامع السليمية

يعد جامع السليمية بهندسته أعظم وأجمل إنجازات سنان الإبداعية برأي خبراء ومختصي فن العمارة، إذ تمكن بتصميمه الهندسي من التفوق على هندسة كنيسة أيا صوفيا، بإنشاء قبة أعلى من قبتها بمقدار ستة أذرع وأعمق بأربعة أذرع. وفيه استغنى سنان باشا عن نظام أنصاف القباب المستخدمة في عمليه الإبداعيين السابقين: جامع شهرزاده والسليمانية، واستعاض عنه بنظام القبة الواحدة. وللجامع أربع مآذن موزعة على زواياه الأربع، ولكل مئذنة ثلاث شرفات، وهي تعتبر من أعلى المآذن في العالم.

تلاميذه

من تلامذته: أحمد آغا، وداود آغا، ويتيم بابا علي، ويوسف وسنان الصغير، وهناك الكثيرون ممن يخلطون بين سنان الصغير وسنان المهندس الأكبر، ويعتقد بأن يوسف كان تلميذ سنان المحبوب، وينسب إليه تشييد قصور لاهور ودلهي وأكرا للسلطان المغولي الشهير جلال الدين أكبر في الهند.

وفاته

امتدت حياة سنان باشا حتى اقترب من المائة، وعاصر خمسة من سلاطين الدولة العثمانية، هم بايزيد الثاني، وسليم الأول، وسليمان القانوني، وسليم الثاني، ومراد الثالث، وبعد حياة مليئة بجلائل الأعمال توفي سنان باشا في (٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م) تاركا ذكرى لا تضيع.

مكية.. والمسجد الكبير

الدكتور محمد صالح مكية من مواليد بغداد عام ١٩١٤م، درس الهندسة المعمارية في جامعة ليفربول ببريطانيا، ونال درجة البكالوريوس عام ١٩٤١ وحصل على الدبلوم في التصميم المدني من الجامعة نفسها، أما الدكتوراه فقد حصل عليها عام ١٩٤٦م من جامعة كمبردج في بريطانيا، وكان موضوع أطروحته «تأثير المناخ في تطور العمارة في منطقة البحر المتوسط».

كان مكية أحد مؤسسي قسم الهندسة المعمارية بجامعة بغداد عام ١٩٥٩. وظل رئيسا للقسم حتى عام ١٩٦٨، وبعدها أسس مكاتب لشركة مكية في كل من البحرين وعمان ولندن والكويت والدوحة وأبوظبي ودبي.

صمم الدكتور محمد مكية المسجد الكبير في دولة الكويت، حيث اختار تصميمه على الطراز الأندلسي الفاخر، وقد افتتح عام ١٩٨٦م، بناء على توجيهات من أمير الكويت الراحل الشيخ جابر الأحمد الصباح، رحمه الله، وساهم في بنائه خمسون مهندسا وأربعمائة وخمسون عاملا، وتبلغ مساحته ٤٥ ألف متر مربع، منها ٢٥ ألف متر مربع مبنية، و٢٠ ألف متر مربع مكشوفة، تشكل حدائق وممرات المسجد الخارجية.

التراث الكويتي .. قاطرة التقدم الحضاري :

دار الآثار الإسلامية نموذجا

تحقيق : نشوة صالح

إلى أي مدى عكست العمارة الإسلامية أصالة الإنسان المسلم؟ ولماذا لم تهتم الدول العربية والإسلامية بتطبيق نماذج مستوحاة من طراز الحضارة الإسلامية التي أبهرت العالم؟ وهذه الأبنية المعمارية الإسلامية الشاهدة على تفوق وعظمة العقلية الإسلامية لماذا لا تحفزنا كمسلمين لعودة المجد العلمي والمعرفي والفني مرة أخرى؟!

حاولت «الوعي الإسلامي» الإجابة عن هذه الاسئلة من شخصيات علمية ومهتمة بالبناء المعاصر، وقد أكدت جميعها على أن فن العمران الإسلامي عكس ذوق الإنسان المسلم، مشيرين إلى أن استلهام الماضي بغرض عودة الأمة الإسلامية لسابق عهدها الريادي ليس ضربا من الخيال.

والتفاصيل في ثنايا هذه السطور:

في البداية تجولنا في دار الآثار الإسلامية الرابضة على شارع الخليج العربي وتعرفنا على أهم الآثار الإسلامية، مع دليلنا مدير إدارة البرامج الإعلامية والعلاقات العامة أسامة البلهان، الذي تحدث عن بداية تأسيس «الدار» قائلا: يمتد تاريخ «دار الآثار الإسلامية» على مدى عقود ثلاثة من الاقتناء والاهتمام والرعاية للفن الإسلامي، مشيرا إلى أن بداية الاقتناء كانت في منتصف حقبة السبعينيات من القرن الماضي، ورافق هذه الفترة تصور لإنشاء بيت للفن الإسلامي بالكويت، واستمرت الجهود حتى تم «دار الآثار الإسلامية» في مجمع متحف الكويت الوطني عام ١٩٨٣.

ونبه البلهان أن مجموعة المقتنيات الأثرية نقلت إلى بغداد بسبب الاحتلال الغاشم عام ١٩٩٠ مع باقي مجموعات متحف الكويت الوطني، إلى أن تم استردادها تنفيذا لقرار الأمم المتحدة بإنهاء حرب الخليج في ١٩٩١، معربا عن أسفه لتعرض كل من التحف والمتحف لكثير من الدمار إبان وقت الاحتلال، موضحا أنه بعد تحرير البلاد تم إعداد برنامج لترميم التحف، وإعادة تأهيل مبنى متحف الكويت الوطني.

ولفت البلهان إلى أن «دار الآثار الإسلامية» تشغل حاليا مبنى مستشفى الإرسالية الأميركية كمقر مؤقت يحتضن المعارض والتحف والمقتنيات، ويقيم الورش الثقافية ويقدم المحاضرات. في تظاهرة ثقافية سنوية ترمز إلى أهمية تنمية الوعي الفني في المجتمع، مشيرا إلى أنه يحتوي على إحدى أهم معارض الدار «ذخيرة الدنيا.. فنون المصوغات الهندية في العصر المغولي» وقد عرض أكثر من ٥٠٠ تحفة فنية من مجموعة الصباح الأثرية، ذاكرا أن هذا المعرض بدأ رحلته في بريطانيا مرورا بإحدى عشرة عاصمة عالمية.

وبين البلهان أن دار الآثار الإسلامية تضم مركز «الأمريكاني» الثقافي الذي يحتوي على مركز تعليمي ومركز للتدريب ومعرض يعرض قصة الأمريكاني (عرض سمعي وبصري) لتاريخ مستشفى الإرسالية الأميركية، والرعاية الصحية في الكويت، منذ نشأتها. ذلك بالإضافة إلى مسرح وقاعة محاضرات متعددة الأغراض. بجانب هذا تم تجهيز مختبر لصيانة

وترميم التحف الأثرية لتدريب الكوادر المستقبلية من الباحثين، وكذلك تدريب متطوعين في البرامج المختلفة للدار. شارحا «قصة الأمريكاني» قائلا: هو عرض سمعي بصري يبهرك في التعرف على تاريخ أول مستشفى للإرسالية الأميركية، وكيف كانت الرعاية الصحية في الكويت أيام زمان.. يعود بك العرض إلى الكويت القديمة في أوائل القرن التاسع عشر، ويطوف بك العرض الفيلمي وصولا إلى الحداثة والمعاصرة في عالم الطب، ومبادرات دولة الكويت في تطوير الرعاية الصحية وبناء المستشفيات الحديثة، مشيرا إلى أن العرض يقدم باللغتين الإنجليزية والعربية بشكل يومي.

موقع مميز

وأكد البلهان أنه من ضمن خطط دار الآثار الإسلامية المحافظة على شكل العمارة الأصلية التقليدية وترميمها وإعادتها لتصاميمها القديمة، منبها أنه تم اختيار مبنى مستشفى الإرسالية الأميركية أو «المستشفى الأمريكاني» نظرا إلى الموقع الاستراتيجي المتميز، إذ يقع على شارع الخليج العربي بجوار مبنى مجلس الأمة، ومقابل الكنيسة الإنجيلية، مقدما ملمحا لتطور الحياة في الكويت، وشاهدا على إرساء قواعد صلبة للتسامح الديني وحرية الأديان والمعتقدات، وراصدا ما يدور في الحقل السياسي والحياة الديمقراطية في هذا البلد، إضافة إلى إطلالته على ساحل الخليج العربي الزاخر بأهازيج أهل البحر القدماء، الذين مخروا عباب البحر بحثا عن الرزق، متسلحين بإرادة قوية ترفض التقاعس وتدعو إلى البحث في الأفق عن مجد يخلده التاريخ لهذا البلد.

حوار ثقافي

وأوضح البلهان أن دار الآثار الإسلامية تقدم موسما ثقافيا يتضمن نخبة من باحثي وعلماء الوطن العربي والغربي، منذ انطلاق الدار كمتحف إسلامي يقدم رسالة ثقافية، فضلا عن إقامة المحاضرات الأسبوعية التي تتضمن تأكيد النظرة العملية الشاملة للمفهوم الثقافي التي تعد بمثابة حوار ثقافي يجمع ثقافات متنوعة، فمعظم من يحاضر في مواسم الدار الثقافية هم متخصصون عرب وأجانب تجمعهم لغة البحث والتراث، ويصب ذلك في وعاء ثقافي نحاول من خلاله أن نقدم روائع متنوعة لكل متذوقي الفنون الإسلامية ما بين العالمين الشرقي والغربي، وصولا إلى اليابان.

وأضاف أن الدار تقدم موسما ثقافيا سنويا ينطلق من سبتمبر من كل عام، وينتهي في مايو من العام الذي يليه، وتقدم الدار أكثر من (١٥٠) فعالية ثقافية ما بين محاضرات وأمسيات ثقافية.

أحجار كريمة

طالعنا المقتنيات الأثرية داخل دار الآثار الإسلامية الذي يعود بزائريه إلى زمن الماضي الجميل، بكل روعته، حيث تطالعك مجموعة من التحف والأشكال الزخرفية والإبداعات الفنية المتعددة، والكثير من التحف الإسلامية التي تتنوع بين الكتب والمخطوطات والخزف والمشغولات الزجاجية والمعدنية والأحجار الكريمة والمجوهرات، فضلا عن أنها تضم الزخارف المعمارية، ونماذج من المنسوجات، والسجاد، والعملات، بالإضافة إلى الأجهزة العلمية. وكم تبهرك الفنون الزخرفية سواء على مستوى الأواني المنزلية المصنوعة من البرونز التي نقشت عليها الآيات القرآنية، فضلا عن أن هناك الكثير من خطوط مصاحف القرآن الكريم التي كتبت بخط اليد، حيث يوجد الخط الكوفي والأندلسي والحجازي أو الريحاني، مشيرا إلى أن من عجائب التراث الإسلامي بلاطات فارسية الشكل، صنعت من عجينة كلسية متجانسة، مما يدل على ذوق ومهارة وفن علماء الهندسة في العصور الإسلامية التي أبدع فيها علماء الإسلام.

تحدي الزمن

ويرى الخبير الاقتصادي حجاج بوخضور أن التراث المعماري الإسلامي مازال يتحدى الزمن بقوة، مستغربا من عدم متانة البناء في العصر الراهن، لافتا إلى أن أي عقار الآن لا يزيد عمره الافتراضي عن ٨٠ عاما، وربما أقل، رغم أن الظروف والإمكانات المتاحة الآن لم تكن متاحة في العصور القديمة.

وطالب بضرورة الاستفادة من تراث الحضارة الإسلامية على كافة المستويات، سواء المعمارية أو الطبية أو الهندسية، منبها إلى أن الحضارة العربية تطورت لأنها استفادت من الحضارات القديمة في وقت تلاشت فيه الحضارة الأوروبية التي ازدهرت فيما بعد على حساب الحضارة الإسلامية، التي كانت بنكا للحضارات القديمة.

وأعرب بوخضور عن أسفه لتدهور الثقافة والحضارة الإسلامية، لافتا إلى أن أهل الإسلام عندما اهتموا بالعلوم المختلفة أجادوا في كافة أنواعها، وعندما ابتعدوا عنها أصبحوا الآن يعيشون في ذيل الأمم.

ويرى أستاذ علوم الآثار بجامعة القاهرة د. صبري عبدالواحد أن التراث المعماري الإسلامي يعكس فن وذوق الإنسان العربي والمسلم بشكل عام، منبها أن التراث المعماري الإسلامي المتمثل في المساجد كجامع الزيتونة والمسجد الأموي والجامع الأزهر، فضلا عن المساجد الشاهقة في إيران والأندلس تعكس جذور الحضارة الإسلامية التي لا تستنكف من الاستفادة من الحضارات القديمة، لافتا إلى أن البناء الإسلامي القديم رغم أنه استمد من فنون العمارة الفارسية والإغريقية فإنه في نفس الوقت وضع اللمسات الإسلامية، مؤكدا أن إبداع علماء الإسلام في العمارة جعلهم يتفوقون على فنون العمارة المكتسبة من الحضارات القديمة، مشيرا إلى أن التراث المعماري الإسلامي استخدم الأساليب الزخرفية الخارجية والداخلية، مشيرا إلى أن كل حقبة تميزت في طابعها المعماري عن الأخرى، حيث يوجد الطراز الأموي والعباسي والأندلسي والفاطمي والعثماني.

خصائص الحدائق الإسلامية

محمد إلهامي
باحث في التاريخ والحضارة الإسلامية

قليلا ما يلتفت الباحثون إلى «الحدائق» في حضارة الإسلام، وأغلب الظن أن ما بقي من آثار العمران الإسلامي قد سلب العيون عما اختفى منه، فالقصور والقلاع والأسوار والأبواب والزخارف والنقوش والخطوط وغير ذلك، شغلت الأبصار والقلوب عن شيء كالحدائق، تلك التي لم يبق من أثرها شيء تقريبا.

ولا يصح تصور المدن الإسلامية بغير تصور الحدائق، ذلك أنها انتشرت في كل مكان حتى ذهب بعض الباحثين إلى القول بأن المسلمين نظروا إلى الحديقة باعتبارها الأصل والعمران هو التابع لها (١).

عالم من الحدائق

لا يكاد المرء يمر على كتاب في التاريخ أو البلدان فيحاول رسم صورة لما يقرأه إلا وتكون الحديقة أساسا وأصلا في هذه الصورة، لقد كان العالم الإسلامي كأنه قطعة خضراء، وما كان ثمة من يحب التفنن في شيء إلا وبنى حديقة أو بنى شيئا له حديقة: قصرا أو مسجدا أو مستشفى أو مدرسة...إلخ.

وإذا كانت الحديقة أمرا طبيعيا في القصور، فإن المثير للعجب هو انتشار الحدائق حتى في بيوت الفقراء، مهما كانت متناهية في البساطة، يقول المؤرخ الأميركي وول ديورانت: «وكانت بيوت الفقراء وقتئذ -كما هي الآن- أبنية مستطيلة الشكل؛ مقامة من اللبن الملتصق بالطين، سقفها خليط من الطين، وأعواد النبات، وغصون الأشجار، وجريد النخل، والقش. وكانت البيوت الأرقى من هذه نوعا تشتمل على فناء داخلي مكشوف، ذي فسقية، وشجرة في بعض الأحيان؛ وكانت تحتوي أحيانا على طائفة من العمد الخشبية، ورواق مسقوف بين الفناء والحجرات» (٢)، وذات العجب يبدو واضحا من كلام الباحث المتخصص في الأندلسيات جيمس دكي لدى حديثه عن الدور الصغيرة في غرناطة بأنه «مع أن أغلب تلك الدور صغير إلا أن فيها جميعا مياها جارية وزهورا وورودا عبقة وشجيرات ووسائل راحة كاملة، تبرهن على أن هذه الأرض عندما كانت في يد الموريين (المسلمين) كانت أكثر جمالا مما هي عليه اليوم» (٣).

وحين عزمت السلطات المغربية ترميم النافورات القديمة في مدينة فاس وحدها، أحصت في شوارع فاس نحو ٧٠ نافورة، وحوالي ٤٠٠ نافورة داخل المساكن والمساجد والمدارس العتيقة (٤). ويندر أن تجد في بلاد الإسلام مدينة معروفة ولا يحكي مؤرخها عما كان فيها من رياض وجنان وحدائق، وكم من بلاد نزلها المسلمون فحولوها من خرائب إلى حدائق غناء، ويكفي أن تعرف أن كل نخيل الأندلس إنما هو من نخلة حملها عبدالرحمن الداخل من الشام.

فكيف بما بناه الملوك والأمراء والأغنياء من قصور ورياض وجنان وبساتين، عامة أو خاصة، منفردة مقصودة بذاتها أم ملحقة بقصر أو مسجد أو مدرسة أو ما سوى هذا؟!!

لقد انعكس كل هذا على النفس الإسلامية التي تأثرت بالجمال والرقة إلى حد لم يبلغه أحد من قبلها أو من بعدها، إلى حد جعلها تتخذ زخارفها من النباتات، بل إلى حد جعلها تسمي كتبها بتلك الأسماء العجيبة «رياض الصالحين»، «الزهر النضر»، «بستان الواعظين ورياض السامعين»، «الروض الزاهر»، «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، «بدائع الزهور في وقائع الدهور».. فأي أمة جعلت أسماء كتبها على هذا النحو؟!!

حدائق قرآنية

فلقد كانت الآيات والأحاديث هي الأستاذ الأول في اصطناع المسلمين لحدائقهم، فمن قوله تعالى ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ (البقرة:٢٦٥)، فهموا أن خير أماكن الحدائق هي الربى والمرتفعات، وهذا صحيح علميا؛ إذ يجنب الارتفاع الأشجار عدة عوامل معوقة للنمو والإثمار الجيد وأسباب المرض، كالتقاء الجذور بالمياه الجوفية التي تحد من نموها وتصيبها بالتعفن، كما يوفر الارتفاع تصريفا مناسبا للماء الزائد، وإذا لم ينزل المطر رويت هذه الحدائق بطريقة الرش والرذاذ (٥)، ومن أمثلة هذا جنة العريف في غرناطة، إذ أقيمت على سفح ربوة، وصممت على هيئة مدرجات ينهمر عليها الماء من عيون بأعلى الحديقة تصب في قنوات تمر عبر الأشجار، بما يدل دلالة واضحة على التأثر بآية ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ (الواقعة:١٣). (٦).

وينقل لنا المقريزي أن خمارويه بن أحمد بن طولون طلى جذوع النخل والشجر بالنحاس المذهب، فكأنه كان يحاكي وصف الجنة في حديث النبي صلى الله عليه وسلم «ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب»، وجعل بين جذع النخلة وطبقة النحاس أنابيب رصاصية يتدفق منها الماء، فكأنه يتدفق من النخلة ثم يجري في مسارات محكمة إلى أحواض تفيض الماء على باقي الحديقة، فكأنه بهذا يحاكي الجنة في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ (الحجر:٤٥).

وحتى في الأسماء نجد ذات التأثر واضحا، «فقد سمي قصر المنصور «الخلد» تشبيها له بجنة الخلد، وما يحويه من كل منظر رائق، ومطلب فائق، وغرض غريب، ومراد عجيب» (٧). وهذا التأثر بالآيات والأحاديث إنما هو تأثر متضاعف، فهو علامة على الارتباط بالكتاب والسنة، ثم هو من عوامل زيادة الارتباط بالكتاب والسنة في الوجدان العام.

حدائق بأدب الإسلام

كانت الحدائق جزءا من نمط العمارة الإسلامية التي تهتم بالداخل والراحة النفسية أكثر من اهتمامها بالخارج ومظاهر الاستعراض، ويهتم نمط العمارة الإسلامية في البيوت وأبوابها ونوافذها بصيانة البيت وأهله من التكشف، فأبواب البيت مائلة بزاوية لا تسمح لنظر ناظر بكشف الداخل، وكذلك النوافذ فهي مزخرفة منمقة تسمح لمن بالداخل برؤية الخارج، فيما يتعذر العكس.

وكذلك كانت الحدائق، فهي محاطة بأسوار عالية أو بطوق من النخيل يحجب رؤية الداخل عمن بالخارج، فيوفر لمن بالداخل راحة وأمنا وخصوصية، وحتى في البيوت الأصغر كانت الحدائق في فناء البيت الداخلي، لا في محيطه الخارجي، بل وحتى في القصور، كثيرا ما كانت الحدائق بين الأبنية الداخلية وليست فقط محيطة بها.

وقد انعكس كل هذا على الحياة الاجتماعية للمسلمين، ففي حين احتاجت الحضارة الغربية إلى شوارع واسعة وحدائق عامة وميادين ذات نوافير، كان كل هذا متوفرا في داخل البيوت في الحضارة الإسلامية، مما انعكس بدوره على متعة أكثر في الداخل وعلاقة أمتن بين الأسرة وذوي الأرحام وبين أطفال البيوت، ووفر فرصا أقوى لتربية الأطفال وتقوية الأرحام وتحقيق المتعة في بيئة آمنة، ولم يمنع هذا من كون المتنزهات العامة والحدائق الكبرى مزيد متعة، ولكنها في هذه الحال متعة ثانوية لا أساسية كما هو الحال في الحضارة الغربية وواقعنا المعاصر.

هوامش

١- جيمس دكي: الحديقة الأندلسية، منشور في: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلمى الجيوسي ٢/ ١٤٣٥.

٢- وول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ٢٤١.

٣- جيمس دكي: غرناطة.. مثال من المدينة العربية في الأندلس، منشور في: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلمى الجيوسي ١/ ١٧٦.

٤- جريدة الشرق الأوسط ٢٠٠٢/١٠/٢٧.

٥- المقريزي: الخطط والآثار ١/ ٨٧٢، ويحيى وزيري: العمارة الإسلامية والبيئة ص٢١٤ وما بعدها.

٦- يحيى وزيري: العمارة الإسلامية والبيئة ص٢٢٣.

٧- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١/ ٧٥.

عيون المغرب

المصدر: المغرب والحرف التقليدية الإسلامية في العمارة (أندرية باكار)

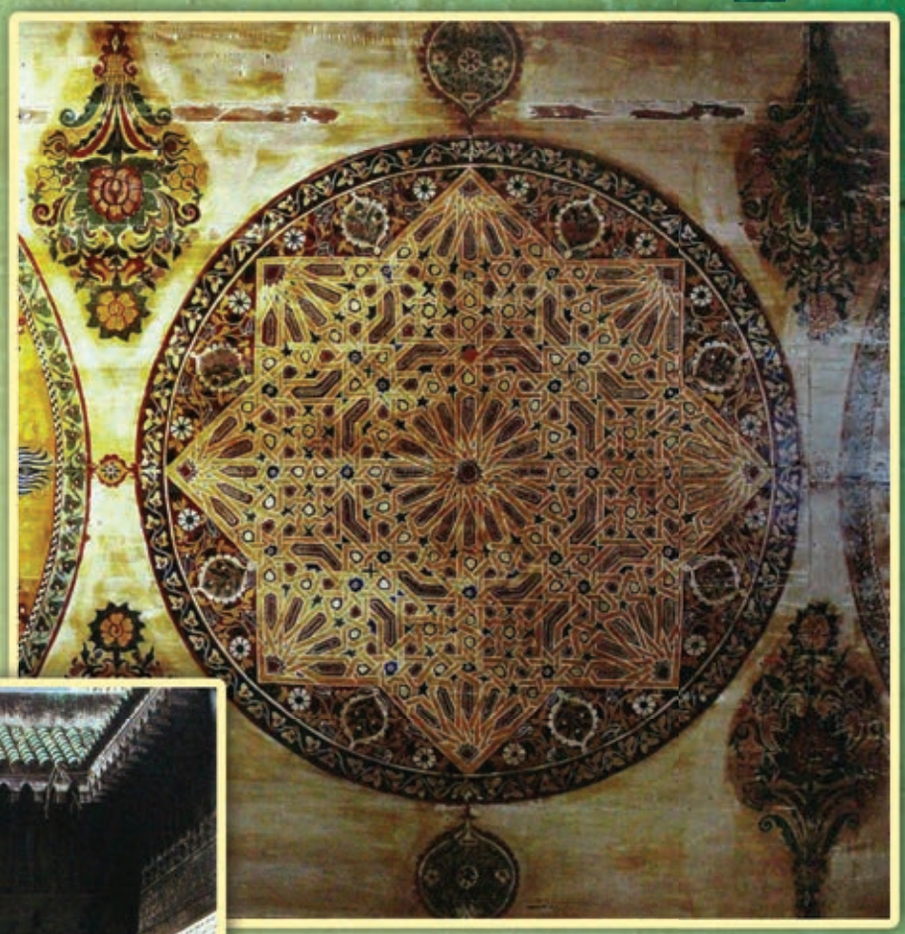

فاس القصر الملكي - القبة المعتمدية

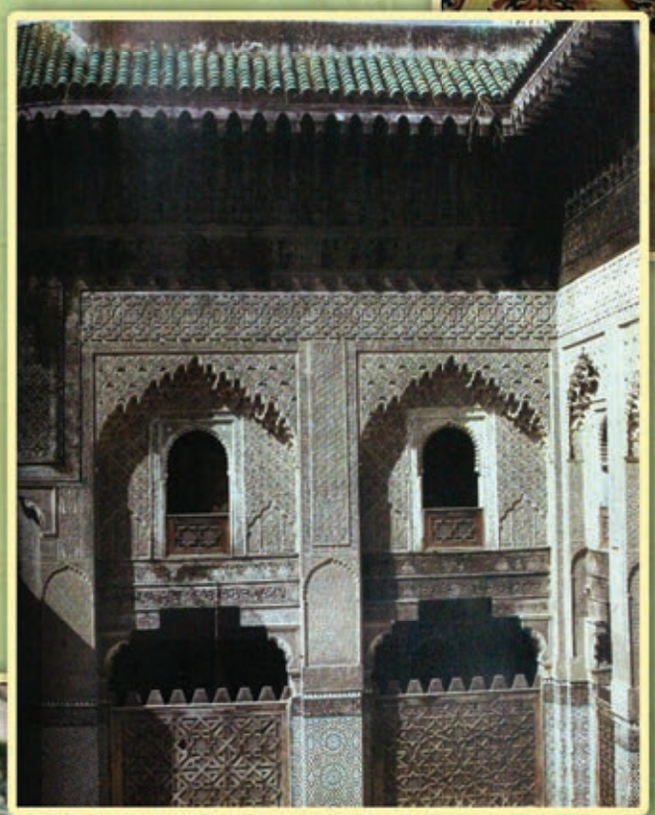

وحدات زخرفية
غير تقليدية

عيون الأندلس

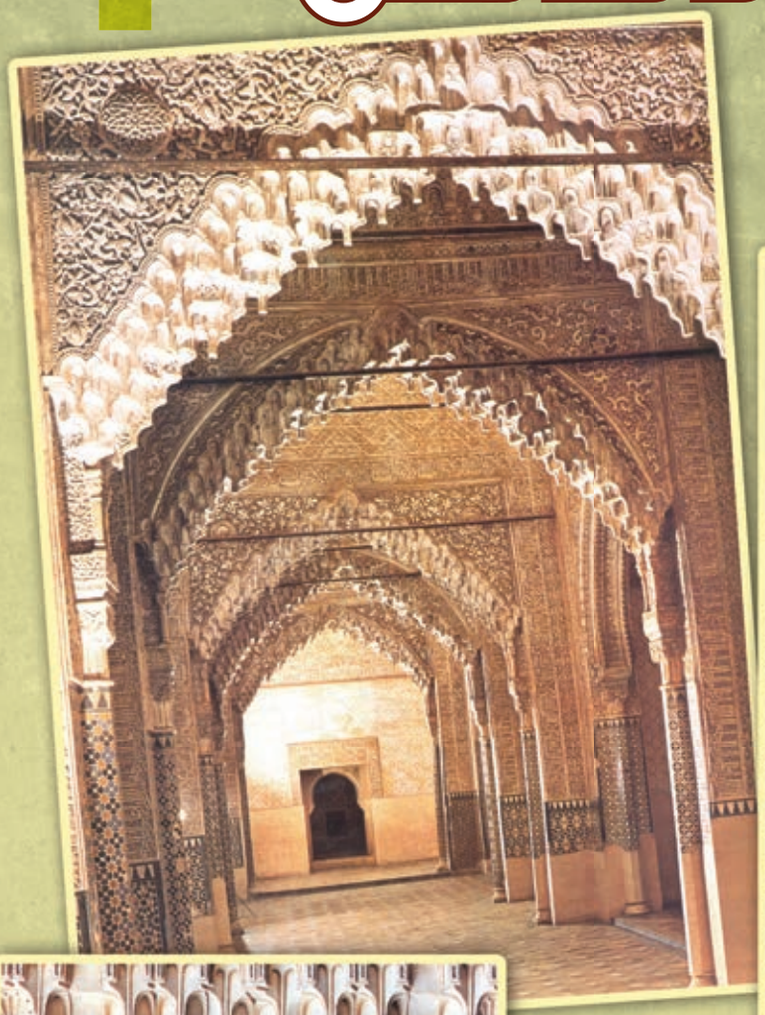

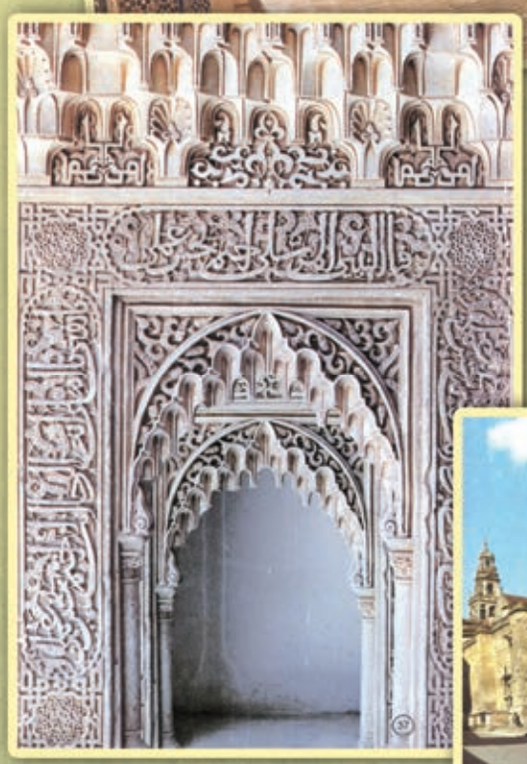

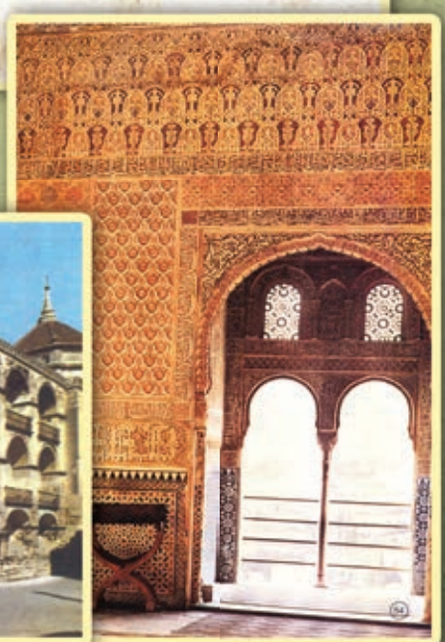

حسن فتحي.. وسكن البسطاء

التحرير

ولد حسن فتحي في الإسكندرية، وتخرج في المهندس خانة (كلية الهندسة حاليا) بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حاليا). وقد اشتهر بطرازه المعماري الفريد، الذي استمد مصادره من العمارة الريفية النوبية المبنية بالطوب اللبن ومن البيوت والقصور في القاهرة القديمة في العصرين المملوكي والعثماني. وتعد القرنة، التي بناها لتقطنها ٣٢٠٠ أسرة، جزءا من تاريخ البناء الشعبي الذي أسسه بما يعرف بـ«عمارة الفقراء».

ولد المعماري حسن فتحي في ٢٣ مارس عام ١٩٠٠، في محافظة الإسكندرية، في مصر، لأسرة مصرية ثرية.

تأثر فتحي بالريف وبحالة الفلاحين أثناء زيارته له وهو في سن الثامنة عشرة، وحصل على دبلوم العمارة من المهندس خانة (كلية الهندسة حاليا) بجامعة الملك فؤاد الأول (جامعة

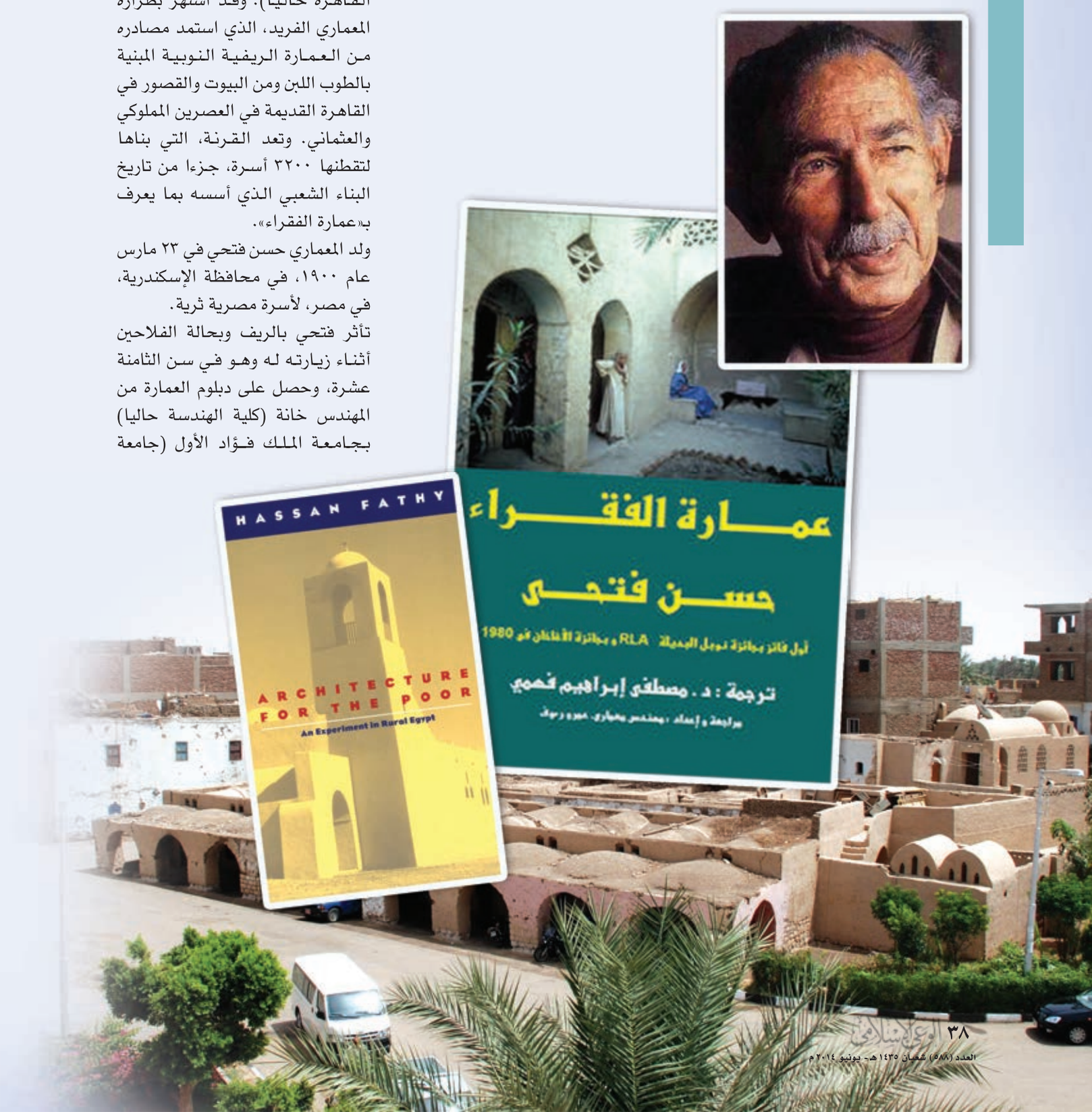

القاهرة حاليا) في عام ١٩٢٦.
كانت لقرية القرنة بغرب مدينة الأقصر في مصر شهرة عالمية بسبب كتاب «عمارة الفقراء»، الذي يسرد فيه قصة بنائها، حيث أنشئت القرية لاستيعاب المهجرين من مناطق المقابر الفرعونية بالبر الغربي؛ لإنقاذها من السرقات والتعديات عليها، خصوصا بعد أن اكتشف الأثريون سرقة نقش صخري بالكامل من أحد القبور الملكية، فصدر قرار بتهجيرهم من المقابر، وإقامة مساكن بديلة لهم، وقد خصصت الدولة ميزانية قدرها مليون جنيه لبناء القرية الجديدة، وتم اختيار الموقع ليكون بعيدا عن المناطق الأثرية وقريبا من السكك الحديدية والأراضي الزراعية.
وبدأ فتحي المرحلة الأولى من مشروع بناء القرية ببناء ٧٠ منزلا، بحيث يكون لكل منزل صفة مميزة عن الآخر؛ حتى لا يختلط الأمر على السكان، واعتمد في تصميم المنازل على الخامات والمواد المحلية. وظهر تأثره بالعمارة الإسلامية، حيث كان للقباب تصميمها الفريد والتي استخدمت بدلا من الأسقف التي تعتمد على الألواح الخشبية أو الأسياخ الحديدية المعتادة، وتم تخصيص باب إضافي في المنازل للماشية، التي يربيها سكان المنطقة، كنوع من أنواع العزل الصحي، حفاظا على سلامة الأفراد.
شيدت ثلاث مدارس في القرية؛ الأولى للأولاد، والثانية للبنات، أما الثالثة فكانت مدرسة لتعليم الحرف اليدوية التي اشتهرت بها منطقة القرنة، مثل: الغزل والنسيج وصناعة منتجات النخيل، كما حاول من خلال هذه المدرسة الحفاظ على روح الإبداع الفرعونية في الأجيال الجديدة.
ومثلما اهتم فتحي بالجانب التعليمي لم يغفل الجانب الديني الذي يميز أهل القرية، أو الجانب الترفيهي لتعويضهم عن منازلهم التي تم تهجيرهم منها عنوة، حيث عمل فتحي على إنشاء مسجد كبير في مدخل القرية حمل أجمل الطرز المعمارية في تصميمه، حيث تأثر فيه بالفن المعماري الطولوني ممتزجا مع الفن الفاطمي.

«عمارة الفقراء» هو كتاب للمعماري المصري حسن فتحي، يتناول رؤيته الخاصة حول العمارة البيئية وتجربته في مصر، وبالأخص قرية القرنة. والكتاب بالإنجليزية، وترجمه فيما بعد إلى العربية د. مصطفى إبراهيم فهمي.
وقد صدرت طبعته الأولى تحت عنوان «القرنة: قصة قريتين» في طبعة محدودة من إصدارات وزارة الثقافة المصرية عام ١٩٦٩ بالقاهرة، ونشر الكتاب بعد ذلك في الولايات المتحدة عام ١٩٧٣ بواسطة جامعة شيكاغو، ثم نشر في مصر عام ١٩٨٩ بواسطة الجامعة الأمريكية بالقاهرة.
وصدرت ترجمته العربية عام ١٩٩٣ حين قام د. مصطفى إبراهيم فهمي بترجمته بمبادرة شخصية. وقد صدر عن كتاب أخبار اليوم، وأعيد طبعه في سلسلة مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٠.
وقد كتب تمهيد الكتاب وليام ر. بولك، رئيس معهد أدلاي ستيفنسون للشؤون الدولية، حيث يقع في أربعة فصول:
- لحن الاستهلال: الحلم والواقع.
- لحن الترنيمة (كورال): الإنسان والمجتمع والتكنولوجيا.
- لحن الترديد (فوجة): المهندس المعماري، والفلاح، والبيروقراطي.
- لحن الختام: القرنة في سبات.
مع ٦ ملحقات تحتوي على بعض الدراسات والإحصائيات حول طرق البناء بالطوب اللبن وتكلفتها الاقتصادية.
ويتناول الكتاب رؤية حسن فتحي للرجوع إلى وسائل البناء التقليدية المستمدة من البيئة المحلية كوسيلة لتنمية الريف المصري (ريف ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين) واستخدام الطوب اللبن بشكل عام لبناء منازل أكثر راحة ونظافة بتكلفة أقل.
ويعرض فتحي تجربته الخاصة ومحاولة استلهام الأساليب التقليدية في البناء، وبخاصة المنازل النوبية في الجنوب، ومحاولة تطوير تقنيات البناء بالطوب اللبن لبناء منازل نظيفة وراقية، وفي الوقت نفسه بسيطة، بحيث يظل بمقدور الفلاح بناء بيته بنفسه من دون الحاجة إلى تقنيات معقدة ومكلفة.
كما يعرض أيضا تجربته في بناء البيوت الطينية في أكثر من مكان بمصر (بيت حامد سعيد في المرج، عزبة البصري، قرية القرنة.. وغيرها). وأيضا يتناول الكتاب أفكار حسن فتحي لتنمية الريف تنمية شاملة، ومحاولة الارتقاء بالخدمات الصحية والاجتماعية في الريف، وتحسين الصناعة الريفية.
ويكشف الكتاب رؤية حسن فتحي للعلاقة بين المالك والمعماري، والبعد عن فكرة البيوت الضيقة المصممة مسبقا من دون اعتبار لذوق المالك وحاجته، والابتعاد عن بناء مساكن أسمنتية «بشعة» -على حد وصفه- تحد من حرية ساكنها وتقيده.

فلسفة القباب

يقول حسن فتحي عن فلسفته في بناء القباب: «حينما انتقل العرب إلى مرحلة الاستقرار، بادروا إلى إسقاط فلسفتهم في استعارات معمارية تعكس رؤيتهم للكون، وهكذا ظهرت السماء كقبة تدعمها أربعة أعمدة. هذا المفهوم الذي يعطي قيمة رمزية للبيت كتصغير للكون».
وأثبت حسن فتحي من خلال تصميماته، أن الطوب الأخضر يتحمل الضغوط الواقعة عليه، وبذلك أخضع التكنولوجيا لاقتصادات الأهالي الفقراء، بحيث تسمح بإنشاء هذه الأسقف المقببة من دون صلبات أو عبوات خشبية.
كان مهندس الفقراء لا يبحث عن عملاء أغنياء ليصمم لهم قصورا ومباني فخمة، بل كان يبحث عن هذا الفقير الذي قال عنه: «العميل الذي يعنيني هو من تمثله الإحصائيات التي تشير إلى أن هناك ٨٠٠ مليون من البشر في العالم الثالث يموتون موتا مبكرا بسبب الإسكان الشائه غير الصحي.. هذا هو العميل الذي على المعماري الاهتمام به، ولكنه لا يفعل. إن الأمر يشبه الطبيب الحافي القدمين في الصين.. إن هؤلاء يحتاجون إلى معماري حافي القدمين».

عيون القاهرة

حي الأزبكية ١٨٥٦

ميدان محمد علي بالقلعة ١٨٦٩

سراي شريف باشا ١٨٧٠

المصدر: ذاكرة القاهرة الفونوغرافية - مكتبة الإسكندرية

عيون الكويت

مبنى دار الاعتماد البريطانية القديمة (بيت ديكسن) والذي كان يطل على ساحل البحر قبل ردم المساحة المقابلة له، وهو لايزال قائما حتى الآن. (الصورة عام ١٩١٥م)

سوق البدر بعد تجديده

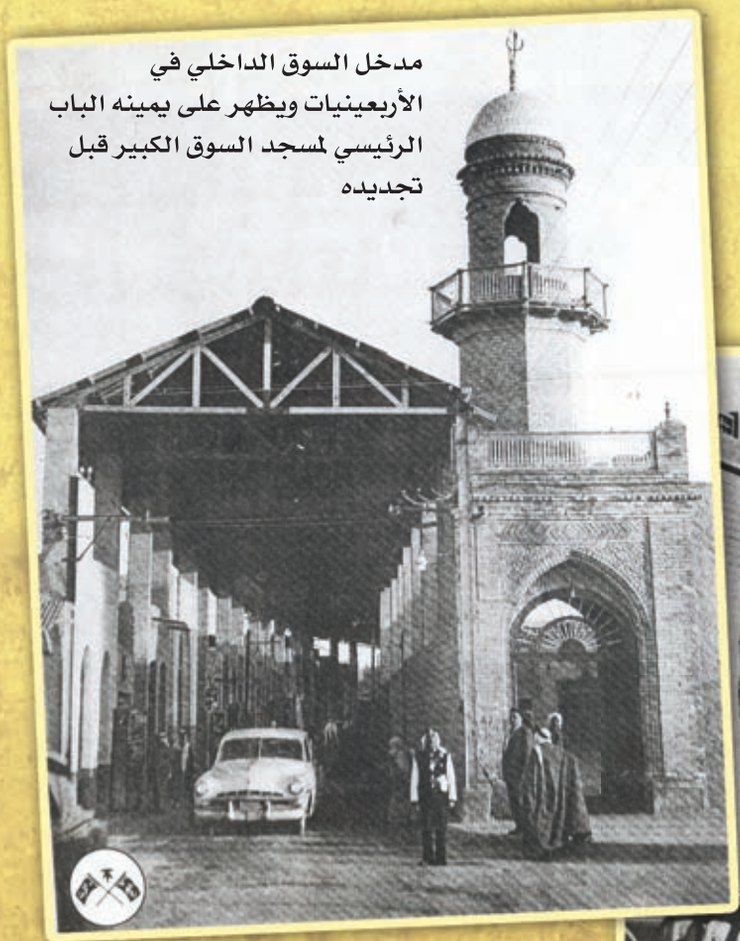

مدخل السوق الداخلي في الأربعينيات ويظهر على يمينه الباب الرئيسي لمسجد السوق الكبير قبل تجديده

دائرة الأمن العام بالصفاة بعد نقلها إلى قصر نايف في الخمسينيات

المصدر: الكويت صور وذكريات مني الجابر العبدالله الجابر الصباح

بيت السناري .. تفرد معماري

التحرير

يمثل بيت السناري أحد أروع أمثلة العمائر السكنية من دور وقصور الأمراء ورجال الدولة الكبار في العصر العثماني. وقد أوقف صاحب البيت ومنشئه هذا البيت بموجب حجة شرعية مسجلة في المحكمة الشرعية ومحفوظة إلى الآن في أرشيف وزارة الأوقاف المصرية. وهذه الحجة كنز معلوماتي يفيد في علوم شتى، منها علوم التاريخ، والآثار، والوثائق، واللغة والفقه، وفقه البنيان، والشريعة.

وقد خصت مكتبة الإسكندرية بيت السناري، لأهميته المعمارية، بإصدار خاص من تأليف الدكتور أحمد أمين في نحو ٢٢٠ صفحة من القطع الكبير، تمت طباعته وتوزيعه العام الماضي.

يقول د. أمين: من المدهش الوصف المعماري الدقيق للمنزل، والذي أوردته الوثيقة المسجلة تلك، والذي يكاد يتطابق مع الوضع الحالي للمنزل.

وقد اتسم البيت، فضلا عن قيمته المعمارية والفنية الكبيرة، بأهمية تاريخية خاصة، حيث ارتبط تاريخ بيت السناري بالحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١م)، حيث أقام فيه عدد من أعضاء لجنة العلوم والفنون ضمن الحملة، وكان غالبيتهم من الرسامين والمهندسين.

ويضيف د. أمين: إن تاريخ بيت السناري وعمارته يأسران كل من يتابعهما، فيتلهف لمعرفة المزيد عنهما. وخير وسيلة لاكتشاف هذا الأثر الرائع هي زيارته والتعرف على تفاصيل تاريخه وعمارته، وهذا هو ما يهدف إليه هذا الكتاب. وأدعوكم لزيارة بيت السناري، وغيره من الآثار الجميلة التي تزخر بها مصر. ففي

الفناء الخلفي للبيت

المشربة أعلى المدخل الرئيسي.. تفصيل للحشوات الخشبية الزخرفية

الواقع، الرؤية بالعين لها وقع آخر في النفس.

إبراهيم كتخدا السناري هو مالك البيت وصاحبه والواقف له بموجب حجة شرعية مسجلة في محكمة، ومحفوظة في أرشيف وزارة الأوقاف، ومؤرخة في ١٨ رمضان سنة ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٥م.

ترجمة صاحب البيت

ويوضح الباحث كيف أن ترجمة صاحب البيت الأمير إبراهيم كتخدا السناري، تعكس لنا السياق التاريخي لمصر في نهاية العصر العثماني، وقبيل الحملة الفرنسية على مصر، وبها الكثير من التفاصيل الشيقة. فتذكر الوثيقة الشرعية أن صاحب البيت هو «فخر الأمثال وكمال الأعيان العظام عين أعيان ذي القدر أولي الشأن الفخام الجناب المكرم والمخدوم المفخم الأمير إبراهيم كتخدا المعروف نسبه الكريم بالسناري كتخدا افتخار الأمراء العظام كبير الكبراء أولي الشأن الفخام صاحب العز والقدر والمجد والاحترام المقر الكريم العالي حايز أنواع كمالات المفاخر والمعالي أمير اللوى الشريف السلطاني والعلم

المسقط العام للبيت

يمثل المسقط العام للمنزل شكلا غير منتظم الأوضاع من الخارج وتبلغ مساحة البيت الإجمالية ١١٥٠م٢ تشمل حوالي ٨١٠م٢ وهي مساحة عمارة البيت الأصلية الموصوفة بوثيقة الوقف، إضافة إلى مساحة الحديقة المضافة (متمثلة في قطعتي أرض أضيفتا من دون عمارة) وهي نحو ٣٤٥م٢. تبلغ مساحة المباني (غير مساحة الحديقة والمباني المستحدثة بها) حوالي ٦٤٣م٢. ويتكون البيت من دور أرضي ودورين علويين. ويمكن تقسيم البيت إلى أقسام خمسة رئيسية هي: قسم المدخل وعناصر الحركة والاتصال، وقسم أماكن الخدمة، وقسم أماكن الاستقبال، وقسم أماكن الأسرة والحياة الخاصة (الحريم)، وقسم الحديقة.

وللمنزل واجهة واحدة تمثل واجهة الجزء الشمالي الغربي من البيت، وهي تطل باتجاه الشمال وتمثل نهاية حارة منج غير النافذة من جهة الشرق، وبالجزء الغربي من هذه الواجهة المدخل الرئيسي للبيت، وتنكسر الواجهة عند نهايتها الشرقية شمالا بعرض الحارة (حوالي ٤م) ببنية ومظهر إنشائيين مختلفين عن الواجهة الرئيسية سالفة الذكر، وفتح في هذا الجزء من الواجهة مدخل ثان مستحدث ومرتفع عن مستوى المدخل الأصلي.

البيت يحتوي على ثلاثة أفنية واضحة المعالم (وكما هو واضح وثابت برسوم الحملة الفرنسية للمنزل)، فضلا عن الحديقة التي تشغل نحو ربع مساحة البيت. الفناء الأول يمثل فناء الاستقبال الرئيسي وهو سماوي مستطيل الشكل نسبيا كبير المساحة أبعاده ٨,٤٠م X ١٠م. بينما الثاني يرتبط بقسم الحريم والمعيشة أكثر ومسقطه قريب من المربع أبعاده ٨,٣٠م X ٧,٣٠م. والفناء الثالث داخلي صغير مرتبط بأماكن الخدمة أبعاده ٢,٩م X ٤,٤م.

المنيف الخاقاني مولانا الأمير مراد بك محمد أمير الحاج الشريف المصري سابقا دامت عزته وأبدت سيادته وأعز جناب الواقف المشار إليه أعلاه آمين».

ويستطرد د. أمين فيقول إن هذه الألقاب الكثيرة الفخمة تعكس فترة النفوذ والسلطة للأمير إبراهيم كتخدا السناري. أما عن بداية ظهوره في مصر فكانت في مدينة المنصورة كبواب، وفقا لرواية الجبرتي. فيقول: إن إبراهيم السناري أصله من برابرة دنقلة من السودان، وقد أتى إلى مصر واستقر في مدينة المنصورة وعمل بها كبواب. وتعلم القراءة والكتابة، ودرس كتب التنجيم والسحر، فذاع صيته كعراف يكتب التمائم والتعاويذ، وأظهر ذكاء ونجابة، فاستطاع أن يلفت نظر أمراء المماليك تجاهه، فدخل في خدمة مصطفى بك الكبير، وصار في وقت قصير من أقرب المقربين إليه، فأخذ يدير شؤونه ويحرر مكاتباته بعد أن تعلم اللغة التركية، وأخذ يتنقل بين خدمة أمراء المماليك بما يخدم مصالحه حتى تمكن من أن يستميل إليه الأمير مراد بك الكبير، فبعد أن أمر الأخير بقتله عفا عنه وقربه منه وصار من أقرب المقربين إليه ولازمه في أسفاره وترحاله.

وأصبح إبراهيم السناري كتخدا للأمير مراد بك الكبير، ثم نائبا له، وصار واحدا من أعظم الأعيان، يمتلك التزاما وإيرادا ومماليك وسراري وخدما. وأصبح عظيم الشأن له كلمة في القضايا والمهمات العظيمة والأمور الجسيمة، وصار له حاشية وخشداشية ومبعوثون وأتباع كوسطاء بين الشعب وبينه.

شراء البيت

ويؤكد د. أمين أنه في أثناء هذه المرحلة من حياة السناري اشترى هذا البيت وأوقفه -كما سيأتي ذكره- كما تدل على ذلك ألقابه الفخمة المذكورة في وثيقة الوقف خاصته سالفة الذكر.

وكانت خاتمة حياة الأمير إبراهيم السناري مأساوية شأن معظم أمراء المماليك في تلك الفترة. فيذكر الجبرتي أن حسين باشا القبطان استدعى الأمير إبراهيم السناري مع مجموعة من الأمراء المصريين، وقتله حسين باشا ضمن من قتل من الأمراء في ١٧ جمادى الآخرة سنة ١٢١٦هـ/ ٢٥ أكتوبر ١٨٠١م ودفن بالإسكندرية.

وفي الحقيقة تعكس تفاصيل الأحداث التاريخية لهذه الفترة فساد نظام الإدارة وأعمال النهب والسرقة لموارد البلاد وأرزاق العباد.

الفناء الرئيسي.. الواجهة الجنوبية الشرقية

ويضيف د. أمين: ارتبط تاريخ منزل إبراهيم كتخدا السناري بالحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١م)، حيث أقام فيه عدد من أعضاء لجنة العلوم والفنون ضمن الحملة الفرنسية ومنهم: ريجو، وهو رسام، وسافيجني وردوتيه، وهما من علماء الطبيعة، وإدوارد دي فيير تيراج وبروسبير جولواز وفيفر، وهم مهندسون، وأيضا فنانون كانوا يستخدمونه مرسما لهم مثل: مونج دبر توليه وكارفيللي.. الخ. وجاء في دراسة لجورج لوجران أن هذا البيت كان يقيم فيه الرسامان ريجودر وبونيه، والعالم الطبيعي سافيجني والمهندسون فيير دي تيراج وجولوا وفيفر.

توثيق بالرسم

ولعل إقامة هذا العدد من

الرسامين والمهندسين من الحملة الفرنسية، تفسر اهتمامهم بالبيت -كما يقول الباحث- ضمن مجموعة بديعة من البيوت القاهرية التي نالت عناية الحملة وتوثيقها بالتصوير والرسم، ونشروا صورها ضمن كتاب موسوعة وصف مصر. ومن هذه البيوت كذلك بيت عثمان بك، وبيت سليمان أغا، وقصر قاسم بك، وقصر الألفي بك (مقر القيادة العامة للجيش الفرنسي)، وبيت حسن كاشف (مقر المعهد العلمي للحملة الفرنسية). وقد استأثر الأخير، أي بيت حسن كاشف، بالإضافة إلى البيت موضوع الكتاب، أي بيت السناري، برسوم مساقط أفقية ورأسية تفصيلية، فضلا عن العديد من الصور.

ونجد في المساقط الأفقية للبيت، والتي صممها جولوا وفيفر أن البيت وعمارته يمثلان القطعتين ١ و٢، ويظهر من مسقط الدور الأرضي أن البيت على القطعتين كله كيان معماري واحد له مدخل وحيد هو المنصوص عليه، والموصوف بحجة الوقف الشرعية بعطفة موسى جاويش (حارة منج)، ويوضح تفاصيل التعديلات والإضافات والتغييرات التي تمت على عمارة البيت، وإن كانت في مجموعها لا تغير من تخطيط البيت وطابعه المعماري الأثري، وتتركز بصفة أساسية في الدور الأرضي في الجزء المعروف بالحديقة، وفي الدور الثاني (الأخير) في بعض الفراغات.

حجة الوقف

حجة الوقف تظهر في الوثيقة رقم ٩٣٥، وهي محفوظة بأرشيف وزارة الأوقاف المصرية، ومؤرخة بـ١٨ رمضان ١٢٠٩هـ/٨ إبريل ١٧٩٥م، وهي على شكل كتاب المتصرف فيه إبراهيم كتخدا السناري، ونوعية التصرف: وقف، نوع الوقف: منزل وقطعة الأرض المبني عليها. الوثيقة تقع في ٤٩ صفحة، كل صفحة من الورق مكتوب عليها بالحبر الشيني الأسود داخل إطار مستطيل بالحبر الشيني الأحمر من ثلاثة خطوط متجاورة. كل صفحة بها ١١ سطرا وكل سطر به متوسط ٩ كلمات، مكتوبة بخط مقروء بدرجة واضحة .

وفي نهاية الصفحة اليمنى توجد الكلمات الرابطة التي تبدأ بها الصفحة التالية.

يوجد ختم دائري مكتوب بداخله على ثلاثة أسطر «أولاد -بنده- محمد أحمد».

يمكن تأريخ بيت السناري في الفترة ما بين سنوات ١١٩٨-١٢٠٨هـ/ ١٧٨٤-١٧٩٤م، طبقا لما جاء بالوثيقة. أما تاريخ ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٥م المثبت بفهرس الآثار الإسلامية كتاريخ للبيت فهو يمثل تاريخ حجة الوقف الشرعية الخاصة بالبيت.

أماكن الإستقبال (قاعة الحريم) من داخل سدلة الإيوان الجنوبي الغربي ومشربيته المطلة على الفناء.

في «تاريخ المدن» للشيخ المهدي البوعبدلي:

ماذا فعل الاحتلال الفرنسي بالعمارة الجزائرية؟

التحرير

الاحتلال هدم ١٢٩ بناية دينية في ٣٢ سنة وحول ٢٦ أخرى إلى كنائس ومخازن

يتناول كتاب «تاريخ المدن» للشيخ المهدي البوعبدلي دراسة تصميم عاصمة الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي ثم بعده، ثم يوضح بجلاء ماذا فعل بها الاحتلال، وكيف طمس متعمدا معالم العمارة فيها. ويوضح الكتاب أن من الوثائق المهمة الموجودة في دراسات المؤرخين والرحالين التي تدلل على ذلك ما كتبه المؤرخ الإسباني «هايدو» حيث ذكر في تصميمه الذي نشر سنة ١٦١٢م بعنوان Topographie d'Alger أن عاصمة الجزائر يبلغ عدد مساجدها بين كبير وصغير: مائة، لكل منها وكيل وإمام للصلوات، وأحباس خاصة، من بينها سبعة مساجد كبيرة، وفي سنة ١٨٣٠م كان بالجزائر ثلاثة عشر مسجدا جامعا و(١٠٩) مساجد صغيرة، و(٣٢)

نخبة المثقفين يعتبرون طمس العمارة جريمة من جرائم القرن ضد الإنسانية

ضريحا ومعهدا، و(١٢) زاوية.

وبعد الاحتلال وتطبيق سياسة التخريب بدعوى توسيع الشوارع، وتجميل المدينة، ومختلف الادعاءات لتبرير طمس المعالم، كاد إجماع مختلف طبقات الكتاب، فرنسيين وأجانب، مدنيين وبعض العسكريين، أن يتفق على وصم هذه التصرفات بجرائم القرن ضد المدنية والإنسانية، ورأوا أن الداعي لارتكاب هذه الجرائم هو الجهل والحقد العنصري، والتعصب الديني، حيث لم يبق في سنة ١٨٦٢م من البنايات التي أحصاها Devoulx إلا (٩) مساجد كبيرة، و(١٩) مسجدا صغيرا، و(١٥) معهدا وضريحا، وخمس زوايا.

فقد هدم في مدة (٣٢) سنة (١٢٩) بناية دينية، ثم إن هذه البقية لم تبق كلها تحت تصرف المسلمين، بل بقي منها للمسلمين (٢١) بناية: (١٤) مسجدا كبيرا، و(٨) مساجد صغيرة، و(٩) أضرحة أو معاهد، أما (٢٦) فقد حولت إلى كنائس، أو مخازن ودكاكين.

وذكر الكتاب أن الجزائريين تفوقوا على معاصريهم الغربيين في فن البناء، كما تعرضوا لوصف المأكولات، وموائد الطبقات العليا، والمتوسطة، والفقيرة، وكانوا يهتمون بالفقراء والمساكين

قائد الحملة الفرنسية اعترف بخراب تسعمائة دار

وعابري السبيل، ومآوي العاجزين من رجال العلم، كل ذلك نجده في بعض عقود الأحباس على المشاريع الخيرية المخصصة لإطعام وإيواء هذه الطبقات، وتوزيع الصدقات عليهم.

نقض المعاهدات

إن المعاهدة التي حررها الماريشال دو بورمون قائد الحملة الفرنسية، ووقع قبولها من حسين داي، كانت تشتمل على ستة بنود، أهمها اثنان:

البند الذي يشمل احترام الداي وأسرته، والتعهد له بحماية السلطات لشخصه وماله وأفراد أسرته، والبند الذي ينص على احترام الدين الإسلامي والمحافظة على حريته، كما تحترم حرية جميع طبقات السكان وديانتهم وأموالهم، وقد تعهد دو بورمون بشرفه لهذا الالتزام.

لم يمر على احتلال البلاد إلا أسابيع قليلة حتى نقضت هذه المعاهدة، فأول شيء قام به الجيش الفرنسي هو إسكان الجيش المحتل المرابط بالعاصمة، وكان عدده يربو على الخمسة عشر ألف جندي؛ أسكن هذا الجيش بمعظم الدور والمحلات التجارية، بل حتى المساجد والقصور.

تأميم المساجد

يوكد المؤلف أن عدد المساجد التي أممت لهذه الغاية بلغت أربعين مسجدا، وعدة معاهد، معظمها بحومتي «باب الوادي» و«باب عزون»، لم يكتف الجيش المحتل بتسخير هذه المساجد والمساكن، بل شرع في تهديم البقية، تحت ستار إصلاح البلدة، وتوسيع شوارعها، فكانت النتيجة الأولى من هذه التصرفات أنه لم يمر عام واحد على الاحتلال حتى خربت جل المساكن، إذ نرى أن الجنرال اعترف في تقرير رسمي بعثه إلى السلطات العليا بباريس، بخراب تسعمائة دار في هذه الفترة.

تقرير الحاكم المدني

ومن جهة أخرى ذكر الحاكم المدني في بعض تقاريره ما يلي: «إنني لم أجد إلا مسكنين عربيين نجيا من التخريب،

الجهل والحقد العنصري والتعصب الديني وراء هدم العمران

إنهما كانا مسكنين لضابطين من درجة جنرال، فلو سكنهما الجند لما بقي منهما شيء، ولحق الخراب فيها حتى خشب السقوف، وكذلك أشجار الحدائق، كالزيتون والبرتقال والتين، فإن معظمها تلهبه نيران المطابخ، إنه لمنظر محزن هذا الذي نشاهده، وإن هذه الدور التي نشاهد آثارها الدالة على أنها كانت جميلة جدا كثيرة، فإنني حسبت في مسافة تتراوح بين أربع وخمسمائة خطوة، نحو العشرين دارا خربت، إن مساكن «بير مندرايس»، و«بير خادم» وغيرها من مساكن الفن كلها لحقها الخراب، اللهم إلا دارين أو ثلاثة، لم يبق منها إلا بعض السبائك من النحاس والحديد يحملها الجندي عندما يذهب إلى المدينة فيبيعها للتجار اليهود، الذين يبيعونها بدورهم إلى تجار الآثار، وهم يصدرونها إلى مرسيليا أو ليفورون Livourne.

مسجدان باقيان

ويذكر الكتاب أن معظم المساجد التي هدمت بدعوى تخطيط البلدة وتوسيع شوارعها الضيقة، ما بين ساحة الشهداء الحالية، وثانوية الأمير عبدالقادر - أي: سفح ضريح الشيخ عبدالرحمن الثعالبي-.

وإذا بقي الآن المسجدان الحاليان المالكي والحنفي، فذلك يرجع إلى معجزة، إذ بذل المخربون جهودا جبارة لإلحاقهما ببقية المساجد المهدومة.

رؤية المستشرقين للعمران الإسلامي

م. يحيى حسن وزيري
أستاذ أكاديمي ومعماري مصري

إن المتتبع لتطور جهود المستشرقين وعلماء الآثار الأوروبيين منذ نهاية القرن التاسع عشر سيلاحظ حتما أن هؤلاء العلماء قد قصروا عملهم في أول الأمر على وصف الآثار الإسلامية وتحقيق تاريخها ونشر صور موضحة لها ورسومات عنها، ثم بدأت بعد هنيهة حملة البحث والاستقصاء عن المصادر الفنية لتلك الآثار وأصولها، وكانت هذه الحملة أهم ما شُغل به المستشرقون منذ قرابة القرن ونيف (١).

وقد أوضح الدكتور أحمد الصاوي في دراسته عن «التحيزات الاستشراقية ضد العمارة الإسلامية» (٢)، أن «ماكس فان برشم» Max van Bercham كان في طليعة المستشرقين الذين سلكوا هذا الاتجاه في البحث والدراسة، وذلك عندما نشر مقالين في عام ١٨٩١م بعنوان «مذكرات في الآثار العربية»، وتبعه «جاييه» Gayet Alpefl بكتابه «الفن العربي» في عام ١٨٩٣م، وصرف العلماء منذ ذلك الحين جهودا مضنية في دراسة وتقصي المصادر، وجرتهم هذه البحوث إلى دراسات مقارنة لعناصر العمارة والزخارف في الفنون السابقة على الإسلام، وخاصة الفنون الساسانية والهلينية والهندية والرومانية والبيزنطية والقبطية، ورغم الاعتراف بأن لمثل هذه الدراسات المقارنة أهميتها البالغة في فهم الفن الإسلامي، فإن معظم هذه البحوث الاستشراقية اتخذت لنفسها هدفا مسبقا وغرضا مبيتا، ألا وهو إنكار أي فضل للعرب في إقامة عمائرهم وتشكيل فنونهم، وكان ذلك كفيلا بإخراجها عن جادة الصواب وإفقادها صفة العلمية والحيادية.

ويرى د. محمد الباجي بن مامي (٣)، أن دراسات المستشرقين تحتوي على العديد من الأخطاء الفادحة، وهي نابعة عن عدة أسباب: أولها الأخطاء الناتجة عن غير قصد، وتتمثل فيما يلي:

١- جهل المستشرقين باللغة العربية.

٢- عدم إدراك أصول الشريعة الإسلامية.

٣- جهلهم لكنوز الحضارة العربية وتراثها.

في حين ينبع النمط الثاني من الأخطاء عن تحيز الكثير من المستشرقين الذين حاولوا إظهار العجز التام للعنصر العربي في الإبداع، بينما أكدوا على مساهمة الحضارات القديمة في إثراء الحضارة العربية،

ليصلوا إلى الاستنتاج التالي: ارتباط الوطن العربي بالرومان والبيزنطيين والفرس وغيرهم.

وهكذا رأى الكثير من المستشرقين أنه لدراسة الفن والعمارة العربيين، لابد من تحليل العناصر والتعرف على ما هو متأثر بالبلاد الأخرى، كما كان القاسم المشترك بينهم هو عرض واف لخصائص الفنون السابقة للإسلام، أي الفنون التي يتأثر بها العالم الإسلامي في طور نشأته.

ولكن على جانب آخر وجدت العديد من دراسات المستشرقين المحايدة والمنصفة في مجال العمارة والفنون والحضارة الإسلامية، ككتاب «حضارة العرب» لجوستاف لوبون (٤)، ودراسات «بريجز» وآخرين عن «تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة» (٥)، وكتاب «تراث الإسلام» لجوزيف شاخت (٦)، وغيرها من دراسات وأبحاث المستشرقين المنصفين، الذين شهدوا بأثر ودور الحضارة والعمارة الإسلامية في تاريخ التقدم الإنساني.

لقد تأرجحت دراسات المستشرقين للعمران والعمارة الإسلامية بين الإجحاف والإنصاف، وإن كانت كفة دراساتهم وأبحاثهم قد مالت إلى الإجحاف للأسباب سابقة الذكر عاليه، وفيما يلي عرض سريع لبعض من تلك الآراء والدراسات المجحفة والمنصفة.

المستشرقون والمدينة الإسلامية

يرى كثير من المستشرقين أن العرب لم يكن لهم فن مستقل أو أسلوب معماري واضح، وأنهم قد تأثروا وربما استنسخوا عمائر الطرز التي سبقتهم، عندما أقاموا مساجدهم وعمائرهم ومدنهم.

فيذكر «ج. مارسيه» أن الفن العربي هو آخر الفنون التي ظهرت للوجود من بين الفنون العظمى بالعالم القديم، ولذلك فلا بد أنه تأثر بالفنون التي سبقته (٧)، ويذكر «هنري تيراس» أن كل البلاد العربية أخذت عن سوريا، أي بطريقة غير مباشرة عن الحضارة الهلنستية ثم الرومانية، ويرى أيضا أنه عندما انتقلت الخلافة إلى بغداد لعبت العراق نفس الدور الذي لعبته بلاد الشام عندما كان يحكمها الأمويون، وهكذا تأثرت العمارة الإسلامية والفنون الزخرفية تأثرا عميقا بالفن الساساني (٨)، وهو ما يذهب إليه أيضا أبرز المستشرقين الغربيين.

والأمثلة عديدة عن محاولات المستشرقين تجريد الفنان العربي المسلم من أي خلق أو إبداع، فهاهو «كريزويل» الذي ألف أحد أهم المصنفات في تاريخ العمارة العربية الإسلامية، قد درس مبنى قبة الصخرة بالقدس، وقسم عناصرها وزخارفها إلى أجزاء، ورأى أنها تتمثل فيما يلى (٩):

٢٢ ٪ من المصادر الرومانية.

٢٢ ٪ من المصادر البيزنطية.

٥٥ ٪ من المصادر السورية المسيحية.

٠١٪ المتبقي لم يحدد المؤلف مصدره.

وهو نفسه الذي يؤكد أن عرب ما قبل الإسلام لم يكن لديهم إلا أفكار باهتة أو بدائية عن البناء والعمارة، وأن بلاد العرب كانت تمثل فراغا معماريا يكاد يكون تاما، وأن الصفة العربية يجب ألا تستخدم للتعريف بعمارة العصر الإسلامي (١٠).

ومن أمثلة تشويه الحقائق أيضا اتجاه «فان برشم» و«جوميث مورينو» وغيرهما، لإثبات اشتقاق تخطيط المسجد من الكنيسة واشتقاق عناصره الرئيسية كالمئذنة والمنبر والمحراب والمقصورة من المسيحية (١١). بل إن بعض المستشرقين أمثال «بروكلمان» و«كيتاني» و«كريزويل» أنكروا على الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه بناء مسجد بالمدينة المنورة، فقد أكد «كريسويل» أن المسلمين ظلوا دون مسجد جامع في المدينة حتى عام ٥٤ بعد الهجرة، في حين أن مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة، بصحنه المكشوف الفسيح وبيت الصلاة وجدار القبلة ثم المجنبات، كان مصدرا لتخطيط عمارة المساجد في الشرق والغرب الإسلامي (١٢).

والأمثلة كثيرة على عدم حياد أو فهم بعض المستشرقين للعمران الإسلامي، ونشير هنا أيضا إلى بحث أجراه د.محمد الكحلوت بعنوان: «قراءة تقييمية للمدينة الإسلامية وأسس تخطيطها» (١٣)، عرض فيه ملخصا لآراء بعض المستشرقين الغربيين غير المحايدة والمشوهة للمدينة الإسلامية، فقد حاولوا إثبات عدم مساهمة المسلمين في بناء المدن وعدم معرفتهم في الحياة المدنية والحضرية عموما، فهم مجرد قبائل رحل تعودوا على الانتقال وعدم الاستقرار، وأن المدن التي شيدت في العصور الإسلامية كانت مدنا حربية بالدرجة الأولى، وكانت امتدادا للمدن البيزنطية والرومانية والفارسية، وأن المدن الإسلامية لم تشهد تطورا في التكنولوجيا، ولم تقدم خدمات مدنية للسكان، ولم تعرف منهجا للتخطيط العمراني، وفيما يلي عرض لآراء بعض هؤلاء المستشرقين:

المستشرق جرونوبوم: Gustave von Grunebaum صنف المدن الإسلامية إلى مجموعة المدن التلقائية أو العفوية أو العشوائية، لأنها تمت بدون تخطيط الدولة، ونمت من تلقاء نفسها، كما ينتقد جرونوبوم المدينة الإسلامية لافتقارها إلى المسارح والملاعب، كتلك الموجودة في المدن الرومانية.

المستشرق كريزويل Creswell

اعتبر البصرة والكوفة والفسطاط مدنا متميزة بأزقة، فوضوية متيهة ومجازات صماء (متداخلة) مع خيام وأكواخ، بينها أراض ضائعة. ففي الكوفة يحتاج الزائر إلى مرشد عندما يزور الحي الآخر.

المستشرق لامينس Lammens:
اعتبر مدن الحيرة والفسطاط والقيروان غير منظمة وغير نامية، لأنها لم تخطط من قبل السلطة المركزية، وإنما من السكان وحدهم.

المستشرق لاسنر Lassner:
يقول مقارنا تخطيط بغداد بالمدن الأخرى: «إن نماذج النمو العمراني والمتميزة في المدن العسكرية كالبصرة والكوفة تمت بسرعة ودون أي إدراك حقيقي للعناصر الأساسية لتخطيط المدن».

المستشرق كوبياك kubiak:
يصف القبائل العربية التي خرجت من الجزيرة وفتحت موقع الفسطاط وسكنتها كانت ذات حضارة أدنى من حضارة أولئك الذين فتحت بلادهم «فمن المستبعد وفي هذا التاريخ المبكر بالذات، أن يكون لدى العرب الذين أوجدوا الفسطاط أي فكرة واضحة عن تخطيط المدن أو حتى الاستيعاب التصوري والعملي له، كما كان لدى الرومان... ولأن التخطيط كان غريبا على حضارة العرب، لا يمكن تصور إمكانية إنشاء مدينة عربية عسكرية على خطوط منظمة كالمدن الرومانية التقليدية أو العسكرية بشوارع مستقيمة، ذات نمط مشابه لرقعة الشطرنج، متطلبة بذلك التنظيم والطاعة من السكان».

لقد حاول المستشرقون مقارنة المدن الإسلامية بالمدن الرومانية والإغريقية القديمة التي خططت من قبل السلطات المركزية، لتكون مدن مثالية ومنظمة لاستقامة شوارعها، وقاموا بالثناء على المدن الإغريقية والرومانية بسبب تخطيطها المركزي وبتدخل مباشر من قبل السلطات الحاكمة، بينما المدن الإسلامية عشوائية بسبب تراكم قرارات السكان دون تدخلات خارجية من السلطات ستكون عشوائية لا محالة، وفي انتقاداتهم للمدينة الإسلامية أبرزوا ملامح المدن الرومانية والإغريقية من حيث التخطيط السليم والمنظم، ولكنهم لم يتطرقوا إلى مدن العصور الوسطى المظلمة.

وبالرجوع للعديد من الدراسات المحايدة التي أجريت على المدينة الإسلامية (١٤)، (١٥)، نجد أنها قد راعت في تخطيطها عوامل حسن اختيار الموقع، ومراعاة الظروف البيئية، إلى جانب مراعاة المقياس الإنساني، وتطبيق قواعد الشريعة الإسلامية السمحة، والتي ميزتها عن غيرها من مدن العصور الوسطى في أوروبا وغيرها.

إن بعضا مما قدم في دراسات وأبحاث سابقة، عن مبتكرات وجماليات تراث المدن والعمارة الإسلامية، يعتبر غيضا من فيض، وفيه الرد على مزاعم كثير من المشرقين الذين لم يكونوا محايدين، أو غابت عنهم الكثير من أصول العمارة والعمران الإسلامي.

وعلى جانب آخر فقد اعترف كثير من الباحثين والمستشرقين المنصفين بأصالة العمارة الإسلامية، وحلولها المبتكرة، وتأثيرها على فنون وعمائر الغرب (١٦)، وهو ما سوف نفصله في المحور التالي، كدليل دامغ فيه الرد الشافي أيضا على مزاعم المستشرقين غير المنصفين.

تأثير العمارة الإسلامية على مباني الغرب

نعرض في هذا المحور بعضا من أهم الدراسات التي قام بها باحثون ومستشرقون غربيون، لتوضيح تأثير الفن والعمارة الإسلامية على مباني الغرب، مع عمل ترتيب تاريخي لتلك الدراسات والأبحاث من الأقدم إلى الأحدث.

ومن اللافت للنظر أن الأوروبيين أنفسهم ومنذ زمن بعيد قد تنبهوا إلى تأثير الفنون الإسلامية في فنون الغرب، وقد بدأ نشر الدراسات والأبحاث التي أوضحت تلك التأثيرات من بداية القرن التاسع عشر، فكتب سبنسر سميث Spencer Smith في سنة ١٨٢٠م مقالا حاول فيه تفسير شريط الكتابة الكوفية في صندوق العاج الشهير بكاتدرائية «بايه» Bayeux، وجاء بعده فيلمان Willemin فدرس سنة ١٨٣٠م الصفحة الأولى من مخطوط لرؤيا يوحنا اللاهوتي، محفوظ في المكتبة الأهلية، ولاحظ أن في إطارها تقليدا عجيبا للكتابة العربية في القرن الحادي عشر (١٧).

كما كتب «لونجبرييه» Longperier سنة ١٨٤٦م مقالا بحثيا عن استخدام الحروف العربية في الزخرفة لدى المسيحيين في الغرب (١٨)، وكان هذا المقال أساس بحث قدمه سنة ١٨٧٦م إلى جمعية الآثاريين الفرنسيين الأستاذ الفرنسي لويس كوراجو Louis Courajod.

وتحدث إميل برتو Emile Bertaux سنة ١٨٩٥م عن تأثيرات فنون الشرق المسلم على جنوب إيطاليا (١٩)، ثم درس في سنة ١٩٠٦م التأثيرات الإسلامية في الفنون الإسلامية.

أما العالم الفرنسي «إميل مال» E. Male فقد كان أول من عني بموضوع التأثيرات الإسلامية حق العناية، فكتب سنة ١٩١١م بحثا عن تأثير عمارة جامع قرطبة في بعض الكنائس الفرنسية (٢٠).

ثم كتب بحثا سنة ١٩٢٣ جمع فيه أمثلة كثيرة لتأثير العمارة الإسلامية في أبنية الكنائس الفرنسية في القرنين الحادي والثاني عشر (٢١)، ولكن لم يحتو على صور ولوحات لتوضيح ما فيه من نماذج وأمثلة.

كما كتب هنرخ جلوك H. Gluck سنة ١٩٢١م عن تأثير العثمانيين في الفنون الأوروبية (٢٢)، كما أعد الأستاذ سوليه G. Soulier بحثا عن استخدام الحروف الكوفية في التصوير التوسكاني سنة ١٩٢٤م (٢٣)، ثم كتابا عن التأثيرات الشرقية في التصوير التوسكاني في نفس العام (٢٤).

وكذلك كتب نخبة من الآثاريين الإسبان المقالات والكتب عن فن المستعربين

وفن المدجنين، وعن التأثير الإسلامي فيهما، ومن أمثلة ذلك ما كتبه جوميز مورينو Gomez Moreno سنة ١٩١٩م، عن كنائس المستعربين، ومؤلفات بويجي كادافالش Puigy Cadafalch (٢٥).

وفي سنة ١٩٢٨م قدمت السيدة هنريت ديفونشير R.L. Devonshire بحثا عن بعض التأثيرات الإسلامية في الفنون الأوروبية، وكان هذا البحث أساسا لأربع محاضرات ألقتها بالفرنسية في الجمعية الجغرافية الملكية، ثم طبعتها في مجلة الأسبوع المصري La Semaine Egyptienne (٢٦)، وظهرت منها طبعة مستقلة عام ١٩٣٥م (٢٧).

وفي عام ١٩٣٥م نشر أيضا أحد الباحثين البولنديين بحثا عن تأثير الفن الإسلامي في بولندا في ٢٦ صفحة (٢٨).

كما قام ثلاثة باحثين وهم: كرستي Christie وأرنولد Arnold وبريجز Briggs بتأليف كتاب بعنوان «تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة» نشر باللغة الإنجليزية عام ١٩٣٦م، ثم ترجم للعربية عام ١٩٨٤م (٢٩)، تناولوا فيه باستفاضة التأثيرات الإسلامية على فنون أوروبا في المجالات المذكورة.

أما المستشرق الفرنسي المعروف «أوليج جرابار» Oleg Grabar فقد قام بنشر دراسة بعنوان: «الفن الإسلامي والغرب»، تناقش تأثيرات الفن الإسلامي على الغرب وأوجه التشابه بين الفن الإسلامي، وبعض فنون الغرب، وقد نشرت هذه الدراسة أول مرة عام ١٩٧٥م (٣٠). كما نشرت سلسلة عالم المعرفة ضمن كتبها دراسة مترجمة بعنوان «تراث الإسلام»(ج١) عام ١٩٨٥م (٣١)، احتوت في فصلها السادس (الفن والعمارة) على دراسة بعنوان: «أثر الفنون والزخرفة والتصوير عند المسلمين في الفنون الأوروبية» بقلم ريتشارد اتنجهاوزن.

كل تلك الدراسات والأبحاث السابقة والتي كانت نتاجا لبحث وتحليل العديد من الباحثين الغربيين، وتحديدا الأوروبيين منهم، بدءا من أوائل القرن التاسع عشر وحتى نهاية القرن العشرين، تعطي دليلا علميا موثقا عن مدى تأثر الفنون والعمارة الأوروبية بالعمارة والفنون الإسلامية، كما توضح اعتراف العديد من كبار باحثي الغرب المنصفين بهذا التأثير وأهميته، وهي شهادة لها مصداقيتها وأهميتها العلمية، والتي ترد على بعض غير المنصفين من أهل الغرب والذين لا يعترفون بتلك الحقيقة.

الهوامش

١- أحمد الصاوي، التحيزات الاستشراقية ضد العمارة الإسلامية، انظر الموقع الإليكتروني التالي: www.c.ksu.edu.sa/node/٨٥٢٧.

٢- المرجع نفسه.

٣- محمد الباجي بن مامي، ملاحظات حول دراسات المستشرقين للفنون والآثار العربية الإسلامية، انظر الموقع الإليكتروني التالي: www.attarikh-alarabi.ma/Html/htm.ADAD٢partiev

٤- انظر: جوستاف لوبون (٢٠١٢) حضارة العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

٥- انظر: كرستي وأرنولد وبريجز (١٩٣٦) تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة، دار الكتاب العربي، سورية.

٦- جوزيف شاخت (١٩٨٥) تراث الإسلام (ج١)، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

٧- G. Marçais (١٩٦٢). l'art Musulman. P.U.F..

٨- H. Terrasse، (١٩٣٢). l'art Hispano - Mauresque des origines aux XIIIe S. Paris.

٩- محمد الباجي بن مامي: مرجع سابق.

١٠- K.A.C. Grewell. Early Muslim Architectures. T.١، (١٩٣٢)، P. ٩٠.

١١- الآثار العربية والإسلامية في المغرب العربي وحرب المستشرقين، مجلة دعوة الحق، عدد (١٥٨)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، انظر الموقع الإليكتروني التالي: www.habous.net/daouat-alhaq/٤٠١٨/item

١٢- الآثار العربية والإسلامية في المغرب العربي وحرب المستشرقين (٤)، مجلة دعوة الحق، عدد (١٧١)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، انظر الموقع الإليكتروني التالي: www.habous.net/daouat-alhaq

١٣- محمد الكحلوت (٢٠١٠) قراءة تقييميه للمدينة الإسلامية وأسس تخطيطها، قسم الهندسة المعمارية، الجامعة الإسلامية، غزة، انظر الموقع الإليكتروني التالي:.www deplibrary.iugaza.edu.ps

١٤- انظر على سبيل المثال: محمد عبدالستار عثمان (١٩٨٨) المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، عدد (١٢٨) الكويت.

١٥- انظر أيضا الفصل الثالث في كتابنا التالي: يحيى وزيري (٢٠٠٤) العمارة الإسلامية سلسلة عالم المعرفة عدد (٣٠٤)، الكويت.

١٦- للمزيد من التفاصيل انظر: يحيى وزيري (٢٠١١) تأثير القيم الفنية والجمالية للعمارة الإسلامية على تصميم واجهات مباني الغرب، المؤتمر الدولي الثالث للتراث المعماري، قسم العمارة بالجامعة الإسلامية، غزة.

١٧- كرستي وأرنولد وبريجز (ترجمة: زكي محمد حسن): مرجع سابق، ص«ز».

١٨- Longperier (١٨٤٦). L'emploi des caracteresarab esdansl'ornementation chez lespeupleschretiensd'occident. Revue Archeologu shfrique. Paris.

١٩- Emile. B (١٨٩٥). Les arts de l' orientmusulmanl'Italiemeridional e. Melanges de l'Ecolefrancaise de Rome. vol. ١٥، pp٤١٩-٤٥٣..

٢٠- Male.E (١٩١١). La Mosquee de Cordoueet les eglises de l'Auvergne et du Velay. Revue d'art ancient et moderne. ، pp ٨١-٨٩..

٢١- Male.E (١٩٢٣). Les influences ArabessurL'art roman. Revue des DeuxMondes. pp٣١١-٣٤٣..

٢٢- كرستي وأرنولد وبريجز: مرجع سابق، ص «ط».

٢٣- Soulier.G (١٩٢٤). Les characters coufiquedans la peinturetoscane. Gazette des Beaux- Arts. Paris.

٢٤- Soulier.G (١٩٢٤). Les influences orientalesdans la peinturetoscane. Laurens. Paris.

٢٥- كرستي وأرنولد وبريجز: مرجع سابق، ص «ط».

٢٦- المرجع نفسه، ص «ط».

٢٧- Devonshire.R.L (١٩٣٥). Quelques influences Islamiquessur les Arts de l Europe. Schindler. Le Caire.

٢٨- Mańkowski.T (١٩٣٥). Influence of Islamic Art in Poland. ArsIslamica. Vol ٢، No ١، pp. ٩٢-١١٧، Published by: Freer Gallery of Art. The Smithsonian Institution and Department of the History of Art. University of Michigan. USA. (www.jstor.org/stable/٤٥١٥٤٩٠).

٢٩- كرستي وأرنولد وبريجز: مرجع سابق.

٣٠- Oleg. G (١٩٧٥). Islamic Art and The West: influences and parallels. First published in "Islam and the Medival West. ed. Stanley Ferber. Binghamton. pp٦٠-٦٦..

٣١- جوزيف شاخت (١٩٨٥). تراث الإسلام (ج١)، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

الأبعاد الأمنية.. وفقه التدبير العمراني المستقر (رؤية قرآنية)

عطية الويشي
باحث بوزارة الأوقاف الكويتية

ظل مصطلح «العمران» ملتبسا بإشكاليات مفاهيمية ترجع في مجملها إلى خلو معاجمنا القديمة من معنى العمران؛ حتى جاء ابن خلدون ليقدم هذا المصطلح معبرا عن حالات الاجتماع الإنساني في المجال المدني أو القروي أو حتى البدوي. والعمران في هذا السياق تعبير عن الحلول أو الحضور البشري في مجال جغرافي معين. وهو بذلك يعكس معنى الحضارة في معاجمنا العربية القديمة، التي ترى أن الحضارة (بفتح الحاء وكسرها)؛ «الإقامة في الحضر، وهي خلاف البادية» (١).

ولقد كان هذا التعريف سببا في تداخل إشكالي آخر بين معان ومفاهيم ومفردات عرفتها بيئتنا العربية والإسلامية منذ مجيء رسالة الإسلام الخاتمة؛ فأحيانا يأتي العمران في بعض الكتابات من منظور المعمار البنياني، وأحيانا يأتي العمران مرادفا للاجتماع، وأحيانا يأتي معبرا عن التعمير متمثلا في سكنى المدن والقرى وتكوين الأمصار... وهكذا تختلف وفق السياق الوارد فيه لفظ «العمران». لكننا، على أية حال، سنركز على جوهر العمران ومفصله ومظهر حصوله: ألا إنه «الاستقرار»، ذلك الذي لا يتحقق إلا بالأمن، فحيثما أمن الإنسان على نفسه «حضر» و«أقام» و«استقر» و«عمر» و«تمدن». ومن ثم، كان البعد الأمني هو ركيزة العمران. وفي المقابل، فإن فقدان الأمن بحصول الخوف إنما هو يؤشر إلى ثلاث حالات سلبية:

- انتفاء العمران الإيجابي نتيجة الظلم، وما يرتبط به من إقصاء، وتهميش، وشطب، وحذف، ومصادرة، وإبعاد، وعزل واستثناء تهجير. ولذلك نجد ابن خلدون يقول: إن «الظلم مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النوع» (٢).
- انقباض الإنسان عن الحركة الإيجابية، مخافة الظلم والهضم المميت، وتلافيا لمظان الرصد والتتبع والملاحقة. ومن ثم، فهو لا ينتج ولا يثمر ولا ينجب.
- انتفاء الاستقرار، حيث تتحول صورة العمران من حالة المعاش الحضري

والحراك المدني أو التمدني إلى حالة البداوة والترحال، فتتشوه من ثم حقيقة العمران وتنتقص خصائصه.

ومن ثم، فالأمن لا يعد من أهم المطالب الأساسية لاستقرار أحوال الإنسان وتمدنه فحسب، بل من أجل تحرر الإنسان، وتحقيق إنسانيته، وإثبات ذاته، وتفجير طاقاته، وإطلاق ملكاته وإبداعاته؛ لأن الأمن: هو أداة النهوض والنمو والتطور المستدام على امتداد الحياة، ماضيا وحاضرا ومستقبلا، وعلى مستوى الأفراد والجماعات والأمم والشعوب والحضارات على السواء؛ فالعمران المستقر والتنمية المستدامة لا يتأكدان -نظرية وتطبيقا وخططا ومشاريع وبرامج تنفيذية- إلا بتوافر عنصر الأمن في الأجلين القصير والطويل. فالأمن والتنمية كما يقولون: وجهان لعملة واحدة. والأمن بطبيعته يعد لازمة من لوازم الحياة الأساسية، وضمانة كفلها الله رب العالمين لآدم حين هبط إلى الأرض، قال تعالى:﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ (طه:١١٨- ١١٩).

ثم إن البعد الأمني في المكون الحضري أو المدني أو القروي أو العمراني بشكل عام، إنما يعد الباعث الأوحد على الاستقرار والقرار. ومن ثم، كان العمل على تحرير الإنسان من الخوف يمثل الخطوة الأولى على طريق البناء التنموي المتكامل للعمران البشري، ذلك بأن «الخوف يقبض الناس عن مصالحهم، ويحجزهم عن تصرفهم، ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قوام أودهم، وانتظام جملتهم» (٣).

الأمن مقوم أساسي للحياة

وفي سياق تأصيله لمقومات العمران واستقرار أحواله واستقامة أموره، عدد أبو الحسن الماوردي ستة مقومات أساسية للحياة، أهمها: «أمن عام تطمئن إليه النفوس، وتنتشر فيه الهمم، فتكثر المواد والتجارات، ويؤدي إلى الخصب والمواساة، والتواصل بالمال، ويسكن إليه البريء، ويأنس به الضعيف، فليس لخائف راحة، ولا لحاذر طمأنينة، حتى يستعمل فكره في المهمات، ودراهمه في المعاملات» (٤).

وفي الرؤية الإسلامية للكون والحياة والإنسان نجد أن الأمن بمفهوميه الجماعي والاجتماعي: «لا يتحقق بطمأنينته فرد دون فرد أو جماعة دون جماعة أو شعب دون شعب، كما أنه لم يبن أمن شعب على حساب شعب آخر، بل جعلت تلك الرؤية جماعية الأمن واجتماعيته السبيل لتحقيقه للأفراد والمجتمعات، إذ تجاوزت بأهمية الأمن الاجتماعي نطاق مجرد تقنينه الإنساني النسبي، فجعلته فريضة إلهية، وواجبا شرعيا، وضرورة من ضرورات استقامة العمران الإنساني واستقراره» (٥). ولذلك، كان توفير المناخ الأمني الملائم للنهضة التنموية بمختلف وجوهها رهانا على الصلاحية المدنية لأي شعب أو أمة أو حضارة.

القرآن.. ومؤشرات التأسيس الأمني للعمران

ولقد كانت قصة ذي القرنين مع أهل السد مثلا يحتذى في التأكيد على البعد الأمني كأحد أهم الضمانات الأساسية للنهضة والتنمية العمرانية. ولعل المسؤولية الأمنية الراعية الأمينة إنما تفرض بطبيعتها على صاحبها نوعا من المشاعر التي تتراوح بين الشفقة والرأفة والرحمة بالرعية والحرص عليهم، ولاسيما إذا لاح لفراسة الراعي إخلاصهم ونجابتهم، ورجح لديه خيار التعويل عليهم في الإصلاح والنهضة والبناء.

ونحن إذا تأملنا أولئك القوم في سياق عرضهم مشروع الإنقاذ الوطني على ذي القرنين، حيث قالوا ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ (الكهف:٩٤)، فلسوف نلمس من جملة ﴿مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أن لديهم وعيا متميزا بحدود الأمن القومي وأبعاده المختلفة.. تلك الأبعاد التي تتجاوز مجرد حدود بلادهم إلى البلاد الأخرى التي يعد أمنها جزءا لا ينفصل من منظومة أمنهم القومي، وأن مجرد غفلتهم عن أمن جيرانهم، إنما هي في الحقيقة تفريط في أمنهم أنفسهم!

ومن خلال طرحهم رؤيتهم، يتبين أنهم يتطلعون إلى حالة من السلام الدائم، وأن هذا السلام، من حيث المبدأ، ذو أولوية مقدمة على الحروب والمصادمات بطبيعة الحال. ولذلك، نجد أنهم لم يطرحوا عليه مشروع حرب، وهو ما يدل على قناعتهم بأن البناء التنموي في ظل الأمن والسلام هو بمنزلة خيار استراتيجي من أجل إعلاء شأن الأمة وترسيخ موقفها في مواجهة القوى المعادية وتلك المتربصة.. وأن الأمم لا تزال بخير ما تخففت من هواجس الخوف المتربص بها والمتآمر عليها، واطمأن جانبها من إرهاب قوى البطش والعدوان المباغت الذي لا تؤمن غوائله. فأينما وجد الأمن والسلام وجدت التنمية ووجد البناء، وتفرعت أسباب النهوض والتقدم.. وعكس كل ذلك صحيح.

ولقد كان بوسع ذي القرنين أن يعرض عليهم مشروعا للمواجهة المسلحة فيمضي معهم به ويحرضهم عليه، مستصحبا ما أمده الله به من أسباب تمكنه من المبادرة إلى يأجوج ومأجوج ومنابذتهم الحرب والانتصار عليهم. لكنه لم يشأ أن يقحم القوم في حرب قد تستنزف مواردهم البشرية، وتأتي على ما تبقى لديهم من أقواتهم وأسباب عيشهم، ولاسيما حين بدا له من عرضهم أنهم غير راغبين في خوض الحرب في ظل وجود البديل المناسب لظروفهم وهو «السد» أو «الردم»، وهذا رأي راجح واختيار موفق من الطرفين كليهما، وذلك لما في الحروب من هدم وتخريب. وإن اهتمامه كان منصبا على إنهاء مسألة رد العدوان من أجل

الكف واستئناف الفعل الحضاري فاستجاب لمشروع البناء والعمران والتنمية.

ويبدو من السياق أن الحل العسكري لم يكن مجالا للتناول أو التداول بين ذي القرنين وأولئك القوم، وأن الاستراتيجية المتبعة كانت وقائية، وهي استراتيجية تبدو مناسبة بالنظر لطبيعة الظرف السياسي والاقتصادي الذي تمر به البلاد والعباد إذ ذاك؛

فبدلا من توجيه جانب كبير من الإنفاق على التسليح العسكري بما «يؤدي إلى اقتطاع قسم كبير جدا من الموارد المتاحة التي يمكن أن تخصص للإنفاق على القطاعات الاقتصادية المنتجة وعلى تطوير البنى التحتية المادية والاجتماعية لأولئك القوم» (٦)، كما أن تبني خيار المواجهة المسلحة المباشرة إنما يحرمهم جزءا من الثروة الوطنية يمكن أن ينفق في تجاوز حالة التعثر الحضاري، والتثقيف الاجتماعي، وتطوير نظم التعليم والتوجيه في بلادهم، ولاسيما أن القوم تحدث عنهم القرآن بوصفهم ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ (الكهف:٩٣).

ثم إنه قد ورد في معنى قوله تعالى ﴿مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ (الكهف:٩٤): «فسادهم في الأرض أنهم كانوا يأكلون الناس. كانوا يخرجون إلى أرضهم أيام الربيع فلا يدعون فيها شيئا أخضر إلا أكلوه، ولا شيئا يابسا إلا احتملوه فأدخلوه أرضهم، وقد لقوا منهم أذى شديدا وقتلا». وقيل: معناه: «إنهم سيفسدون في الأرض عند خروجهم» (٧).

والراجح لدي أن كلا القولين صحيح: فالأول يشير إلى تقرير ما هو كائن من فسادهم، حيث لم ينفكوا عن الإغارة على القوم وإفساد أمرهم عليهم وتعكير صفو حياتهم، وتفويت فرص الأمن والأمان والطمأنينة عليهم.. وهم لم يزالوا يشغبون عليهم بالأذى والعدوان بين كر وكر حتى في أتون ملحمة بناء السد، بدليل قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ (الكهف:٩٧).

وبالتأمل في الآية السالفة، يبدو أن محاولات بناء السد تكررت كثيرا من جانب القوم، ولكنها باءت بالفشل، خصوصا في ظل الغارات المستمرة من جانب يأجوج ومأجوج عليهم. ولعل هذا ما حدا بالقوم إلى استدعاء من يأنسون فيه المكنة والجدارة بإنجاز ذلك المشروع الاستراتيجي الأمني الضخم، حتى يتفرغوا للبناء التنموي والتشييد النهضوي لبلادهم.

أما القول الثاني فيتعلق بما سيكون من أمر فسادهم المستمر إلى المستقبل، وخطر ذلك على الأجيال القادمة؛ وهو ما يعكس النظرة الاستشرافية لأي فساد محتمل من جانب يأجوج ومأجوج، وبخاصة في ظل تكاثرهم الهائل المخيف. فقد أخرج الطبري عن حذيفة قوله: قلت: يا رسول الله، وما يأجوج ومأجوج؟ قال: «يأجوج ومأجوج أمم، كل أمة أربع مائة ألف، لا يموت الرجل منهم حتى يرى ألف عين تطرف بين يديه من صلبه» (٨). وهو الأمر الذي يقطع بأي أمل في الخلاص منهم، اللهم إلا بسبب أقوى من الأسباب التقليدية للمواجهة والدفاع.

ومن ثم، كان مشروع بناء السد هو التوجه الأكثر رشدا في صدى تداعيات اقتصادية وسياسية واجتماعية سلبية نتيجة لممارسات الشغب الهمجي، وعمليات النهب المتزايدة من جانب يأجوج ومأجوج لثروات القوم ومقدراتهم المادية والبشرية.

ومما يدل على ذلك أن ذا القرنين تجاهل خيار الحرب، وهذا لم يكن يعني أبدا أن خيار مواجهة الأخطار يظل مستبعدا فتخزى الشعوب المغلوبة على أمرها وتتخاذل فتزداد جبنا وهروبا من مسؤولية الدفاع عن بلادها، كلا، ولكن كلما كان مسار السلام مع تحقيق الهدف متاحا، فهو أوفق وأدعى إلى الاختيار والتبني. فليس ثمة حاجة للمجتمعات الراشدة الحكيمة في مجرد الحروب وسفك الدماء وإزهاق الأرواح وتبديد الثروة البشرية بالقتل والإبادة وتدمير العمران وتخريبه. وأي حاجة لهذه المجتمعات في تبديد ثرواتها البشرية ومواردها الاقتصادية؟!

وعلى الرغم من أن السياق القرآني يتناول شخصية ذي القرنين باعتباره قائدا مؤمنا عادلا حازما، وليس واعظا مخلصا مجردا بالمفهوم اللاهوتي.. فإننا على أية حال نجد أن نبرة الرحمة هي الغالبة على خطابه، وإلا كيف تستديم التنمية في مناخ التوتر والاضطراب والترقب والحذر والخوف الذي يقوض أركان الناس، ويقمع فيهم كل تطلع لتأكيد ذاتهم وإثبات وجودهم وهويتهم؟! وقد أثبتت التجارب والبحوث والدراسات النفسية والتربوية أن طاقة الإنسان لا يمكن أن تعمل بإيجابية في ظل أجواء التوتر والحذر والخوف والترقب، وأن القدرات والمواهب الإنسانية لا تنطلق ولا تبدع في مناخ يسوده التوتر وعدم استقرار الحالة الأمنية النفسية أو الاجتماعية، وأن «الإنسان الذي لا يرى في نفسه إلا الضعف والهوان على غيره، إنما يغري الطغاة بالإمعان في الفساد

والظلم والقهر والجبروت، فينقاد لأوامرهم ويخضع لإرادتهم ويستجيب لنزواتهم» (٩)؛ فكان أن جنح الرجل إلى السلم وإيثار السلامة المحققة للمصلحة القومية العليا للبلاد؛ ذلك على الرغم من قدراته الهائلة وقوته الجبارة وحيازته أسباب كل ما يمكن أن يريد فعله. إنها إذن رغبة الحياة وإرادة الإصلاح والبناء والتعمير في مواجهة رغبة القتل والتخريب والفساد في الأرض.. رغبة السلام القوي العزيز في مواجهة رغبة الحرب الطامعة الجبانة.. رغبة العمار في مواجهة ثقافة البوار والدمار.

ومن ثم، تأسست رؤية المواجهة على استثناء فكرة الحرب مكتفية بمبدأ دفع الصائل. وقد كان هذا المبدأ محل توافق وإجماع شعبي ونخبوي ورسمي، فيما يبدو من سياق القصة. وإن محاولة إنتاج الأمن بإيعاز من ذلك الإجماع الشعبي والنخبوي الرسمي العام على هذا النحو، إنما تدل على وعي تلك الأمة المتميز بمصالحها، واستيعابها لمقررات نهضتها ومتطلبات التنمية العمرانية المنشودة.

ولذلك، كان بناء السد أو الردم خيارا استراتيجيا توافقيا عاما، بل كان فرصة لبروز قيم الوحدة والتعاون في إطار العمل الجماعي من خلال استظهار الطاقات والإمكانات والمواهب والإبداعات الخلاقة.. تلك التي يبدو من السياق القرآني أنها كانت محل تقدير وتبن من جانب القيادة العامة.

وذو القرنين، الذي لم تستسغ نفسه أن يترك القوم فريسة للخوف والتوجس والترقب الدائم من عدوان المتربصين بهم، الذين لا يفتأون يغيرون عليهم، تجاوز بهم مرحلة الخوف إلى توفير أسباب الأمن الأبدي، وتأكيد ثقافة الرحمة الربوبية، فهو يريد أن يقول لهم: إن هذا المشروع حين أنجز إنما هو استلهام من رحمة الله رب العالمين الذي تلطف لهم وترفق بهم وتشفق عليهم برحمته، حين امتن عليهم بقيادة وفرت لهم أسباب الأمن والأمان من شغب المفسدين في الأرض... ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ (الكهف:٩٨). إنها نزعة الخير إلى المبادرة التلقائية والعمل التطوعي في خدمة المجتمع وتأمين احتياجاته المتعددة، التي في مقدمتها الأمن والاستقرار وحراسة المجتمع من الأذى والمخاطر، وسد ذرائع الفساد، وقطع الطريق على المفسدين ليتفرغ الناس لنهضة بلادهم ورقي أوطانهم.

ولقد بلغ السد من جودة صنعه وشدة إتقانه بحيث كان مشروعا قوميا للخلاص الأبدي من الفساد والمفسدين، الذين لم ينفكوا عن محاولة اختراقه من دون جدوى. إذ يلوح لنا من السياق القرآني أن ما بين بناء السد ومجيء أمر الله رب العالمين مسافة زمنية ممتدة لم تهدأ خلالها المحاولات الدؤوبة من جانب يأجوج ومأجوج لاختراق السد أو تجاوزه ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ (الكهف:٩٧).

ولقد جعل ذو القرنين من أطروحة القوم، الهادفة لبناء السد، فرصة لربطهم مباشرة بسنن وأسباب الجد والاجتهاد البشري، بعيدا عن منطق الخوارق والمعجزات، التي لم ير أنهم في حاجة إليها الآن بقدر ما هم في حاجة إلى تربية النفوس على مواجهة التحديات، وبناء قوتها الذاتية بعيدا عن الاعتمادية والتواكل.. فهو ماض إلى حال سبيله، فرأى أن يتركهم آمنين متحصنين بأسباب القوة والمنعة الذاتية بدلا من أن يعلقهم بشخصه، فيشرعون في استدعائه واستغاثته والتوسل به كلما عرض لهم عارض أو جد عليهم خطر وهو ليس بحي دائم لهم. ومن ثم، عمد إلى ربطهم مباشرة برحمة الله الحي الذي لا يموت ليتأكد إيمانهم واستحقاقهم الأمن والهداية.. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (الأنعام:٨٢).

الهوامش:

١ - الفيروز آبادي، القاموس المحيط (مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧هـ، ط٢)، ص٤٨١.

٢ - عبدالرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت:٨٠٨هـ)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة (دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، جـ١، ص٥١ و٣٥٣.

٣ - أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الشهير بالماوردي (ت:٤٥٠هـ)، أدب الدنيا والدين (دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٦م)، ص١٤٢.

٤ - أبو الحسن الماوردي، أدب الدنيا والدين، مرجع سابق، ص١٤٢.

٥ - محمد عمارة، الإسلام والأمن الاجتماعي (دار الشروق، القاهرة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م)، ص١٧، بتصرف.

٦ - محمد دياب، جدلية العلاقة بين الإنفاق العسكري والتنمية الاقتصادية (مجلة الدفاع الوطني، بيروت، ٢٠١١م، العدد ٧٥)، ص٦٨.

٧ - أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، الكشف والبيان، تحقيق الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٢هـ /٢٠٠٢م)، جـ٦، ص١٩٣.

٨ - محمد بن جرير بن يزيد بن كثير ابن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت:٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبدالسند حسن يمامة (دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، ١٤٢٢هـ /٢٠٠١م)، جـ١٦، ص٣٩٧.

٩ - علي محسن شابير، علاقة الإنسان بالكون في القرآن الكريم (مقال في مجلة الهداية التونسية، السنة ٣٣، العدد ١٧٥، صفر١٤٢٩/أبريل ٢٠٠٨م) ص٢٠، بتصرف.

العمران والبشرية: بين التفكير.. والتدبير

د.هبة رؤوف عزت
أستاذة جامعية - مصر

العمران تصور لخرائط الحياة اليومية في تراكمها التاريخي وما ينتج عن ذلك من تحولات إنسانية وبشرية. العمران ليس تصورات عن العمارة منفكة عن الحق في الأرض والسكن وترتيب المساحات والحدود بين الخاص والعام، والاجتماع والسياسة والاقتصاد. العمران هو أجسادنا في صيغ تفاعلها مع الحيز المكاني. والعمران هو تصور للعالم وموقعنا فيه ومساحات الفراغ وفضاءات التواصل. العمران احترام لتواريخ الأماكن والبشر حين ترتحل وحين تستقر. العمران أزمنة متجاورة تمنح الحياة طبقات من الطقوس والشعائر والجماليات يصعب فصلها وفصمها. العمران هو بنيان المعارف ومساحات الزخارف.

العمران مدن تمنح الأمن الإنساني والحياة الكريمة، وليس فقط أسواقا تتيح الاستهلاك. العمران رسم البشرية لأحلامها وبحثها عن الصيغ المتنوعة لتجلياتها في الزمن والمكان، وتفاعلها مع الأكوان والألوان والأصوات. العمران منطق للسلطة يقوم على الرعاية وتحقيق الكفاية. العمران بصمة الحضارة على الروح قبل أن تكون آثارها في المساكن. العمران دوائر عدل وساحات براح وجسد اجتماعي يتمدد ويتجدد.
العمران عبر وبصائر ونظر وفضائل.

أسئلة المدن ومستقبل الأمة

الحديث عن العمران -والذي سبق أن تناولته مقالات متنوعة في الأعداد السابقة من مجلة «الوعي الإسلامي»- له مداخل شتى. فلسفية: في جدل المدينة والبداوة، واجتماعية: في علم الاجتماع الإنساني وصيغة المدينة مقابل الريف، وسياسية: في الحديث عن المدني مقابل العسكري، كمنطق للمدينة منذ جدل أثينا وإسبرطة حتى أدبيات العلاقات المدنية/ العسكرية المعاصرة وفلسفة الدولة الحديثة، التي ترسم حدود العمران وطبيعته ومقاصده.
استئنافا لهذا الجدل وتركيزا على عدة عناصر لثراء هذا الملف في هذا العدد بمقالات تتناول العمران من جوانبه المختلفة، قد يكون مناسبا البدء بفهم

علاقة العمران بعمارة الأرض، وكيف أن الأرض التي يقف عليها العمران كمفهوم حضاري مركب قد تكون أرضية النهضة.. أو ساحة الصراعات.

وتتبع لفظ الأرض في القرآن يحملنا إلى معان مهمة في فهم أن دلالة الأرض تتجاوز ماديتها إلى رمزيتها، ودورها في مفهوم الاستخلاف الإنساني، والتنازع على الحكم وبسط السيطرة وغيرها.

يقترن مفهوم الأرض في القرآن بنشأة الإنسان وبالعمارة وبالتمكين، وبالقداسة، وبالوراثة وبالملك.

وما يلفت القارئ للفقه الإسلامي هذا الوعي بحق الإنسان في الأرض، وكونها المادة الخام المشتركة للعمران، ومن هنا إحياء الأرض الموات وتشبيه القوم الظالمين بأنهم قوم بور، وحفظ حقوق الملكية وتنمية معاني التزكية والنماء.

بل يتم تشبيه الكلمة الطيبة بالنبات الذي يثمر، وتتكرر هذه الصورة في كثير من الآيات، التي تربط الوجود الإنساني بأرض الله استقرارا وهجرة ونفيا وفتحا.

في رسالة الإسلام كان للأرض مكانها في التشريع للمساحات والحقوق، بداية من فقه الزكاة، وتنظيم ما في الأرض وما فوقها وما تحتها. ودفعت حركة الفتوح لتمييز الفقه بين مجالاتها من دار إسلام ودار كفر ودار عهد.

الأرض كانت دوما المساحة والمجال للتشريع والتفعيل. عمارة المكان وعمارة الأنفس والوجدان سارا بالتوازي من أجل تحقيق نموذج عمران.

الفقه الإسلامي لا يتحدث عن العمران إجمالا، بل يفصله تفصيلا يذهل المتجول في كتب الفقه، ويلفت الباحث الاجتماعي الذي يستعرض كيف تخيل الفقه العمران، ثم كيف أدار حياة الناس بالشريعة الغراء.

مركزية الإنسان في الفقه واضحة، لكن هذه المركزية تنفتح على النبات والماء حفظا للتوازن البيئي وتيسير سبل العيش، ولعل كتاب جميل عبدالقادر أكبر حول عمارة الأرض في الإسلام من الكتب المتميزة في هذا المجال، فهو يستعرض الفقه الإسلامي ورؤيته للمسؤولية عن المعمورة، والحفاظ على الثروات للانتفاع العام وللأجيال القادمة، وتنظيم الملكية والإحياء للأرض والارتفاق الذي هو العمود الفقري لنمو العمران الإنساني بالمعنى الحضاري، وليس المعمار كحجر فقط. أي رباعية البشر والشجر والحجر والماء في تفاعلها المستمر.

الارتفاق هو ما يستوقفنا هنا لعمق اقترانه بالعمران وعمارة الأرض، بالمعنى العميق والأخلاقي، فالاشتراك في المكان يرتب واجبات على صاحب الأرض الزراعية أو العقارية لإتاحة كافة الحقوق المشتركة مع الآخرين، بدءا من عدم حجب الشمس، مرورا بإتاحة مرور الماء والقنوات والممرات العامة، وصولا لحق الشفعة والجيرة بما يحفظ المنظومة الأخلاقية.

في كتابه يستعرض كيف حدث نمو المدن، ترسيمها الجديد وتخطيطها، النظم المتنوعة للتشريع العقاري، والقرض العقاري، واختلال موازين العدالة بقوة السلطان، واستعادة الفقه بشكل اجتهادي ومتجدد لمنطق العمران.

التفاصيل في التعامل مع الأرض فارقة في العمران الذي ينشأ والمساحات التي تنفصم أو تتصل، وروح المجتمع التي تسكن الأرض، واستحقاقات الإنسانية في حدها الأدنى، وحق الله من قبل ومن بعد.

الأرض إذن عنصر مركزي في العمران يمكن النظر لها كـ: معطى مادي- كثروة- كمساحة سلطة- كساحة تفاعل مدني-، وبذلك نقترب من المكان بمداخل: العقيدة والتوحيد- الموازين والتشريع- الفلسفة والأخلاق- الاجتماع- الاقتصاد- الوجدانيات- الجماليات- اللغويات (التصوير والتعبير والتفسير).

والحق أن فهم المدن الإسلامية ونظامها والفقه ومناهجه في التعامل مع تفاصيل الحياة العمرانية فيها لا ينفك عن اجتهاد لازم في نقل هذا التراث لواقعنا الراهن، لنحيي به بلدة مَيتا خلت من روحها الحضارية، نتيجة موجات التغريب ثم الاحتلال ثم الهيمنة الاقتصادية والعولمة الرأسمالية. إذا كان مجال الحداثة العلمانية المركزي هو تغيير خرائط العالم وتأسيس المدن الصناعية؛ فأين الجدل حول المدن الإسلامية اليوم في ثوب العالمية الذي ارتدته فوق طبقات تاريخها العمراني، وكيف يمكن استعادة إنسانيتها وإسلاميتها -في ظل مركزية مدن التحديث، والتي يصفها نقادها من علماء الاجتماع الغربيين بأنها معادية للتجمع الإنساني والتراحم والتكافل، من خلال أدوات فصل المساحات وخلق المسافات ودوران الحياة حول مواقيت للعمل، وتحديد لوقت الفراغ، يتوازى مع الإنتاج لا مع فلسفة العبادة، وينتظم حول الاستهلاك لا حول الفعل الاجتماعي والمحتوى الإنساني للحياة اليومية؟

وكيف يمكن تصور المواطنة ودعم تصورات النهضة المتنوعة أصلا وفرعا دون إعادة تأسيس فقه لحركة الكتل البشرية في المساحات وقيمها الاجتماعية وتواصلها المتحرك، من خلال الهجرة للعمل أو الهجرة القسرية أو حتى السياحة الطوعية، بما يرفع التواصل الثقافي والإنساني من خلال مراجعة التشريعات المنظمة للاستقرار العمراني/ السكني ليكون إنسانيا في مدنٍ صارت بلا هوية؛ غلب فيها «شهود المنافع» على «تعظيم الشعائر»؟

كيف يمكن بناء تحالفات إنسانية عابرة للعالم مع التوجهات الإنسانية ضد هيمنة اقتصاد السوق، ما وراء

رفض الفائدة البنكية وباتجاه رؤية إسلامية لعلاقة النظام الاقتصادي الإسلامي بالبيئة، وحماية حقوق العمال واحترام التراث المعماري، والنقابية الدولية، ومكافحة حرمان الأطفال من طفولتهم بالعمل المبكر ومن أمهاتهم بعمل الأمهات الذي يمليه واقع الفقر المتنامي في المدن؟

كيف يمكن تفعيل شبكات الرحمة الإنسانية الإسلامية لمقاومة الكوارث وحل النزاعات المسلحة؛ ومن كان أولى بأفكار أطباء بلا حدود، والرقابة الإنسانية العالمية على أوضاع حقوق الإنسان؛ نحن أم غيرنا؟! أم كنا منشغلين أثناء تأسيس تلك الجهود بجدل فرعي ضيّع الأركان؟

كيف يمكن توليد رؤى للجمال في زمن القبح؛ وثقافة للسلام في مناطق النزاع؟ كيف نعين الناس على ألا يدخلوا في دائرة العنف المتجاوز لـ«حدود» الجهاد؛ ونرد بعضنا بعضا لتلك المعاني والقيم والحدود بدلا من المزايدة بدماء الأبرياء منا ومن غيرنا، بما لا يحقق مصلحة منشودة أو منفعة مرجوة، وكيف نواجه النوازل؟ وكيف نحمي الخصوصيات الفردية في مواجهة اجتياح هيمنة حياة المدينة والتكنولوجيا السائدة فيها؟

المكان والمدن والعمارة وسائط بناء النهضة، والأمكنة تحتاج في بلداننا لإعادة تأسيس معرفي وعملي.

العمران.. والحيز.. والجسد

وإذا كانت الأرض مجال العمران، فغاية العمران هي الحياة الطيبة والإنسانية للفرد.. وللجماعة.

لذلك فالعمران، مثل العمارة، لا ينفك عن تصورات الجسد وعلاقته بالمكان وبالسلطة.

الحق في السكن والتأمين الصحي، التلوث، ملكية المساحة مقابل الفراغ العام المشترك، حيز السجن ومجال العقوبة، حدود الوطن والمساحات العازلة، كلها مساحات يتحرك فيها الجسد.

الحيز لا يمكن فهمه إلا من خلال علاقة الجسد به، والعمران الذي يحافظ على جودة الحياة الإنسانية هو الذي يحترم هذا الجسد حين يجب أن يتحرك بحرية، ويمنح هذا الجسد الخصوصية في شؤونه من خلال التخطيط العمراني، ومواصفات البناء الإنساني، والتشريع الذي يحفظ الجسد ويحفظ مجاله الحيوي من الاعتساف والانتهاك.

العمران يتأسس على مقاصد حفظ النفس، وهذا المعنى معقد وعميق، يبدأ من نوعية الحياة التي يحظى بها جسد الإنسان في ظله على مستوى الضروريات والتحسينيات والكماليات، من الأمن إلى الخدمات العامة، وصولا إلى الحق في البيئة النظيفة والحق في الجمال، لأن القبح يستلب النفس ويهوي بها ويفسد نقاءها وخيريتها.

تخطيط المدن غاياته تنظيم وضبط الحركة وتحديد المسارات وسهولة الانتقال، والأصل فيه أن يجعل حياة الساكن في المدينة سهلة، فالمدينة يُنظر لها باعتبارها الأسهل عيشا للفرد، والأكثر تنظيما لحركة المجموع.

لكن المدينة في تعاملها مع الجسد الإنساني في العصر الحديث باتت تنظر له نظرة وظيفية، وصار السوق هو المحرك، وسعيا للتكسب منه شهدت كثير من المدن هجرات جماعية من الريف للمركز المديني الصناعي، فتنامت أحزمة الإسكان غير الرسمي والعشوائيات حول المدن، وتلاصقت الأجساد، وعجزت الخدمات العامة عن سد الاحتياجات، وارتبك التخطيط، وتكدست الحركة ففقد الجسد ميزة الانتقال السهل وحرية الحركة الواسعة، فلم تعد الكثير من المدن المركزية في العالم اليوم تقدم نموذجا عمرانيا ملائما للعيش الكريم، وغلبت أولوية حركة رأس المال على نوعية الحياة الكريمة التي تكفلها للناس.

والجسد في نظريات الاجتماع ومنظور العمران جسد فردي وجسد جماعي، العمران في صورته المثلى هو الذي يحفظ للجسد الفردي كرامته وحقوقه ويدمجه مع تصور عام للجسد السياسي، وهو حين يفعل ذلك يحترم التنوع داخل الجماعة الواحدة وبين الجماعات المختلفة التي تحيا في مساحة وحيز مشترك، رغم اختلاف فضاءات الهوية.

درجة «تمدن» المجتمع تنبع من الإدارة الناجحة لهذه العلاقة بين الفردي والجمعي، والمشترك والمختلف. والجسد في ذلك كله هو الفاعل المتحرك.

سنجد مفردات تصف هذا الجسد في حضوره الاجتماعي في حقول العلوم الإنسانية، منها المواطنة التي ترصد العلاقة بين الجسد الفردي وجسد الدولة، ومفهوم الفاعل الذي يتناول السلوك الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للفرد، ومفهوم الذات الفاعلة الذي يدرج البعد الثقافي

والسرد الذاتي لعلاقة الفرد بالمحيط المادي وعلاقاته التعاونية والصراعية.

النظريات اللغوية أيضا بدأت في دخول ساحة الجدل حول مركزية الإنسان/ الفرد في العمران.. ليس فقط كـ«مستهلك» لحيز المدينة بل كـ«منتج» لمعناها الكامن وراء مبناها، وهو المعنى القابل للتأويل وإعادة التفسير طوال الوقت، ليس فقط من خلال حكايات أو «سرديات» الأفراد عن مدينتهم أدبا وشعرا وتعبيرا وأمثالا شعبية، كما أن الفرد يتحدى التخطيط الذي أنشئت عليه المدن طوال الوقت، حين يستهلك المساحات ويصبغها بألوان مختلفة، وليس يغيب عنا كيف يحتل البعض المساحات الممنوعة بأنشطة تجارية هامشية، ويعتصم البعض الآخر في الأنشطة الاحتجاجية ليعيدوا بناء تصوراتهم عن المكان.. والسلطة.. والقانون.. وبذلك يغير حضور الجسد الفردي والجمعي خريطة القوة التي أنتجت خريطة المساحات.

الفرد أيضا هو مدار تمييز المجالات بين سياسي واجتماعي، رغم أن علاقات القوة تسري فيها كلها، ومساحات الأفراد في اجتماعهم الطوعي (خارج الاجتماع الطبيعي في الأسرة والقبيلة) هي ساحات «المجتمع المدني».. ومدنيته تقابل «عسكرة الدولة» التي تستأثر – في نموذج الدولة الحديثة – بكل أدوات القوة. الإرادة الفردية للجسد غير المسلح في صيغ التعاون النقابي أو التطوعي أو الدفاعي/ الحقوقي وغيرها.

وترتبط الأخلاق المدنية كمنظومة قيميه ليس فقط بفلسفة العمران، بل أيضا بالكثافة السكانية، فحرمان الإنسان من المساحة وضيق المسافات بين البشر من الأمور التي تؤدي للاغتراب وتفكك النسيج الاجتماعي الحاضن للقيم. الأخلاق المدنية لا تنفك عن السياسات السكانية ولا أنماط العيش والإسكان، وهو ما يزيد من درجة العنف واللجوء للقوة في التنازع. وفي هذا كلام يطول في قدرة القانون على إدارة العلاقات الاجتماعية في ظل تراجع الاتفاق حول النظام العام، وضعف شرعية السياسات الاقتصادية.. فيبرز الفرد هنا من خلال النقاش الجاري في العلوم الاجتماعية باستدعائه الزمن اليومي في حركته مقابل الأزمنة الطويلة التي يفكر بها منطق التخطيط العمراني والأنساق المعمارية، ويغدو سلوك الفرد وما يحدثه من أثر جماعي تراكمي في تحديه لفكرة النسق والنظام وخروجه عليها إن لم تحقق احتياجاته متنا موازيا لمتن العمران الأصلي، إما أن يتناغما أو يتنافرا فتنشأ الصراعات المجتمعية، وصولا للحروب الأهلية.

لا يمكن إذن تجاهل أبعاد الجسد الفردي والجسد الجمعي في تفاعلهما مع الجسد السياسي في فهم تحولات العمران، وبالتالي في مناهج الإصلاح الحضاري.

وكل باب الارتفاقات في كتب الفقه يصب في هذه المعاني.

عمران الفطرة.. وفطرة العمران

التفت علماء الأمة لاقتران العمران في التصور الاسلامي بالفطرة، من النصوص المهمة في هذا المجال ما كتبه شاه ولي الله الدهلوي في كتابه «حجة الله البالغة» تحت عنوان: «سياسة المدينة»، فهو يرى أن «سياسة المدينة هي الحكمة الباحثة عن كيفية حفظ الربط الواقع بين أهل المدينة. وكان يعني بالمدينة جماعة متقاربة تجري بينهم المعاملات، وهم أهل منازل شتى. والأصل في ذلك أن المدينة شخص واحد من جهة ذلك الربط، مركب من أجزاء. وكل مركب يمكن أن يلحقه خلل في مادته أو صورته».

كما يربط الدهلوي بين سُكنى المدن والسعادة.. والحفاظ على الفطرة السوية من خلال سياستها. فيقول في باب الحُجُب المانعة من ظهور الفطرة: «اعلم أن الحجب ثلاثة: حجاب الطبع وحجاب الرسم وحجاب سوء المعرفة»، وحجاب الطبع عنده هو الأحوال الطبيعية وشغلها للإنسان، وحجاب الرسم وهو العقل وفهم منطق الاجتماع والعمران، وحجاب سوء المعرفة لما هو وراء الواقع الطبيعي والنظر العقلي، أي فهم منطق الكون وموقع الإنسان منه.

ونجد أثرا من هذا التقسيم عند ابن خلدون سلفا في مراتب علاقة الناس بالمادة والمعايش، ثم النظر العقلي والسياسة السلطانية، ثم معرفة الوحي والسياسة الشرعية، لكن الدهلوي يزيد في التفصيل في «فن آداب المعاش وباب تدبير المنزل– وباب فن المعاملات– وباب سياسة المدينة»، والشاهد أن ربط سياسات المدن بالفطرة ورعايتها أمر قام عليه فقه المعاملات والارتفاقات، وكان فهمه لدى الفقهاء عميقا ودقيقا، ربما يتجاوز كثيرا من كتابات علم اجتماع المدن اليوم.

والمقابل في الفكر الغربي يرسم المفكر الفرنسي جان جاك روسو في كتابه عن العقد الاجتماعي صورة لحالة الطبيعة الأولى التي اخترعها المفكرون في أوروبا كتصور افتراضي عن نشأة الدولة؛ هروبا من هيمنة فكرة الحق الإلهي للملوك في الحكم، فأراد روسو أن يرسم صورة منبتة الصلة بالنص الديني في حكايته عن نشأة المجتمع السياسي في قصص

الأنبياء في التوارة والإنجيل، فقد كانت الفكرة العلمانية مسيطرة آنذاك، قبل أن تندلع الثورة الفرنسية. قال روسو: إن الإنسان كان سعيدا في حالة الطبيعة، لا يدرك معنى الثروة والملكية، ويعيش في سلام مع الطبيعة، وإن الدخول في عقد اجتماعي مع الآخرين ومع السلطة الحاكمة التي يقيمها هذا العقد كان أمرا حتميا، لتنظيم أدوات القوة وضمان نشأة السلطة، لكن لا داعي لتحويل ذلك لمثالية وأسطورة كبرى، فالإنسان ولد حرا وهو الآن في ظل هذه المدنية مكبل بالقيود، والأمن الذي من أجله ضحى بانطلاقه دون قيود في حرية مطلقة لم يتوفر له بالقدر الذي يريد، ومن هنا فكرته عن الاغتراب، وكذلك -وهو الأهم- حديثه في كتابه «عقيدة قس من جبال السافوا» عن دين بسيط يحقق التوازن بين العقل والوجدان، وترجمة الكتاب للغة العربية التي قام بها عبدالله العروي حملت عنوانا عبقريا: «دين الفطرة».

المهم في هذه الأفكار التي نحتاج أن نقرأ منطلقاتها السياسية والدينية المتنوعة هو أن رحلة التاريخ السياسي هي رحلة أجسادنا في تفاعلها -أو صراعها- مع السلطة في مساحات المدن ونماذج العمران، تريد السلطة أن تهيمن على أجسادنا لتبني «الجسد السياسي» أي الكيان المتخيّل لأمة.

وليس الجسد مركز الوجود، لكنه أحد الأبعاد المهمة والمكونات الرئيسية للفرد. وللوجود الإنساني مقومات متعددة وطبقات غنية متراكبة، لذا ففي المقابل لما سبق ذكره حين يغدو الجسد الفردي هو الهاجس الأكبر ومدار تشكيل رؤية الفرد عن نفسه ورؤية المجتمع عن الإنسان يتم اختزال الوجود الإنساني في بعده المادي الظاهر، وتتوارى الأبعاد الباطنة النفسية والروحية والفكرية والمجتمعية، ويصبح تصورنا عن الإنسان هو ما سماه البعض «الإنسان ذو البعد الواحد»، وفي هذه الحالة يتجلى هذا في ترتيبات اجتماعية وطقوس يومية للاحتفاء بالجسد، وفي الغالب وضعه في قوالب وصور نمطية، يستوي في ذلك الولع بكشفه وثقافة العري وتجارة الجسد وحمى جراحات التجميل والمبالغة في الاعتناء بتفاصيله إلى حد الجنون، والاهتمام «بالرسائل التي يرسلها الجسد» لأنه يصير المعبر الوحيد عن الشخصية، وبدلا من أن تكون لغة الجسد واسطة تدعم اللغة المنطوقة تصبح هي اللغة شبه الوحيدة، ويتوارى المجاز ويتم تنحية الخيال، لأنه كما يقول الغربيون: «ما تراه هو ما ستحصل عليه»، لذا يصبح المشهد الاجتماعي هو مشهد «ثقافة الاستعراض» بالأساس. والغريب أن يحدث هذا في مجال القيم الأخلاقية والدينية، فيصبح الجسد أيضا في هذه ثقافة دينية مركزيا، وفي مقابل التعرية والكشف يكون الاهتمام الزائد بالتغطية والحجب، ويسري هذا على أجساد الرجال والنساء على حد سواء، وبدلا من أن يكون الجسد معبرا وجسرا للروح يصبح هو التعبير المركزي عنها بما يختزل ويسطح الكثير من المعاني العميقة، ويحول الرمز إلى مركز، فلا تتحقق مقاصد الشرع بل تتعرض للتآكل، ويصبح الظاهر أهم من الباطن، والشكل أهم بكثير من المضمون. وعندها يبدأ بنيان العمران في التآكل.. وإن على أجل بعيد.

وكما أن الجسد يظل في كل الأحوال والدوائر محكوما بعنصر الزمن، فإن الجسد الاجتماعي أيضا يصيبه ما يصيب الإنسان من هرم، وفي ذلك نظريات صعود وهبوط الحضارات في كل الفلسفات القديمة والمعاصرة.

ولنتدبر في صلة العمران بالظلم والعدل في قوله تعالى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (إبراهيم:٤٥).

والمعنى يحتاج لتفصيل لا يتسع له المجال، تكفي الإشارة لاقتران ترتيبات السكنى والمساكن وارتباطها بالعدل والظلم، في ظل تمايز مساكن الطبقات المختلفة في المجتمع وحرصها على وضع الأسوار والحدود والسدود، بدلا من فتح الجسور وتواصل الدوائر وبناء النظام العام.

المعمورة الفاضلة

والحديث عن العمران لم ينفصل في التراث الإسلامي عن تصور الكون والأرض كمجال للإنسانية والبشرية، فالعمران يقدم تصورا للحياة الطيبة، هو نموذج للشهادة على العالمين، لكنه أيضا نموذج مفتوح على العالم «يتعارف» معه، ويحترم تنوعه، ولعل فكر الفارابي

هو النموذج الأمثل لهذه الرؤية الشاملة التي ترى العمران على مجال المعمورة، وتميز صيغ المدينة الفاضلة والمدينة غير الفاضلة.

تعتبر المعمورة الفاضلة أو الدولة العالمية أعلى أشكال الاجتماع الإنساني عند الفارابي، وقارن بين البناء الفكري والبناء السياسي على نحو بدت معه فلسفته السياسية كفلسفة ذات نزعة عالمية؛ فالله قيوم على الوجود كرب للعالمين، والرئيس على رأس البناء السياسي كحاكم للمدينة الفاضلة. ومن ثم يوجد انسجام تام بين رؤيته السياسية والدينية وفلسفته الأخلاقية، وهو بذلك تجاوز الفكر اليوناني الذي كان يرى نفسه الأسمى في المدنية، في حين كان العمران عند الفارابي يمتد لصالح «المعمورة الفاضلة».

رؤية الفارابي للعالمية تختلف عن رؤية الرواقيين في الفلسفة اليونانية، لأنه ارتقى بعد مفهومهم للقانون الطبيعي إلى معاني التوحيد، فصارت طبيعية القوانين مرتبطة بالفطرة وبالشريعة، وليس بالطبيعة كمادة أو كمفهوم كوني سقفه العالم وحسب.

السعادة في الدنيا والآخرة كانت غاية المدينة ثم المعمورة الفاضلة في التصور الإسلامي، ولم ينفصلا قط، وهو ما يميز مفهوم السعادة في الفلسفة الإسلامية، ويصوغ رؤيتها للعمران.. ابن خلدون أوضح ذلك بجلاء، وميز لذلك مهمة ودور العلماء.

والفارابي ينتقل من الفرد إلى المجتمع على جسر مدني هو الضرورة الاجتماعية، و«لا ينال الإنسان الكمال - الذي لأجله جُعلت الفطرة الطبيعية - إلا باجتماع جماعة كثيرة متعاونين يقوم كل واحد لكل واحد ببعض ما يحتاج إليه في قوامه».

لذلك يحدث الاجتماع الإنساني، والاجتماع الإنساني الفاضل هو الذي يوصل إلى تحقيق السعادة؛ فالمدينة التي يقوم فيها الاجتماع على التعاون وممارسة الأفعال واتباع القوانين التي تتحقق بها السعادة الحقيقية، هي المدينة الفاضلة. والأمة الفاضلة مكونة من مدن فاضلة يتعاون أبناؤها بعضهم بعضا وتتعاون مدنها كلها، وتتعاون هي مع سائر الأمم. والمعمورة الفاضلة إنما تكون إذا كانت مكونة من الأمم الفاضلة التي تتعاون معا على تحقيق السعادة الحقيقية لا الزائفة. أي ليست السعادة الحقيقية هنا هي تحقيق «دولة الرفاه» على الطريقة الغربية، بل هي السعادة الناشئة عن الالتزام بالأخلاق، وهي السعادة الأخروية، أما السعادة الزائفة، فهي السعادة الدنيوية مثل الثروة أو اللذة أو الكرامة أو المجد.

وكان أساس تقسيمه للمدن الفاضلة وغير الفاضلة يقوم على التمييز بين نوعين من الرئاسة: الرئاسة الفاضلة والرئاسة الجاهلية، يقول «الرئاسة ضربان: رئاسة تمكن الأفعال والسير والملكات الإرادية التي شأنها أن يُنال بها ما هو في الحقيقة سعادة، وهي الرئاسة الفاضلة، والمدن والأمم المنقادة لهذه الرئاسة هي المدن والأمم الفاضلة. ورئاسة تمكن في المدن الأفعال والشيم التي تُنال بها ما هي مظنونة أنها سعادات من غير أن تكون كذلك، وهي الرئاسة الجاهلية».

وهو يربط الفطرة بمعمار الكون: «أجزاء العالم هيئات طبيعية بها ائتلفت وانتظمت وارتبطت وتعاضدت بالأفعال، حتى صارت على كثرتها وكثرة أفعالها كشيء واحد يفعل فعلا واحدا لغرض واحد».

ويفيدنا كلام الفارابي في نقد العولمة التي تنبني على فكرة المدينة الكوزموبوليتانية، لكنها لا تُكسب المدن بالضرورة قيما أخلاقية، وتعتمد على الإدارة (الحوكمة العالمية) وليس الحضارة (بمعنى التمدن الرفيع).

هذا الجدل دار في نقد العديد من الكتابات الإسلامية لمفهوم العولمة، وإن بقي تصورنا عن العمران والعالمية قاصرا في منافسة الزخم النظري في هذا الجدل، وقد تابعت الموضوع لمدة عشر سنوات من خلال مشروع «المجتمع المدني العالمي» في جامعة لندن، وأخرج عشرة تقارير سنوية منذ ٢٠٠٣ ساهمت فيها بالكتابة ثلاث مرات. وهنا نجد أن تفاعل العقل المسلم يضيف للحوار العالمي إضافات بناءة وجوهرية.

لاينفك انشغال العقل المسلم إذن بقضايا العمران عن مداخل الفهم والتقدير للتحولات التي مر بها العمران البشري في ظل الإمبريالية ونشأة المدن الجديدة وتحول المدن التاريخية في ظل الاحتلال إلى صيغ تخدم الرأسمالية العالمية بالأساس، هي التي تصوغ تطورها العمراني وفلسفة الجسد والمساحة، وتعيد تعريف القيم والمجالات والمنظومات الاقتصادية والسياسية على صورتها الغربية.

إن فهمنا لفكرة التنوع الثقافي يقابله أهمية استعادتنا لمنظومة الفطرة، وقيم العدالة في مقابل قيم الاستهلاك، وإعادة بناء منظومة الحقوق الجماعية في مقابل الحقوق الفردية، والتركيز على دور فكرة الثروة في تحديد الاستحقاقات السياسية والاقتصادية، وردها لفكرة المصلحة العامة، كل هذه مسارات للتفكير في تجديد التفكير بشأن العمران في الواقع الإسلامي، وتحولاته، ومستقبله.

إن تأسيس نظريات جديدة للعمران والمدن تحيي فقه المكان يصلح مدخلا لتدشين حركة لحق الأمة في تدبير عمرانها كمدخل لاستعادة مجالات إنسانيتها، وساحات رساليتها.

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٢٢)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب

لقد تكرر القول في الحلقات الآنفة حتى تقرر، أن كلمات الفصحى قد آضت بفضل لغة القرآن الكريم، والشعر البليغ، والترسل المبين، في نشأة بهية فريدة تري الناظرين دررا مكنونة في أعماق أمات تلك المصادر. فإذا شق علينا اليوم الاستمساك بها والعثور على فرائدها، فإن الكسل اللغوي الذي ابتلينا به لا ينفي وجودها، كما أن ادعاء هذا الفقد والفقر من دون الرجوع إلى العارفين الجلة الذين عجموا عود الفصحى، وأحيوا لها آثارا، يعد من الإجحاف بحق الفصحى التي قلدتها تلك المصادر قلائد البهاء والكمال، عندما انبسط أفق التفكير العربي وامتدت أفياؤه، فاستفادت الفصحى في التعبير عن المعاني الطارئة، واغتنى معجمها؛ لا تنقطع في حلبتها أنفاس العلماء والمفنين تبعا لانبساط مظاهر الحضارة العربية الإسلامية. فما بال كتابنا اليوم قد أخذوا بخناقها وضيقوا عليها منافسها؟! ولماذا يصر بعض شعرائنا وكثير من شويعرينا على دخول لجة الشعر من دون عوم ينجيهم من غمراته؟! وما السبب في أن كثيرا من المنشئين يقمشون كلماتهم المحطوبة التي رمت الفصاحة بالهجر والنسيان؛ فلا يلقون بالا لما ينشئون من كلام غث؛ ألفاظه فجة كَزَّة مخسولة شائنة المرأى، لا أثر فيها للتنوق الذي كان الأوائل حُرُصا على الانتفاع به لتكتمل الصنعة، وتأتي الكتابة على أحسن هيئة؟! ثم لماذا ظل وَكْدُ وسدم كثير من المتطفلين على الشأن الثقافي، التنافس في السبق إلى النشر الرقمي لما يكتبون، ولو على حساب رصانة البحث، وضبط الأفكار، وتوثيق المعلومات، والتثبت من نفعها وخدمتها للدين والدنيا؟! وإلى متى يتدارك هؤلاء أن بينهم وبين الفصاحة ما بين الضب والنون؛ عندما يتداولون ألفاظا ملهوجة مهلهلة تعوم في محيط من السوقية والعامية لا يبرحونها، وفي أثناء دورانهم حول تلك الألفاظ والموضوعات الخليعة يعيدون أنفسهم في صيغ مبتذلة مستنسخة يغني أولهم عن آخرهم؟! ثم لماذا استأسد بعض أبناء العروبة على الفصحى، وألقوا في طريقها الحبال والعصي لمنعها من دخول معترك الحياة العربية المعاصرة في أثناء ادعاءاتهم التي لم تثمرها نتيجة بحث رصين، ولم تولدها بنات أفكار العلماء الحذاقيين الذين بلغوا

النكيثة في المعرفة بأسرار اللغات؟!

لاشك أن من أراد من هؤلاء الأغتام إنصافا، كمن أراد من الأعمى إبصارا، لأن حجتهم داحضة، وآراءهم دبرية تقوم على أغاليط وأراجيف حان وقت كنسها من تفكير العرب، لأنها مجرد ادعاءات غايتها دفع الأمة إلى هاوية التشرذم والغثائية وفقدان الهوية، فلا يمكن أن نقبل من أحد بعد اليوم ادعاء أن العربية لغة الأربدة والمتون والدين والشعر وبعض العلوم الإنسانية، أما المجالات الأخر فدونها خرط القتاد. وآية ذلك أن نشاط العربية وكفاءتها يجب أن تستمده بالإضافة إلى الأصول التي تغذيها بالمدد الكافي من الآفاق الرحبة التي يجب أن ترتادها من خلال أخذ أبنائها بأسباب التقدم العلمي والتقني والحضاري، إذ كلما دخلت الفصحى غمار المعرفة العلمية في الجامعات والمعاهد والمعتملات ومراكز البحث، اغتنت وأخذت زخرفها وازينت، وأيقن أهلها أنها قادرة على الإيفاء بكل مطالب الحياة المعاصرة، من دون الخروج على الأصول اللغوية المقررة، أو الذهاب بها في التجديد طرائق قددا لا عهد للفصحى بها، وإنما عليها أن تنهج نهجا يولد أسماء واصطلاحات المعارف الجديدة على هدي من الأطوار التي سارت عليها، عندما بلغ العقل العربي آفاق المعارف المجتباة. إن مطارف الفصحى لا ينبغي أن نتركها للاستعمالات الشائنة التي مرقت من طاعة القواعد والقوانين التي تضمن للغة استمرارها، كما لا ينبغي أن نتركها تعيث فيها اللهجات العامية واللغات الأجنبية فسادا، وإنما يجب أن نعطي القوس باريها بالإكثار من الندوات العلمية والملتقيات الفكرية والمجمعات اللغوية والترجمات المفيدة، لأن عبقرية الفصحى لا تكتمل قدرتها وكفاءتها إلا إذا استفادت من شعرائها المفلقين، ومن خطبائها المصاقعة، ومن أطبائها النطاسيين، ومن علمائها الذابرين، ومن أساتيذها المبرزين، ومن صحافييها اللوذعيين، ومن حرفييها الماهرين، ومن مهندسيها الحاذقين، مستوعبة كل مناحي الحياة، ومشاركة في النهضة العلمية والتقنية كما شاركت في عهودها الآنفة، مع المحافظة على عبقريتها المستظلة بظلال القرآن الكريم، والسنة الطاهرة، والنثر البليغ، مأخوذين بسحرها الحلال وبقدرتها الاشتقاقية التي تغنينا عن الاستعارة والاقتراض السهل لسيل من الألفاظ من دون أن يصادف ذلك مصلحة ضرورية، لأن مقابله العروبي يوجد منا على طرف الثمام على شاكلة خرق الحيض التي يتم الترويج لها على الفضائيات العربية من المحيط إلى الخليج بالاسم الأجنبي «Always» مع أن اسمها العربي الفصيح هو «المئلاة» جاء في كتاب السيرة النبوية: «وأمرهم بتطهيره، وألا يقربوه دما ولا ميتة ولا مئلاة، وهي المحايض» (١).

جمع «مآلي». كما أن اصطلاح «Danone» يجب كنسه من الفضائيات العربية لأن اصطلاح «الشيراز» العربي أحسن منه أثاثا ورئيا. وقد أورد ابن النديم في أخبار الرياشي البصري المتوفى ٢٥٧هـ أنه يأخذ اللغة من حرشة الضباب وأكلة اليرابيع، بينما غيره يأخذها من أكلة الشوارز وباعة الكواميخ، الذين لان طبعهم. وقل الشيء ذاته بالنسبة إلى هذه الاصطلاحات الغربية التي هجرنا مقابلها العربي من دون سبب مثل: «الديكور» بدل «الزخرف»، و«الريبورتاج» بدل «التحقيق»، و«المونتاج» بدل «الإعداد»، و«الأجندة» بدل «المفكرة»، و«الأرشيف» بدل «الربيدة» وهلم على ذلك جرا وسحبا من النفائس والفرائد التي طال دثورها إلى أن رميت بالهجر والنسيان، كأنها لم يوجد مثلها في دنيا العرب.

أما إذا انتقلنا إلى دعاة اللهجات العامية الذين يحادون الفصحى، ويختلقون الأحاديث المرجمة عنها، فإن فؤاد العربي الصميم يشتعل كمدا وحسرة على انقلاب الموازين؛ حيث أضحت اللهجات تسطو على مجالات الفصحى، فأصبحت لدينا أنواع من الشعر مثل: الشعر الشعبي والشعر الحساني والشعر النبطي والزجل، وأصبحت المواسم والأسواق الأدبية تقام لها، ناهيك عن السخاء الذي يغمر به أصحابه، الأمر الذي دفع اللهجات إلى إحراز نصر مبين على الفصحى، ومن ثمة تسللت إلى الأسلوب العربي البليغ تراكيب لغوية خاطئة لم نسمع بمثلها في آبائنا الأولين. ومن المعلوم الذي لا يستراب فيه أن الخطأ تبديل ناكب عن سنن الفصاحة وعن قواعد أنظمتها النحوية والصرفية والمعجمية والدلالية، مثل عبارة: «قال في رأسه» الناكبة عن منطق الفصحى، إذ لو ألفت طباعنا لغة القرآن ورتعت نفوسنا وقلوبنا في رياضه الذفرة لقلنا كما قال تعالى في المناجاة: «قال في نفسه» بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ (المجادلة:٨). وغيرها من العبارات الملهوجة مثل قولهم: «لسنا بحاجة إلى» التي يجب أن نستبدل بها عبارة: «ليس بنا حاجة»، وعبارة: «تعرفت عليه» التي يجب التشطيب عليها لصالح عبارة: «تعرفته» وغيرها من العبارات التي بنيت على أركان غير وثيقة وعماد غير محكم، فأخطأت الفصاحة والبيان، فحق علينا أن نرميها في سفط السقط.

هذه ألفاظ وعبارات زادت ملوحتها، وأخرى قل ملحها، فاختل رصفها، وأرهقها الخطأ، وخانتها أسرار العبارة، وغاب عنها الحس اللغوي الذي يشم ولا يفرك، فكان عاقبة أمر اللاهجين بها خسرا، ولم يبق إلا كنسها من حظيرة الفصحى، بعد أن قام الشاهد القاطع على مروقها من طاعة القواعد والبيان العربيين. وكفى بهذه الجردة بيانا لقوم يعقلون فرادة هذا الاعتيام لجملة من الألفاظ القرآنية التي أسيء استعمالها من لدن المجتمع اللغوي العربي الكسول، فكان لزاما أن أنفي عنها خطل الاستعمال، كما تنفي النار خبث المعادن النفيسة. ويقيني أني لست سوى فرع من أيكة المحككين الذين لم يطفأ لهم نجم في أثناء الدفاع عن العربية الفصحى صافية رقراقة تجري بها الأقلام، وتسلس بها الألسنة سهوا رهوا.

الهوامش

١ – السيرة النبوية، أبو محمد عبدالملك بن هشام المعافري، المجلد الأول، ص ١٤، لجنة التحقيق بمؤسسة الهدى، دار التقوى للنشر والتوزيع.

كسر الحاجز

مياسة النخلاني
قاصة يمنية

كـــان
صباحا هـادئـا حين
أخـــذت سـمـر تجـتـاز الـشـوارع
المؤدية لمدرستها، عام فقط يفصلها عن
إنهاء دراستها الثانوية لتنتهي هذه الرحلات
الصباحية الهادئة، وقفت أمام حاجز أسمنتي
صلب، تحسسته بيديها، طيف ابتسامة مرةٍ
علقت على شفتيها، فما أشبهه بالحاجز الذيً
يضعه والدها بينه وبين أولاده وبناته، فرغم
أنه يشاركهم نفس البيت، لكن قلما يُحدث
وجوده أي أثر في شؤونهم العامة
والخاصة، لم يسألها

أو يسأل أحد إخوتها يوما عن أحوالهم، ولا كيف هي دراستهم، كيف يجتازون اختباراتهم، بل لا يكاد يدري في أي عام دراسي هم، للأسف اختزل الأبوة في توفير المأكل والملبس، غاضا الطرف عن احتياجاتهم المعنوية له ولقلبه كأب.

ألقت نظرة أخيرة على الحاجز وواصلت طريقها، حنان والدتها ووقوفها الدائم إلى جانبها وجانب إخوتها لم يكن كافيا لسد الفجوة الواسعة التي تفصل والدهم عنهم، لا يجتمع معهم سوى على طاولة الغداء أو العشاء، يلتزم الصمت في أغلب الأوقات، وإن تحدث فيوجه الحديث لزوجته وبكلمات قليلة، عدا ذلك إما أنه يتابع التلفاز، أو نائم أو في عمله. لا يشاركهم حياتهم وأنشطتهم كما يفعل الآباء مع أطفالهم «والدك عانى كثيرا في صغره، بعد وفاة والدته وحلول زوجة أبيه محلها ذاق هو وإخوته الأمرين على يديها، لدرجة أنه هرب من البيت صغيرا ولم يعد له إلا وقد أصبح شابا، الفترة التي قضاها متشردا أثرت على شخصيته وطباعه» الجملة التي تكررها والدتها عليها كلما حادثتها بالأمر، ربما تكون على حق، لابد أنه قاسى طويلا وهو يعيش حياة التشرد في شوارع مدينة أخرى.. يحمل في ذاكرته طيف أم غادرته باكرا وتركته لوالد انشغل عنه وسيدة لم تراع الله فيه.. لكن ما ذنبها هي لتتحمل تبعات حوادث مرت منذ سنوات طويلة «هو اليتم بعينه بل أشد قسوة» رددتها وهي تتجاوز آخر شارع يؤدي إلى المدرسة، بينما يعصر الألم قلبها دون رحمة، وقبل أن تبلغ الرصيف المقابل أخرجها من شرود أفكارها بوق سيارة مزعج، رمقت السائق بنظرات تائهة ثم واصلت طريقها دون أن تركز على الكلمات الغاضبة التي تفوه بها.

وفي الاستراحة جلست مع معلمتها التي أصبحت أكثر من أخت بالنسبة لها، تفضفض لها وتنفس عما يعتمل في قلبها «قد يكون والدك معذورا» قالتها المعلمة مواسية «ربما!» ردت هي دون اقتناع، فأي عذر هذا الذي يحرمها من والدها وهو موجود معها.

● هل حاولتِ أنتِ كسر الحاجز بينك وبينه؟

- لا.. لم أحاول.

- حاولي.. قد يكون هو أكثر حاجة لقربكم أنتم منه، ربما لو قاسيتِ الظروف التي عاشها في صغره، لكان منظورك للأمر من زاوية أخرى.. هو نفسه بحاجة إلى من يعيد له الإحساس بالحب والعائلة التي فقدها منذ زمن طويل، حاولي معه فربما محاولتك تغير في نفسه الكثير، وتساعده هو أيضا على كسر الحاجز الذي يختبئ خلفه طفل صغير خائف، أخذ منه القدر أمه وأخذت منه قسوة البشر أباه وبيته وشعوره بالأمان.

لم تجبها، قد تكون معلمتها على حق، لكن هل سيكون حقا بمقدورها كسر الحاجز الصلب الذي يفصلها عن والدها.. من يدري؟!

بدأت محاولاتها مساء ذات اليوم، كان جالسا كعادته في غرفة الجلوس يقلب في قنوات التلفاز، قررت أن تدخل إليه وتحاول فتح باب للحديث، ترددت كثيرا.. وفي كل مرة تقترب من الباب تبتعد مجددا، وأخيرا عادت إلى غرفتها يتخبط قلبها تحت وطأة مشاعر الخيبة، ماذا يمكن أن تقول له «كيف حالك يا أبي؟ الطقس اليوم جميل! هل من جديد على التلفاز؟» أم تقولها له صراحة «اشتقت لك ولقربك مني؟!» نعم هذا بالضبط ما تريد أن تقوله، لا تكف عن ترديد هذه الجملة في أعماقها كلما مر من أمامها، لكن ما إن تهم بترجمة الكلمات إلى لغة مسموعة حتى تخطئ الحروف طريق الخروج إلى شفتيها، فتلزم الصمت كما يفعل هو. لا تذكر آخر مرة تحدثت إليه، فهل تأتي اليوم بكل بساطة لتبوح له بكل اشتياقها وحاجتها له، دون أن يشجعها هو على قول ذلك؟! معلمتها لا تعرف كيف هو الوضع ولا مدى ابتعاده عنهم، لذا تقترح طرقا غير مجدية، على الأقل من وجهة نظرها. «ها.. كيف كانت محاولتك مع والدك؟» سألتها معلمتها صباح اليوم التالي «حاولت البارحة أن أدخل لأحدثه لكني لم أستطع» أجابتها بخجل «لا عليك استمري في المحاولة لأجلك ولأجله ولأجل إخوتك الصغار».

جهزت له الشاي عصر أحد الأيام، وضعته أمامه، غابت لحظات ثم عادت وهي تحمل كتبها، جلست بجانبه وعندما رآها تنوي الجلوس أزاح معطفه بعيدا ليفسح لها المكان، ثم انشغل كليا بمشاهدة الأخبار وكأنه في عالم آخر، كانت تقلب صفحات كتابها كمن يقرأ، لكن عقلها يعمل بتضارب باحثا عن كلمات أو حتى بضع حروف لتبدأ حديثا مّا معه، لكن كل حروفها اختفت وكأنها قد غاصت بين صفحات الكتاب الذي تمسك به.. انقضى الوقت سريعا ومن المسجد القريب علا صوت المؤذن مناديا لصلاة المغرب، حمل معطفه وغادر الغرفة بهدوء، ولاتزال عبارة «كيف حالك يا أبي؟» متحشرجة في حلقها! هل يعقل أن يكون الأمر بهذه الصعوبة، لملمت كتبها المبعثرة تبعثر أفكارها وغادرت هي أيضا، مقاومة رغبة بالبكاء ومشاعر تعصر قلبها بقسوة. يعانق البعض صور آبائهم الراحلين بكل مشاعر الشوق والاحتياج، ووالدها بجانبها تعجز عن التحدث إليه ببعض الجمل العادية.

أخذت تجتاز الشوارع إلى مدرستها صباح اليوم التالي، وقفت عند الحاجز الأسمنتي تتأمله، تعلم أن معلمتها ستسألها اليوم أيضا عن محاولتها لكسر الحاجز بينها وبين أبيها، ستخبرها بما حدث، لكن الأخيرة ستشجعها لمحاولة أخرى وستهز هي رأسها وتجيب بأنها ستحاول.

قراءة في الرواية الفائزة بالبوكر ٢٠١٤

«فرانكشتاين في بغداد» للروائي العراقي أحمد سعداوي

محمد أبو السعود الخياري
باحث وناقد مصري

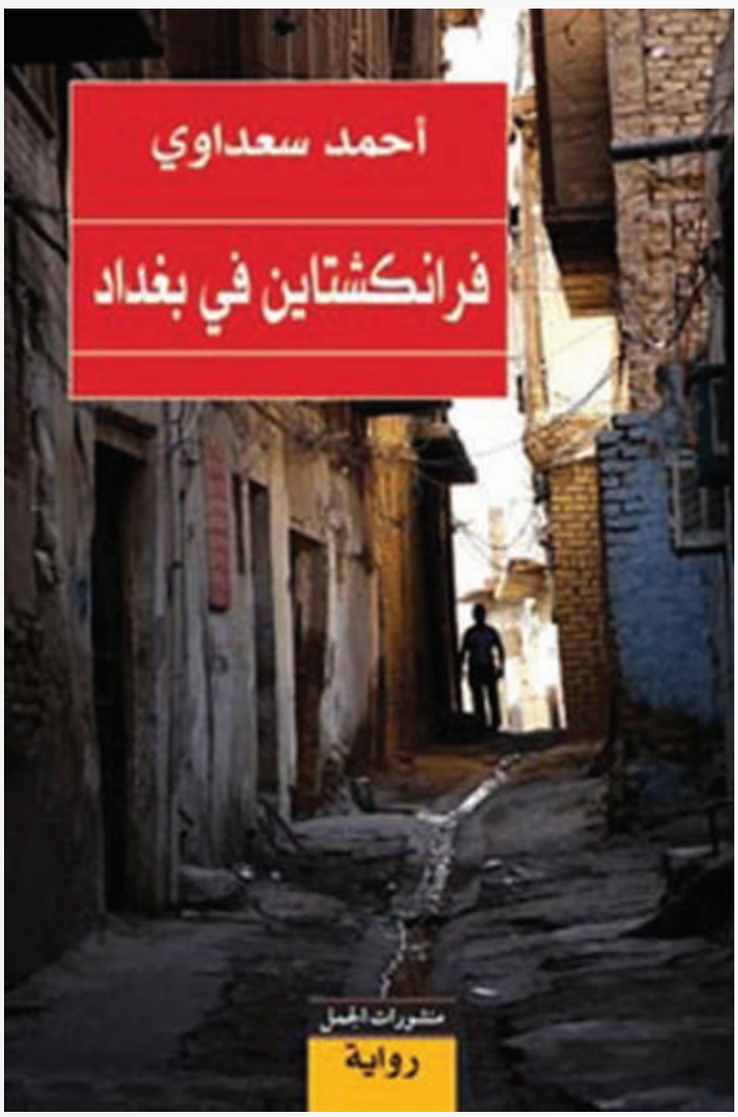

ذهبت جائزة البوكر العالمية للرواية العربية هذا العام إلى رواية «فرانكشتاين في بغداد» للروائي العراقي أحمد سعداوي. وقد جاء في حيثيات اختيار الرواية لحصد المركز الأول في الموسم الأكثر زحاما في تاريخ الجائزة (١٥٦ رواية من ١٨ دولة)، أن رواية سعداوي حملت عددا من سمات التجديد والإدهاش.

وأشار د. سعد البازعي رئيس لجنة التحكيم لهذا العام إلى هذه الحيثيات خلال الاحتفال بإعلان النتيجة مساء التاسع والعشرين من أبريل الماضي بقوله: «جرى اختيار «فرانكشتاين في بغداد» لعدة أسباب، منها مستوى الابتكار في البناء السردي، كما يتمثل في شخصية «الشسمه»، في الرواية أيضا عدة مستويات من السرد المتقن والمتعدد المصادر، وهي لهذا السبب وغيره تعد إضافة مهمة للمنجز الروائي العربي المعاصر».

فسيفساء الفاجعة

هادي العتاك هو بائع الأشياء القديمة، والذي يحرص على التجول في بغداد طول الوقت ليجمع الأشياء المستعملة؛ ليعيد بيعها بعد ذلك. هذه المهنة القائمة على بعث حياة الأشياء لتمارس دورها في الحياة من جديد، تتحول في الرواية إلى انعطافة مدهشة؛ حين يقرر بائع «الروبابيكيا» أن يعتزل جمع الأشياء

ويبدأ في جمع الأشلاء! هذه المهنة الأسطورية الخيالية الصادمة تبدو متسقة، وتكاد تكون ضرورة في واقع تصنعه الأسطورة، وشوارع تملؤها الجثث، وبيوت ترقد قلقة فوق قنابل موقوتة. عراق ٢٠٠٥ الذي يعيش فيه هادي العتاك لا يعيش فيه المرء حياته وصولا إلى الموت، بل يعيش جاهدا -فقط- ليفلت من القتل الذي يراه على الدوام قريبا منه كملابسه.

القيمة العليا واضحة في فكرة سعداوي، حيث يقوم العتاك بجمع أشلاء الجثث المتناثرة في بغداد -كيفما اتفق- ويحاول أن يصنع من هذه الفسيفساء البشرية كائنا جديدا يطارد قاتليه، بحيث تتحد هذه الأشلاء لتنتقم بشكل منتظم من كل من قتل النفس التي دفعت بتلك القطعة البشرية.

هذه الشخصية الجديدة «الأسطورية» تطلق عليها الرواية اسما من اللهجة المحلية العراقية يعني الإنسان غير معروف الاسم (الشسمه). ولا يخفى ما في هذه الأشلاء من رمز وإشارة بارعين إلى أطياف المجتمع العراقي المتنوعة والمتنافرة «فالشسمه مصنوع من بقايا أجساد لضحايا، أضيفت إليها روح ضحية، واسم ضحية أخرى.. إنه خلاصة ضحايا يطلبون الثأر لموتهم حتى يرتاحوا. وهو مخلوق للانتقام والثأر لهم».

واقعية سحرية وشخصيات أسطورية

تنتمي رواية سعداوي إلى اتجاه «الواقعية السحرية»، ذلك الاتجاه الذي جمع النقيضين (الوهم والحقيقة - الأسطورة والواقع)، وهو اتجاه أدبي بدأ في الفن التشكيلي وانتقل ليزدهر في فن الرواية، «ففي عام ١٩٢٥م استعمله الألماني فرانز روه في عنوان كتاب ناقش فيه بعض خصائص وتوجهات الرسم الألماني في مطلع القرن، ثم تواصل استعماله فيما بعد في حقل الفن التشكيلي بوجه خاص. وكان استعماله في ذلك الحقل للدلالة على نوع من الرسم القريب من السوريالية، حيث تكون الموضوعات المرسومة والأشياء قريبة في غرابتها من عوالم الحلم وما يخرج عن المألوف من رموز وأشكال».

ولعل النماذج البارزة جدا للواقعية السحرية في الأدب العالمي هي تلك التي يمثلها أدب أمريكا اللاتينية وروائيوها الكبار؛ مثل جابرييل جارسيا ماركيز، الذي رحل في أبريل الماضي عن سبعة وثمانين عاما، وروايته الذائعة «مائة عام من العزلة». والغريب هو اعتراف روائيي أمريكا الجنوبية بتأثرهم بالتراث الحكائي العربي، لاسيما قصص ألف ليلة وليلة، «فالواقعية السحرية حركة حديثة نشأت في أمريكا اللاتينية، وازدهرت لتلقى اهتماما واسعا في كل أنحاء العالم. وهذه الحركة لها جذور عندنا تأثر بها كتاب أمريكا اللاتينية أنفسهم واعترفوا بذلك».

رواية سعداوي نموذج جديد بديع للواقعية السحرية، بيد أن المدهش فيها أن السحر والغرائبية قد تحققا بشدة في الواقع قبل أن يصوغهما الخيال، وكانت استجابة الشخصية للتعاطي مع الواقع الخرافي، الذي بدا الوطن خلاله مثل رجل يسير في زحام ويتحاشى الاحتكاك بالناس؛ لأنه في الحقيقة يربط على بطنه حزاما ناسفا.

العجائبية مصدر الأمل وبوابة الخلاص

الرواية قدمت نماذج من الشخصيات العجيبة، تلك التي تبدو داخل المجتمع محتفظة بطقوس خاصة وسلوكيات مدهشة. فتتصدر الرواية تلك السيدة العجوز التي يظن الناس أنه بمجرد وجودها في مكان فإنها تبعد عن هذا المكان الكوارث، ولا يقترب منه التفجير.

يقين مهتز

هادي العتاك، مخترع «الشسمه»، الذي أفزع الجميع، صار ضحية تفجير بحي البتاويين، وحولت النيران وجهه إلى شكل بشع، ثم هرب من المستشفى وانقطعت أخباره، وبعد حين يحتفل الجميع بإعلان القبض على المجرم الذي بث الرعب في بغداد، وقتل أهلها وألقى بقطع أجسادهم في الشوارع.. و.. و.. و..، إنه هادي العتاك، ليس شكله، ولكن الصوت صوته. من صدق ومن لم يصدق احتفل بزوال الخوف في الشوارع وبكل أشكال الفرح، غير أن شبحا لرجل مجهول ظل يرقب هذه الاحتفالات من نافذة الفندق المهجور ويطالع السماء الغائمة.

«الشسمه» إذن مستمر، صار وحشا كاسرا، وقد بدأ نبيلا، قتل كل مساعديه، وسجن مبتكره بجريرته، صار قتل الناس -كل الناس- هو وسيلته الوحيدة ليبقى حيا.. فالأعضاء التي تتلف يعوضها من بشر ممن يقابلهم.

الخوف إذن مستمر، الخطر لا يزال طليقا. لكن الناس على استعداد لتصديق أي رسالة كذب ترسل إليهم أملا؛ لأنهم في ظمأ شديد إلى الفرحة.. أية فرحة.

حاولت الرواية إيقاف كل شيء في المشهد العراقي في منطقة اهتزاز اليقين، فلا شيء يمكن القطع به، ولا تصديقه بشكل كامل، حتى هذه الفكرة الخارقة للانتقام من المجرمين والمحتلين تحولت إلى عدو بالغ الخطورة وغير قابل للسيطرة عليه. وهو ما أجادت الرواية في تأكيده عبر أحداثها وشخصياتها على السواء. غير أن الرواية لم تكن في حاجة إلى العنوان غير الفني الذي جاء مباشرا يفتقد الفنية، وكأنه كان يصلح أكثر ليكون عنوانا لمقالة نقدية عن الرواية، فالرواية بحيويتها وسردها المتدفق تبدو غريبة مع عنوان تقليدي، كما ضاعفت الفقرات التي دبجها الكاتب قبيل بدء الرواية.

من خلال استشراف الأمن الاجتماعي:

قراءة في «مشروع رعاية أجيال الكويت»

التحرير

تقدم مستشار الهيئة العامة للعناية بطباعة ونشر القرآن الكريم والسنة النبوية وعلومها وكيل وزارة الأوقاف المساعد سابقا عبدالله محمد الشهاب، بمشروع فكري تحت عنوان «رعاية أجيال الكويت»، والذي جاء في ٨٢ صفحة من القطع المتوسط.

وخلاصة المشروع، كما ورد على لسان مقدمه، أن الكويت توفر العديد من المرافق العامة القادرة على رعاية الأجيال الكويتية على نسق وطني وأخلاقي مثمر، ومن هذه المرافق وزارات الأوقاف، التربية والتعليم والخارجية.. وغيرها. وكذا المؤسسات التوعوية القائمة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: الأمانة العامة للأوقاف، بيت الزكاة الكويتي، الهيئة العامة للقرآن والسنة، المركز العالمي للوسطية.. وغير ذلك من الهيئات والمراكز الحكومية والأهلية المستعدة لبذل ما تملك في سبيل إغناء الوطن بطاقات شبابية قادرة على البناء والتنمية والإصلاح، من خلال منظومة وطنية تحفظ أمن البلاد، وتساعد في رقي النظام العام.

والمطلوب تفعيل أدوار هذه المؤسسات والمرافق لتحقيق الرعاية اللازمة لشباب الوطن، وإعدادهم الإعداد الذي يستثمر طاقاتهم فيما يعود عليهم وعلى وطنهم بالخير والنفع، وذلك وفق آلية جديدة تحقق التكامل بين أدوار هذه المؤسسات والمرافق.

وتوقف المؤلف عند رأي الشرع في التطاول على الحاكم قائلا: حتى يكون الجيل الكويتي الشبابي والناشئ على قدر من المسؤولية وتحمل العبء، لابد له من أن يحيط علما في البداية بأنه قد علم بالضرورة في الإسلام أنه لا دين إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمامة، يقول الحسن البصري -رحمه الله تعالى- في ولاة الأمور: «هم يلون من أمورنا خمسا: الجمعة، والجماعة، والعيد، والثغور، والحدود، والله لا يستقيم الدين إلا بهم، وإن جاروا وظلموا، والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون».

وقد كان العلماء يقولون: إذا استقامت لكم أمور السلطان، فأكثروا حمد الله تعالى وشكره، وإن جاءكم منه ما تكرهون، وجهوه إلى ما تستوجبونه بذنوبكم وتستحقونه بآثامكم، وأقيموا عذر السلطان، لانتشار الأمور عليه، وكثرة ما يكابده من ضبط جوانب المملكة، واستئلاف الأعداء، وإرضاء الأولياء، وقلة الناصح وكثرة التدليس والطمع.

وتحت عنوان «كيف تنشئ جيل الصلاح والإصلاح؟» يستطرد الشهاب قائلا: كثر الحديث في السنوات القليلة الماضية عن خطط الإصلاح وبرامج التنمية في العالم العربي والإسلامي، ومهما كانت الأسباب الكامنة وراء ذلك، فإن بعضا من متعلقات هذه الخطط لم يتم الحديث عنه، وإن حصل فبحديث خافت غير مسموع، إنه الحديث عن المصلحين أو جيل الإصلاح الذي سوف ينفذ هذه الخطط، وينقذ هذه البلدان والأوطان من رواسب الفساد الإداري والمالي والظلم السياسي والاجتماعي والتنافس القبلي.

ويتساءل الشهاب: ما الجيل الكويتي المطلوب؟ ويجيب من خلال أوراق مشروعه: جيل الإصلاح المنشود الذي نرنو إليه في بلدنا الكويت هو جيل يؤمن بربه أولا، لأن من لم يخف الخالق، وهو قاهر فوقه، لن يخاف المخلوق وهو قادر عليه. وهو جيل يحب وطنه، ويخلص لشعبه وقيادته، ويحنو على الضعيف، ويرحم المسكين، ويأخذ بيد الحائر التائه، ويعطي مثالا صادقا في البذل والعطاء، فيبتعد عن طرق الباطل، وينأى عن ركب الغواة الفاسدين المفسدين.. جيل يرفض الرشوة، ويلعن آخذها ومعطيها والساعي بينهما.. إنه جيل يؤمن بوطن للجميع، من شرقه لغربه، ومن شماله لجنوبه.. وطن يتآخى فيه الجميع، بدوا وحضرا، مواطنين ومقيمين.

ثم يعاود الشهاب الطرح: فماذا قدمنا لهذا الوطن الغالي؟ وهل ما صنعناه فعلا من أجل الكويت يرقى إلى مستوى عطائها السخي، أم إن الأمر أقل من ذلك؟ فيقول: إن الوقوف على إجابات هذه الأسئلة هو ما سيقودنا إلى بعض الشواهد الحية، التي يبدو فيها بعضهم على درجة من الجحود والعصيان لهذا الوطن على الرغم من نعمائه وأفضاله عليهم.

لكن ماذا عن أهمية الشعور بالانتماء الوطني في القضاء على الفساد؟ يقول الشهاب: إن الفساد لم يعد محصورا في مكان أو زمان، أو ممارسا من فئة معينة من الناس دون غيرها، أو خاصا بسلعة أو خدمة أو هيئة أو مؤسسة، فلقد كاد أن يكون ظاهرة مجتمعية ومؤسسية

تنذر بالكثير من الكوارث، سواء على المستوى الاقتصادي أو الاجتماعي أو التعليمي. وصدق الله الحكيم القائل: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ (الروم:٤١). ووصل إلى حد إفساد العقول، بعد أن أفسد الصحة والبطون.

وسائل إصلاح جيل الشباب

ويتحدث الشهاب عن وسائل إصلاح جيل الشباب فيقول: لاشك أن وسائل الإصلاح لا يمكن حصرها بعدد ولا بأسلوب، إذ لكل مكان وزمان الوسيلة التي تناسبهما، ولن تعدم الكويت من عقول شبابها إيجاد الوسائل والحلول التي يكتب لها به الإصلاح والتوفيق بإذن الله تعالى، ومنها المساجد فلها دور أساسي هو خدمة المجتمع، وذلك بالحفاظ على أمنه وقيمه وأخلاقه، ولا ينبغي أن يكون هذا الدور مقصورا على الصلاة فحسب، بل يجب أن يظل مع ذلك مدرسة لتربية النشء، وتهذيب أخلاقهم. وإذا كان المنزل يغرس في نفوس النشء الفضائل والآداب الإسلامية منذ نعومة أظفارهم، فإن المسجد يتلقى هذه الأجيال فيصقلها بالعبادة والخشوع لله والتدبر والتفكر في ملكوته. وإذا كان المنزل يجمع أفراد الأسرة الواحدة تحت سقف واحد، فإن المسجد يفعل ذلك عندما يجمع المجتمع تحت سقفه كأسرة واحدة، يتعلم فيه المسلم كيف يتفقد أخاه إذا غاب عن المسجد، فيعوده إذا كان مريضا، ويعينه إذا وجده محتاجا، وبذلك تسود المجتمع روح التواصل والتواد والتعارف، وينمو التآلف والعلاقات الطيبة بين أفراد المجتمع، فالمسجد بهذا المفهوم يمثل محور الوحدة بين المسلمين، ويجب أن يكون لعموم المسلمين، لا لأتباع مذهب فقهي معين، ولا فرقة معينة، حيث لا يصلح في المنطق الإسلامي أن يستأثر أي شخص أو جهة بمساجد الله تعالى، وإنما هي لله وحده، يعبده فيها جميع المسلمين، فالمسجد منذ عهد الرسول ﷺ كان الموجه لحياة المسلمين، فكان المدرسة والجامعة، وكان المنارة التي يسترشد بها المسلمون في حياتهم، ومنه يستمدون مقومات دينهم، ومعرفة أصوله ومبادئه. وإذا كنا لا نستطيع العيش من دون غذاء، فنحن كذلك لا نحيا بلا أمن. ومن هنا يأتي الدور الذي يؤديه المسجد لتحقيق ما نحن بحاجة إليه، فيقدم لنا الغذاء الروحي، وننعم بالحياة في جو من الأمن الفردي والجماعي.

ويضيف: كذلك أدت وسائط الاتصال الحديث ووسائله بالفرد العربي عموما، والفرد الكويتي خصوصا، إلى أن يعيش في بيئة جديدة، تزخر بمتغيرات جديدة تختلف عما عاشه الأجداد والآباء في الماضي، سواء في العادات والتقاليد وأنماط المعيشة، أو في طرق التربية والحوار وغيرها من السلوكيات الجديدة التي جاءت بها هذه الوسائط الحديثة.

ومن الوسائل أيضا استغلال الدور الريادي لوزارة التربية حتى يكتمل البناء في دور الحكومة في العناية بهذا الجيل الكويتي منذ نعومة أظفارهم، وحتى يصلوا إلى المرحلة المهمة من حياتهم الدراسية الأخيرة، التي تتمثل في الحياة الجامعية، فالدولة تحتاج إلى تجييش جميع الطاقات المتوافرة لديها لهذه الوزارة التي تعتني بهذا الجيل الشبابي منذ مرحلة الطفولة في رياض الأطفال ومرورا بجميع المراحل: الابتدائية والمتوسطة والثانوية.

ويؤكد الشهاب أنه ينبغي الحرص على استكمال جميع وسائل التعليم الحديث واستثمارها في عملية التعليم لجعل الدراسة أسهل، وجعل التعليم يواكب التطور في جميع دول العالم.

بالإضافة إلى توفير وسائل المراقبة من كاميرات وغيرها في المدارس، لخلق جو من الاطمئنان والأمان والراحة لجميع الطلبة، وإشعارهم بأن كل شيء مسجل ومراقب، وأنهم في مؤسسة تعليم متكاملة.

أما فيما يتعلق بالتعليم الخاص فنحن في حاجة إلى إعادة هيكلة هذا القطاع المهم الذي يحتاج إلى رعاية خاصة لتواكب مخرجاته أهداف التعليم في الدولة.

أما وزارة الإعلام فعليها -من وجهة نظر الشهاب- جهود كبيرة وجبارة، تستطيع من خلالها، بالتعاون مع وزارات الدولة الأخرى، وضع خطة إعلامية ثقافية تبين مدى خطورة المواقف التي يتعرض لها البلد، ويكون هذا من خلال برامج دورية هادفة تستوعب طاقات الشباب وتبارك جهودهم.

خطوات لحماية قيم المجتمع

- تعليم الأبناء المكثف لكيفية استخدام وسائط الاتصال والمعرفة الحديثة، وعدم ترك مجال للجهل بأي منها.
- إنشاء مؤسسات مجتمع مدني ضاغطة (أسرية، نسائية، شبابية،... إلخ)، تحاكم أداء المؤسسات المحلية والعربية وموزعي خدمات الاتصال الحديثة.
- تحديد نسبة المواد الأجنبية في وسائلنا الإعلامية. ولا يعني ذلك المقاطعة الكاملة لكل ما هو أجنبي، بل اختيار المواد المناسبة التي لا تتعارض مع قيمنا ومبادئنا.
- نشر ثقافة النقد والحوار لدى الأسرة من أجل القدرة على محاكمة الأمور وتمحيصها، ورفض التلقي السهل والتسليم السطحي بالأمور للحد من التأثير الضار لمضامين الرسائل الإعلامية السلبية.
- التأكيد على دور الأسرة التربوي، بحيث تبقى الأسرة هي الحاضنة الأولى لقيم الأفراد والمجتمع وثقافتهم.
- التوعية الجنسية السليمة، فيقوم الآباء بتوجيه أبنائهم -وبخاصة المراهقون والشباب- نحو التمسك بالقيم الدينية المستمدة من المبادئ الإسلامية.

رئيس منظمة العلاقات العامة بجمعية ماس الأمريكية الجمال في زيارة لـ «الوعي الإسلامي»:

هدفنا إعداد سفراء سلام وجسور المعرفة

حاوره : علاء عبدالفتاح

الجمعية الإسلامية الأمريكية (ماس) جمعية أهلية أُسست عام ١٩٩٣م في الولايات المتحدة، وتعد من أنشط الجمعيات ذات الفعاليات التي تخدم الجالية الإسلامية هناك حتى الآن.

«الوعي الإسلامي» التقت الدكتور أسامة الجمال رئيس منظمة العلاقات العامة والاتصال المدني بها، على هامش زيارته مؤخرا لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، لتتعرف من خلاله على أحوال الجالية المسلمة هناك وعلى دور الجمعية التي يمثلها، ومدى مساهماتها في حل مشاكل أبناء الجالية، وإبراز الصورة المشرقة للمسلم التي تناقض الصورة التي تصدرها غالبية أجهزة الإعلام الغربية عن الإنسان المسلم بشكل عام والمهاجر بشكل خاص.

في البداية، أوضح د. الجمال أن الجمعية الإسلامية الأمريكية وإن كانت قد ظهرت رسميا سنة ١٩٩٣، لكنها على أرض الواقع بدأت نشاطها منذ الخمسينيات مع الرعيل الأول من المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

سألناه عن أبرز أهداف الجمعية، فقال «من أبرز أهداف المنظمة المحافظة على هوية الفرد المسلم وعقيدته وثقافته وتقاليده، ثم إعداده كي يكون مواطنا مساهما إيجابيا مع المجتمع الذي نعيش فيه». وأضاف الجمال: «نأمل أن يتخرج على أيدينا رسل السلام ورسل دعوة الحق، وأن يكونوا جسور التعاون وجسور المعرفة الحقيقية عن الإسلام والمسلمين، كما فعل أجدادنا في السابق في إندونيسيا وماليزيا على سبيل المثال».

● هل تعتنون بالفرد المسلم المهاجر من عمر معين أم تعتنون بكل مسلم ومن كل الجنسيات؟

– يهمنا الفرد المسلم من كل الأعمار داخل المجتمع الإسلامي الأمريكي، فقد أصبحت لنا ثقافة مميزة إذا صح التعبير، لأننا نأتي من دول عربية مختلفة في لهجاتها ومختلفة في عاداتها، فندخل في بوتقة جديدة داخل المجتمع الأمريكي المسلم، حيث تجد الهنود والباكستانيين والأتراك والإندونيسيين والأفارقة والفلسطينيين واللبنانيين والسوريين والمصريين والليبيين.. وغيرهم، في تجمع فريد وتنوع حميد.. يجمعنا الإسلام في مكان واحد. لذلك، أصبح اهتمامنا بقضية الواجهة الحقيقية للإسلام كبيرا، فقد يسمع الأمريكي عن المسلمين أو عن العرب من خلال التليفزيون أو من خلال أفلام أو أخبار، لكنه سيأخذ الفكرة الحقيقية منا. ولذلك، نعتني بهوية هذا المسلم المنخرط في الحياة الأمريكية، وفي الوقت نفسه نشعر بأننا أمريكيون، ولا نستطيع أن ننفي أو نتجاهل هذه الحقيقة، فأولادنا ولدوا ونشأوا وترعرعوا واستنشقوا هواء تلك البلاد، فأصبح لنا ارتباط شديد بها، وأصبحنا جزءا منها، مع الحفاظ على هويتنا وما يعبر عن حقيقة قيمنا وعقيدتنا وأفكارنا.

● كيف وفقتم ما بين وجودكم كغرباء أو مقيمين في أرض غريبة وبين السلطات هناك؟

– مثلما نشعر بأن الإعلام الغربي وبعض المنظمات أو الشخصيات أو الهيئات تنقل صورة خاطئة لمجتمعاتنا وحقيقة معتقدنا، هنالك أيضا من العرب من يأخذ الصور مشوشة عن حقيقة أمريكا والشعب الأمريكي وما يدور هناك، وأمريكا ليست كما يظن البعض سوءا بها، كما أن العرب ليسوا كما يظن بعض الأمريكيين والغربيين..

نحن تعايشنا مع هذا الشعب ومع حكومته بكل جنسياتنا، وعرفناهم حق المعرفة.. نعم، هناك بعض المتعصبين والمتطرفين والحاقدين ومن لهم أجندات معينة، ولكن هناك أيضا، وهم كثيرون، من يرحب ويرغب في التعرف علينا وعلى الإسلام ويحترم العادات والتقاليد، بل أحب أن أقول إني وجدت من الأمريكيين جيراني وأصدقائي في العمل من يحترم عاداتي وتقاليدي والتزامي الإسلامي أكثر مما وجدته من بعض الناس في بلادنا العربية مهد الإسلام والمسلمين! وعلى سبيل المثال: إذا قلنا لهم إننا في مجالسنا نفصل رجالنا عن نسائنا، فإنهم يحترمون ذلك، بينما كنا نواجه معارضة وسخرية في بلادنا بأننا نعيش في عالم الجاهلية إذا فصلنا بين الرجال والنساء في المجالس. وهم يحترمون عادتنا فيخلعون الأحذية إذا زارونا في بيوتنا، وإذا أرادوا دخول مساجدنا تسأل نساؤهم: هل يجب أن نلبس عباءات أو نتحجب؟

وعلاقتنا كجمعية إسلامية مع الحكومة علاقة فيها الكثير من الاحترام، حتى إذا كنا في اجتماع حكومي مشترك ودخل وقت الصلاة وطلبنا مكانا للصلاة احترموا هذا الأمر وهيأوا لنا مكانا، ثم نعود ونكمل الاجتماع. وأذكر أننا كنا في قاعة الكونجرس وحان وقت الصلاة فوفروا لنا المكان وصلينا.

● هل يطمئن الفرد المسلم الذي يهاجر إلى أمريكا أو يسافر إلى أمريكا إلى أنه سيجد منظمة تحتضنه؟

– الجمعية الإسلامية الأمريكية منظمة مفتوحة لكل من أحب أن يعمل بها وينتظم فيها، وليس لها أي معايير صعبة التحقيق أو المنال، وفيها من الناس من يحبون أن يعملوا ويتعلموا ويوظفوا وقتهم. وبالمناسبة الشعب الأمريكي من أكثر شعوب العالم في صرف الوقت في التطوع، والعمل التطوعي هو جزء من حياة الشعب الأمريكي، ولا نجد مثله في العالم العربي، وهذا ما يعطي قوة للتفاعل المدني مع الحكومة ومع المشرعين ومع القيادات السياسية.

● كونك رئيسا لمنظمة العلاقات العامة والاتصال المدني بالجمعية ما هي نشاطاتكم؟

– عندما يتخرج أو ينضج الأخ في الجمعية الإسلامية تبدأ مرحلة العمل المباشر مع المجتمع والتفاعل معه، فنحن في هذه المنظمة نتعاون مع منظمات المجتمع المدني الأمريكية والكنائس –وعلى فكرة حتى الكنائس مثل المساجد عندنا هناك أيضا من المتطوعين فيها الذين ينطلقون لخدمة المصلحة العامة من منطلق عقائدي– فيما هو مهم للمجتمع الأمريكي بصفة عامة، ومنها مثلا: مكافحة العنف المسلح في المدارس وفي الأسواق وفي الجامعات وفي الشوارع وعند مراكز البريد، فنقوم بالضغط على المشرعين وعلى ممثلي الشعب كي يتخذوا قوانين أشد صرامة عند إعطاء رخص السلاح للمواطن العادي، لأن أكثر الحالات من ناس وجدوا وسائل سهلة للحصول على السلاح، وقد أخذنا مواقف أكثر من ذلك، فطلبنا من الحكومة الفيدرالية والحكومات المحلية التي تشتري السلاح من وكلاء أو مصانع السلاح أن يستخدموا القوة الشرائية لهم كي يلزموا زبائنهم بالقوانين.

● كم عدد المنتمين إلى الجمعية الإسلامية؟

– بفضل الله سبحانه وتعالى لنا أكثر من خمسين فرعا في أمريكا، وكل ولاياتها تقريبا لنا فيها مساجد ومراكز للشباب ودور تحفيظ القرآن ومؤسسات خدماتية، ونكون أحيانا من ضمن لجان أو مجالس إدارة المساجد إذا لم نكن نحن المالكين لها.

مشاريعنا كثيرة لكن نقص التمويل يهدد ببطء العمل فيها

وبفضل الله بسبب التفاني ووسطية التعامل والفهم لدى الزملاء شعر الناس بقيمة وفعالية المنظمة في خدمتهم، والعدد كبير والحمد لله.

● هل اختفى الأثر الذي أحدثه ١١ سبتمبر أم ما زال الناس ينظرون إلى المسلمين في أمريكا نظرة توجس؟

– بقدر ما كانت حادثة ١١ سبتمبر شديدة الوطأة على المسلمين في أمريكا، بل على المسلمين في العالم كله، فإن الله سبحانه جعل الجالية الإسلامية في أمريكا تخرج من القوقعة التي حبست نفسها فيها قبل ١١ سبتمبر. لقد كان من ينادي بالتواصل مع المجتمع منبوذا، وهذا قصور في فهم الواقع، فكثير من المسلمين الذين كانوا يأتون إلى أمريكا كانوا ينأون بأنفسهم عن التفاعل مع المجتمع (من العمل إلى البيت ومن البيت إلى العمل)، وليس لديهم أي علاقة بالمجتمع الذي يعيشون فيه! والمطالبة بالتفاعل مع الأديان الأخرى والمجتمع كان ينظر إليها على أنها دعوات ليبرالية متحررة إلى أن جاءت أحداث ١١ سبتمبر. ونحن بالطبع ننكر الاعتداء على الآمنين، وننكر التطرف والعنف، فهي أمور ليست من ديننا وليست من معتقداتنا ولا من ثقافتنا، بل لا نصدق بأن مسلمين قاموا بهذا العمل. وهنا أصبح للمهاجرين المسلمين وعي بأنه لابد من التفاعل مع المجتمع، وكأن الله سبحانه وتعالى يدفعنا دفعا لنتفاعل مع المجتمعات الأخرى، فهو سبحانه وتعالى جعلنا شهداء على الناس، ولا يمكن أن تكون الشهادة على الناس وأنت في بيتك منعزل عنهم لا تخبرهم بدينك. إن حلاوة هذا الدين تظهر أيضا عندما يعلم الناس به حقيقة وعن قرب، فيقبلون عليه. ومن خلال معاملة المسلم لجاره أو زميله في العمل أو المستشفى الذي يعمل فيه أو المصنع الذي يشتغل فيه أو الجامعة التي يدرس فيها، عرف كثير من الأمريكيين حقيقة الإسلام السمحة.

لقد أصبح لنا بعد ١١ سبتمبر الكثير من المعلمين المسلمين يدرسون في المدارس الأمريكية الرسمية التابعة للحكومة، وهذه نقلة جديدة في تفاعل المسلمين مع المجتمع الأمريكي. وما زلنا ندرس في الجامعات، وأصبح لنا الآن عناصر شرطة في أمريكا، بل هناك جمعية للشرطة العرب وجمعية للشرطة المسلمين، وهناك من يعمل في وزارة الخارجية، وهناك من يعمل في وزارة الأمن القومي، وهناك من يعمل في وزارة الدفاع، وهناك أفراد مسلمون في الجيش.

أحداث ١١ سبتمبر أجبرت المسلمين في أمريكا على الانخراط في المجتمع ليظهروا حقيقة الدين السمحة

● لكن كيف تقبل المجتمع الأمريكي هذا؟

– هناك نقلة للمسلمين في أمريكا لعدة عوامل، العامل الأول هو تكاثر المسلمين، فنحن كنا من الرعيل الأول عندما جئنا صغارا، وكثيرون ولدوا في أمريكا والآن أصبحوا شبابا وشابات يسعون في الحياة فيدخلون في كل مجالاتها من أعمال ووظائف، بل تطلب الحكومة الأمريكية في مؤسساتها منا أن نكون جزءا من هذا المجتمع لشيء بسيط جدا هو أن هذا حقنا فهذه بلدنا، وكما أي مواطن يحب أن يلتحق بوزارة خارجية بلده أو وزارة داخلية بلده أو وزارة كذا.. أيضا أولادنا أمريكان ومن حقهم أن يلتحقوا بمؤسسات بلدهم، وإذا لم يفعلوا فهم مقصرون في مشاركتهم في بناء وطنهم. ولذلك، نهتم في منظمة الجمعية الإسلامية الأمريكية ببناء الفرد، لأنه إذا أحسن الفهم الوسطي غير المتزمت وغير المتطرف فسوف يقدم قدوة حسنة.

● أحد الشعراء العرب الكبار، وهو محمود درويش، وصف أمريكا بأنها «الطاعون، وكثير من المسلمين، ربما الذين لا يعرفون أمريكا جيدا، يناصبونها العداء ويطلقون عليها الشيطان الأكبر.. فماذا تقول أنت عن أمريكا وقد عشت فيها؟

– أولا لا يمكن لأي دولة في العالم أن تفرض على دولة أو شعوب أخرى سياسة ما إن لم تكن هذه الدولة وهذه الشعوب قابلة بهذه السياسة، سواء لضعف أو قابلية للسيطرة عليها. ولذلك، لا يكون السبب في الطرف الأول دوما. وسبق أن أكد مالك بن نبي (المفكر الجزائري وأحد رواد النهضة الفكرية الإسلامية في القرن العشرين) أنه إذا لم تكن عقولنا قابلة للاستعمار فلا يمكن أن يستعمرنا المستعمر، هذه قضية. أما القضية الثانية فلا شك في أن أمريكا تنظر إلى مصالحها باعتبارها دولة عظمى، وكل دولة عظمى تسعى للسيطرة، وكذلك كانت الدولة الإسلامية عندما كانت في أوج قوتها.. كانت تخرج إلى دول أخرى –مع فارق الدافع المشروع بالطبع. وأمريكا تنظر إلى مصالحها، فإذا رأت الآخر قابلا وراضيا ومستعدا فلن تتأخر عن الاستفادة منه. وفي أمريكا مؤسسات تم التأثير عليها بنجاح من دون شك، والكل يعلم ما يفعله اللوبي الصهيوني، لأنه تفاعل مع المجتمع وانخرط في المجتمع واعتبر نفسه أمريكيا ودخل في كل مجالات الحياة الأمريكية، وهنا شعر بأن له الحق في إبداء رأيه والتأثير في سياسة بلده، ومن يجتهد طلبا للعلا فعليه

أن يسهر الليالي.

● ماذا عن الصعوبات التي تواجهها هذه المنظمة؟ هل هناك تضييق؟ هل هناك نقص في الدعم المادي؟

– عملنا يتطلب مصادر مادية كبيرة، فأمريكا كما تعلم قارة وولايات متعددة، والأنشطة التي نقوم بها تتطلب تمويلا كبيرا، وما من شك في أن الجالية المسلمة تنفق في سبيل الله وهذا من عوامل نجاحها، ومساجدنا ومراكز تحفيظ القرآن ومراكز الشباب من تبرعات المسلمين، ولم يأتنا دعم من الخارج، ومعظم عملنا يقوم على متطوعين، ولكن لكبر العمل وأهميته لا نستطيع أن نستمر في بعض أعمال هذه المنظمة، فأمريكا بلد يهتم بالإتقان ولابد أن تماشي العصر والمجتمع الذي أنت فيه. وبينما لدينا كثرة مشاريع نقوم بها، هناك محدودية في مصادر التمويل، وهناك الكثير من الكوارث في العالم العربي والإسلامي، ومسلمو أمريكا لا يقصرون أبدا في دعم هذه الدول وهذه الشعوب، مثل الصومال والبوسنة والهرسك وأفغانستان وباكستان وإندونيسيا وماليزيا، فالعبء كبير، ولكن الله سبحانه وتعالى يبارك حتى في هذا الجزء القليل من التمويل، نسأل الله أن يشرح قلوب المسلمين في كل أنحاء العالم لدعم هذه الأنشطة في أمريكا، لأننا نعتقد أنها ستبقى ممثلة للدولة العظمى في العالم إلى مستقبل منظور. ولذلك، مهم أن يكون العمل الإسلامي فيها قويا وعلى مستوى الدولة العظمى، وهذا سيؤدي –إن شاء الله– لتحسين سياستها الخارجية التي نسعى إليها وإلى تحسين العلاقة بين أمريكا والعالم العربي والإسلامي.

نادر النوري في ذمة الله

التحرير

أصدرت جمعية عبدالله النوري الخيرية نعيا لوفاة الداعية نادر عبدالعزيز النوري «فارس الدعوة الخيرية»، الذي انتقل إلى رحمة الله تعالى عن عمر ناهز ٥٩ عاما، قضاها في الاهتمام بتأهيل الدعاة إلى الله، وقيادة المنظمات والجمعيات الخيرية لأكثر من ٢٩٠٠ جهة في أكثر من ٦٠ دولة زارها. كان حافظا عالما عاملا، بذل كل وقته في سبيل الله، حتى وهو في فراش المرض، رغم المتاعب التي سببها له مرض السرطان منذ عام ٢٠٠٨ حتى وافته المنية الخميس ١٦ أبريل الماضي.

وقال أمين سر الجمعية جمال النوري: «ننعى إلى الأمة الإسلامية أحد أعلام العصر، والذي جال الأرض من اجل عمل الخير ونشره، حيث كسب ثقة الناس والمؤسسات والدول، وتعرف على كثير من قيادات ومسؤولي الجهات الخيرية في الكويت وخارجها، بل كان أحد أهم أسباب إعداد وتشجيع الكثير منهم، حيث أسس وأشرف على تأهيل أكثر من خمسة آلاف طالب من طلبة البعوث الوافدين لجامعة الكويت، وكليات الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب، والمعهد الديني، من خلال تأهيل الطلاب عبر أنشطة ثقافية وتوعوية وتدريبية بالتعاون مع إدارة الجامعة والتطبيقي والمعهد الديني، خصوصا في سكن الطلبة في «لجنة البعوث الطلابية» منذ عام ١٩٨٤ والتي إلى يومنا هذا مستمرة في رسالتها».

وتابع: «لقد استثمر –رحمه الله– دور وزارة الأوقاف الفاعل عندما كان يشغل منصب مدير إدارة الثقافة الإسلامية في دعم وكسب العلاقات مع العديد من الشخصيات الإسلامية. وبأسلوبه وفهمه الواسع وهمه لخدمة الإسلام والمسلمين في مختلف البلدان، أدار –رحمه الله تعالى– جمعية الشيخ عبدالله النوري الخيرية منذ تأسيسها، حيث شغل منصب أمينها العام، وتولى منصب رئيس مجلس الإدارة عام ٢٠٠٢».

وأكد أن الشيخ النوري –رحمه الله– كان مدرسة شاملة في طرحه ومنهجه وفهمه وعلاقاته التي امتاز بها بشهادات الكثيرين، وذلك بانتهاجه منهج الاعتدال والموعظة الحسنة والحكمة التي عززت الثقة به وبعمله.

نسأل الله عزوجل أن يتغمده برحمته، ويسكنه فسيح جناته في الفردوس الأعلى مع الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

ما يطلبه المراهقون

د. آندي حجازي
أستاذه جامعية وكاتبة صحفية

عندما التقيت مع إحدى رفيقاتي التي لم أشاهدها منذ زمن، تبادلنا أطراف الحوار والأخبار والآراء الشخصية، وكان مما دار بيننا شكواها من سلوكات ابنها ذي الاثني عشر ربيعًا، حيث يكثر النزاعات مع إخوته، ويطيل الغياب خارج البيت، ويقص شعره بقصات غريبة غير محببة، وكثير الصرف للنقود والطلب لها، وعلاماته المدرسية متذبذبة بين التقدم والتراجع، وأغراضه دومًا مبعثرة، وينزعج سريعا لمجرد تنبيهه لذلك.. فتبادلنا النقاش وأوضحت لها أن ما ذكرته هو من سمات المراهقين، وهي فترة طبيعية يمر بها ابنها، حيث ينتقل من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرشد، وهذا الانتقال يتضمن تغيرات فسيولوجية جسدية سريعة واضحة كتغير في صوته وحجم جسده وشعره.. وتغيرات نفسية واجتماعية وأخلاقية وفي جميع جوانب النمو.. والتي تنعكس بشكل مباشر على سلوكاته وعلاقاته مع من حوله، فمثلًا تلاحظ أن المراهق يعيش صراعات نفسية وتقلبات مزاجية كثيرة، فأحيانًا تراه سعيدًا وأحيانا كئيبًا، وأحيانا يتصرف كشخص اجتماعي، وأحيانًا كشخص منعزل منطوٍ على نفسه مكتئب لا يرغب برؤية أحد، بل يدخل في عالم أحلام اليقظة الخيالية، وأحيانًا يسلك كالكبار في رأيه أو حواره، وأحيانًا كالصغار تمامًا يتنازع على لعبة بيد إخوته! الأمر الذي قد يثير عجب والديه، إذ هل يتعاملا معه كشخص كبير أم كطفل مازال ينمو؟!

وأوضحت لرفيقتي أن الكثير من الباحثين والدراسين لنمو الإنسان؛ يرون أن في هذه المرحلة تزداد حدة الانفعالات لدى المراهق، فالبعض يصفها بمرحلة العاصفة والتوتر، لأنها تشبه العاصفة في قوتها وسرعتها وعواقبها وكثرة مشاكلها، فعلينا بالصبر والمداراة.. كما يزداد اهتمام المراهق بشكله ومظهره وصورته أمام الآخرين وما قد يقال عنه.. وهذه جميعها أمور طبيعية مرحلية.

ولكن هذا لا يعني أن كل جوانب حياة المراهق سلبية؛ بل إن من سماته الإيجابية أنه مثابر وله طموحات وآمال يسعى لها، ويبحث عن أهداف مستقبلية ويخطط لها، كما يقدر نفسه وقدراته كثيرًا، ويحترم الآخرين ويحبهم حينما يعتمدون عليه في بعض المهام كمساعدة الآخرين، ومن جميل سماته أنه يحب إبداء رأيه والأخذ به، وتقديم الأفكار والحلول المنطقية لما يسمع ويرى من مشكلات واقعية.

وفي جميع الأحوال يحتاج المراهق إلى الدعم النفسي من الوالدين والتفهم والتقبل وإظهار الحب له، وعدم تجريحه أو التقليل من شأنه أو تسفيه رأيه، فالكثير من مشاكله ناتجة عن عدم شعوره بالحب والأمان في ظل والديه؛ فيبدأ يعاند ويصارع ويتخبط.. فالأفضل دومًا معه الحوار والمناقشة في أخطائه وسلوكاته وتوقعات الوالدين والآخرين منه، فالحوار معه باستخدام أسلوب الإقناع مع إظهار الود والحب له هو من أفضل السبل المثمرة والناجحة بدل الصراخ والنزاع وأسلوب إلقاء الأوامر والتسلط لأنه غير مجدٍ معه.

النضال من أجل الاستقلالية!

المراهق يسعى جاهدًا نحو الاستقلال عن الآخرين، والبحث عن كيان خاص به يثبت به ذاته وقدراته، وهذا من حقه ومن متطلبات نموه، فهو أمر طبيعي، وعكس ذلك هو غير الطبيعي، حيث يبدأ في هذه المرحلة الانتقال من مرحلة الطفولة والاعتماد الكبير على الوالدين والآخرين إلى مرحلة الاعتماد على النفس والبحث عن الاستقلالية وإثبات الذات، ولكن يروق له التصرف أحيانًا كالصغار خاصة في حالات التعب، وأحيانا يقاوم من أجل التصرف كالكبار ونيل إعجابهم به!

وقضية تحقيق الاستقلالية التي يسعى إليها المراهق ويصارع لأجلها، لا تعني أنه سوف يغادر البيت ويذهب، كما هو الحال عند الغرب، فمازلنا- والحمد لله - نحتفظ بكيان الأسرة العربية المسلمة، بل إن الاستقلالية التي يبحث عنها أبناؤنا المراهقون تكمن في الحرية في اتخاذ القرارات اليومية التي تواجه المراهق داخل أسرته وجماعة رفاقه ومدرسته وعلاقاته مع الآخرين، كالاستقلالية في الأمور التي تتعلق بدراسته وانتقاء ملابسه وحاجياته واختيار أصدقائه، وكيفية قضاء وقته، ونقوده.. ولمَ لا نسمح له بذلك مادامت ضمن الحدود المقبولة؟

والاستقلالية أيضا التي يتمناها المراهق تشمل الوصول للنظرة الإيجابية من قِبل الوالدين وتقديرهم له واعتمادهم عليه في بعض أمور الأسرة وتوكيله ببعض المهام بشكل مستمر، وتشمل الحرية في التعبير عن رأيه.. ولذلك تراه يناضل من أجل الحصول على استقلاليته الشخصية والانفصال عن السلطوية العليا في البيت والمدرسة، لأنه أصبح مقتنعًا تمامًا بأنه شخص كبير؛ وهذا مؤشر إيجابي على نموه بشكل طبيعي وليس العكس!

ومن هنا- ولأجل الاستقلالية- يشرع المراهق بالتمرد، وتبدأ تصرفاته تتغير، فتنشأ النزاعات والخلافات بينه وبين أفراد أسرته، إذ ما يزال الوالدان ينظران إليه على أنه طفلهم الصغير- وإن كبر قليلا- وأنه بحاجة إلى رعايتهم ودعمهم وتوجيههم، وهو بالمقابل ينظر إلى نفسه بأنه ذاك الشخص الكبير القادر على اتخاذ قراراته بنفسه، فهو لن يسمح لأحد بعد اليوم باختيار ملابسه مثلا أو أدواته

الشخصية أو ما يفضل سماعه أو مشاهدته على التلفاز أو على جهازه الجوال أو من يزور ومن لا ... الخ، ويرى نفسه قادرًا على التواصل العاطفي وانتقاء الشخص الذي يريد مبادلة مشاعره معه وبالطريقة التي يريد.

مصادر استقلاليته

تبرز مشكلة مرحلة المراهقة أكثر حينما يحاول المراهق الاستقلال عن والديه وادعاء القدرة على التحكم بأفكاره وآرائه الشخصية وقراراته، بينما تجده بالحقيقة يعتمد على رفاقه في اتخاذ قراراته، سواء كان ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر، فتراه يقلد رفاقه في تصرفاتهم وفي طريقة لبسهم، وقصات شعرهم، وفي اهتماماتهم، وفيما يستمعون من أغانٍ، وفيما يعجبون به من شخصيات.. ويقلدهم حتى في طريقة مشيه، وتعامله مع إخوته في البيت، وفق ما يسمع من رفاقه وأقرانه! وهنا تبدأ بوادر المشكلة بالظهور، وتزداد شيئًا فشيئًا مع النمو، فهي تبدأ قليلة في بداية مرحلة المراهقة، وتتفاقم أكثر كلما ازداد المراهق دخولا في مرحلة المراهقة المتوسطة (تقريبا بعمر ١٥-١٦عامًا) فتزداد مناحراته ونزاعاته مع أفراد أسرته وعلو صوته في البيت، ولكن هذه الظاهرة تعود لتستقر أو تقل في مرحلة المراهقة المتأخرة بفضل الله، ومن هنا فعلى الوالدين تخفيف وطأة النزاعات معه والضغوطات على العوامل التي تثير أعصابه، فلابد من التفهم والتقبل له، وإعطائه فرصة الاختيار والانتقاء والحرية في التصرف والتعبير عن رأيه، مع المراقبة له والتوجيه والتصحيح لأخطائه، ولكن بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ (آل عمران: ١٥٩). وإن كانت هذه الآية نزلت في معاملة رسول الله عليه الصلاة والسلام لصحابته بالرحمة في موقف يستلزم التعنيف بعدما عصوه في غزوة أحد، فكيف بمعاملة الأبناء؟

وقال أبوسليمان الخطابي- رحمه الله تعالى:

مادمت حيًا فدار الناس كلهمو
فإنما أنت في دار المداراة

أسباب الخلافات بين الوالدين والمراهق

لوحظ في الكثير من الدراسات حول مرحلة المراهقة أن هناك مجموعة كبيرة من الأسباب للاختلافات والصراعات بين الوالدين والمراهق وأهمها:

- نوعية أصدقائه، وكثرة الخروج معهم على حساب واجباته وما هو مطلوب منه.
- موعد عودته للبيت.
- نوعية ملابسه وقصات شعره.
- كيفية قضاء وقته ووقت فراغه.
- كيفية صرف النقود وكثرة المطالبة بها.
- كثرة الإنفاق على الهاتف الجوال.
- الإنفاق على رفاقه في بعض الأحيان.
- عدم تحمل مسؤولية في البيت أو المساعدة في شؤونه (حيث يعيش عالمه الخاص).
- انخفاض الدرجات والعلامات المدرسية.
- إهمال الواجبات الدينية كالصلاة أو العبادات الأخرى.
- إهمال ترتيب حاجياته وغرفته وملابسه وأدواته (وخاصة الذكور).
- مستوى احترامه لوالديه.
- العلاقات مع الأقارب والاهتمام بزيارتهم.
- سلوكاته في المدرسة والمشاكل التي قد يقع بها.
- استخدامه الأدوات الخاصة بإخوته أو أحد والديه دون إذن مسبق.
- التدخين أو المخدرات أو الجلوس في المقاهي.
- إضاعة وقته على مواقع الإنترنت وعلى الجوالات.
- مشاهدة مواقع إباحية على الإنترنت.
- مصادقة الجنس الآخر، والتسبب في مشاكل أحيانًا.
- اللغة اليومية المستخدمة وعدم اعتزازه بلغته الأم (اللغة العربية).

غضب أم تفهم؟

إن ما يحدث من سلوكات منحرفة أو اندفاع لدى المراهق نحو الاستقلالية والمسؤولية يحير بعض الآباء ويغضبهم، ويشعرهم بأن ابنهم سيفلت من قبضتهم، فيقررون تشديد الضبط والضغط والرقابة عليه، وهم يقللون من حجم قدراته ومواهبه ويستخدمون معه أسلوب التهديد والوعيد والصراخ والضرب أحيانًا أو التقليل من شأنه وقيمته، مما قد يثير المراهق أكثر، ويدفعه نحو التمرد والعصيان والتحدي بشكل أكبر فتنشأ الخلافات معه، ويقرر داخليًا التوجه نحو الرفاق في قراراته كمرجعية له، حيث يرى أن جماعة الرفاق تقدم له التفهم والدعم النفسي والمعنوي والاجتماعي والمعلوماتي الذي يحتاج، بينما البيت يقدم له المشاكل وارتفاع ضغط الدم وحدة التوتر!

وفي المقابل، وبالنظرة الإيجابية، فإن بعض الآباء يكونون أكثر تفهمًا لما يواجه أبناءهم من مشكلات في تلك المرحلة، وتراهم يستمتعون برؤية أبنائهم يكبرون أمامهم ويستقلون في أفكارهم وآرائهم ومشاعرهم، فيقدمون لهم المحبة والدعم والفرص والتحاور والمشاورة والوعي اللازم والتقبل لما يواجهون، وهم يصارحونهم ويتحاورون معهم عندما يلاحظون أمرًا خاطئًا أو سلوكًا منحرفًا، ويوضحون لهم وجهة نظرهم ونظر الدين والشريعة والعادات والتقاليد التي عليهم احترامها لأنها جزء من ثقافتنا، فهم يتعاملون مع ابنهم المراهق على أنه شخص راشد قادر على التفكير المنطقي، وقادر

على رؤية أخطائه والاعتراف بها من أجل تعديل سلوكه وحل مشكلاته كالتدخين، وانخفاض علاماته، أو ازدراء الآخرين أو التصادم معهم، أو تورطه في علاقات سيئة، أو عدم رضاه عن شكله أو أهله.. ومع هذا النمط الوالدي المتفهم والإيجابي والصبور في تعامله فإن المراهق لن يستغني تمامًا عن والديه، بل سيصارحهم بما يواجه وسيكون صادقًا معهم، ومستشيرًا لهم في غالب أموره، وهذا ما يرغب به الوالدان الناجحان في التربية أن يكون لهما دور في تربية وتوجيه أبنائهم وتصويب أخطائهم، خاصة في زمن تباعدت به القلوب والدروب، وكثرت به عوامل التأثير في تربية الأبناء، فلم يعد الآباء هم فقط من يربون!

فتعامل أيها الأب وأيتها الأم الفاضلة مع ابنك باحترام ومحبة وتقدير، وأشعره أنه أهم شخص بالوجود، وأنه مفكر ومبدع وحيوي وقادر على اتخاذ القرارات وحل المشكلات، ودع ابنك يثق بك، وتمسك أنت به من أجل أن ينفذ لك ما تريد، وهنا تحضرني قصة فتاة صغيرة كانت تعبر جسرًا مع والدها الكبير، فخاف الأب الحنون من سقوط ابنته عن الجسر فقال لها: أمسكي بيدي جيدًا حتى لا تقعي في النهر (ومد يده لها)، فأجابت ابنته بلا تردد: بل أمسك أنت بيدي. فأجابها الأب باستغراب: وهل هناك فرق يا ابنتي؟ فأجابت الابنة سريعًا: لو أمسكت أنا بيدك قد لا أستطيع الاستمرار بالتمسك فتنفلت يدي وأقع، لكن لو أمسكت أنت بيدي فإنك لن تدعها تنفلت منك أبدًا.. فعندما تثق بمن تحب فإنه سيضع حياته بين يديك وهو يشعر بالراحة والثقة معك.

نصائح للآباء والأمهات للتقليل من المشاكل السلوكية في مرحلة المراهقة لأبنائهم

نصائح للآباء والأمهات

● اعلم بأن ما تزرعه في الصغر في مرحلة الطفولة سوف ينعكس يقينًا على مرحلة المراهقة وستجني ثماره خلالها وما بعدها، ولذلك احرص على تربية ابنك بشكل سليم منذ نعومة أظفاره، كما أكد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كيفية التعامل مع ابنك: «لاعبه سبعًا، وأدبه سبعًا، وصاحبه سبعًا، ثم اترك له الحبل على الغارب»، فهو بالمراهقة سيكون بمرحلة الصداقة معك والمصارحة المتبادلة.

● استخدم دومًا أسلوب الحوار والنقاش والتفاهم مع ابنك، فهو من أنجح الأساليب ليصل الابن إلى القناعة بخطئه وأهمية تصويب سلوكه وإلا فإنه سيعاندك ويستمر على سلوكاته السيئة!

● اسمح لابنك بتكوين علاقات اجتماعية، ولكن شجعه على انتقاء أفضل الأصدقاء (الصحبة الصالحة) الذين يحرصون على نصحه نصحًا إيجابيًا يرضي الله تعالى، وأن يبتعد عن أصدقاء السوء الذين يشجعونه على سلوكات خاطئة؛ كالتدخين أو تعاطي المخدرات أو العلاقات الخاطئة مع الجنس الآخر، واعلم أن تدريب الابن على انتقاء خيرة الرفاق يكون منذ الصغر، وبمصارحة الوالدين عن أصدقائه وعما يواجهه معهم، ولا يبدأ بمرحلة المراهقة.

● خصص وقتا لابنك، وتواصل معه تواصلًا إيجابيًا وبمحبة، ودون تقديم النقد اللاذع له أو السخرية من أفكاره وكلامه أو التقليل من شأنه أو إشعاره بالذنب بشكل مستمر، أو تقديم الأوامر له باستمرار ودون إقناع، أو بالمقارنة بينه وبين إخوته.. فكثير من هذه السلوكات تزيد انحراف المراهق وتزيد الفجوة مع والديه، وتؤدي إلى تدنٍ في احترام ذاته، وبالتالي زيادة إهماله لنفسه وللآخرين.

● اعلم أن النزاعات بين الوالدين والمعاملة السيئة من الأب للأم أو للأبناء تؤدي إلى تفاقم مشاكل المراهق وجنوحه وهروبه من الواقع وإلى رفاق السوء، فعامل أيها الأب زوجتك باحترام أمام أبنائك.

● قدم الفرص لأبنائك المراهقين والتي تشجعهم على استغلال وقتهم وطاقاتهم وتظهر قدراتهم وإبداعاتهم فيما يفيد، فوفر لهم الأدوات التي يحتاجون والوقت والتشجيع المعنوي.

● ضع تعليمات وقوانين وحدودًا للتعامل في بيتك، واسمح لأبنائك بمناقشتها وفهم أسبابها وفائدتها، ولا تتركهم دون توجيه أو توضيح أو قوانين للبيت.

● عزز ابنك المراهق بين الحين والآخر بوسائل التعزيز المختلفة المادية والمعنوية كالمدح والاحتضان والابتسام والتقبيل له، وذلك حينما تراه يسلك سلوكات جيدة أو يتخلى عن سلوكات سيئة، فلابد من أن يكون للوالدين دور في تربية أبنائهم المراهقين وتقديم التوجيه والتشجيع لهم.

● ادع الله تعالى دومًا لأبنائك بالهداية والتقوى والصلاح والحفظ والرعاية بعينه التي لا تنام، وأن يرزقهم خير الرفاق والصحبة الصالحة والتوفيق، فلا أحد يملك قلوب البشر غير الله تعالى، روى الطبراني والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا استودع الله شيئًا حفظه». وصلاح الأبناء من صلاح الآباء بدايةً، لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ (الكهف: ٨٢).

● عوّد أبناءك على الصلاة منذ الصغر، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتقربهم من خالقهم عز وجل، فالصلاة أكسجين الحياة، فلا تحرموا أنفسكم من استنشاقها!

الطفل بين الحياء والخجل

رندة السراج
باحثة سورية

ذكر الله تعالى كلمة الحياء بصيغ مختلفة في القرآن، ولكن لم يذكر كلمة واحدة عن الخجل.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ ٢٦﴾(البقرة:٢٦).

وقال تعالى: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾ (القصص:٢٥).

وقال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ

﴿بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ﴿٥٣﴾﴾(الأحزاب:٥٣).

وفي السنة الشريفة، هناك العديد من الأحاديث التي تتحدث عن الحياء، كفضيلة لابد من تخلق المسلم بها، مثل قول الرسول الكريم ﷺ: «الحياء كله خير»(صحيح مسلم)، والحديث بلفظ البخاري: «الحياء لا يأتي إلا بخير» (صحيح البخاري) وقال أيضا «لكل دين خلق، وخلق الإسلام الحياء» (ابن ماجه) وغيرها كثير من الأحاديث.

بينما لم نجد كلمة واحدة تتحدث عن الخجل، وهذا دليل واضح على مدح الحياء، وذم الخجل، فما تعريف كل منهما؟

الحياء لغة

الحياء، الحشمة و«استحى منه»، احتشم، والحياء من الحياة أي نقيض الموت (١).

الحياء اصطلاحا

هو التزام مناهج الفضيلة وآداب الإسلام، كما عرفه العلماء أيضا، بأنه خلق يبعث على اجتناب القبح حتى ولو لم يرك أحد.

الخجل لغة

خجل خجلا: أي استحيا - وفي النبات، كثر والتف (٢).

اصطلاحا

«هو اضطراب نفسي يتمثل بانطواء الطفل على ذاته وتجنب مواجهة الآخرين، لخوفه من انتقادهم وسخريتهم، لشعوره بالنقص في جانب ما من شخصيته. وهو نوع من وسائل التعويض لدى الطفل للتكيف مع من حوله» (٣).

وبناء على تعريف المفهومين، نقول: إن كثيرا من الناس يظنون أن الحياء هو الخجل، أو أن الخجل جزء من الحياء، ولكن في الحقيقة، إن الخجل عكس الحياء، فسبب الخجل هو شعور بالنقص داخل الطفل، فهو يشعر أنه أضعف من الآخرين أو أن إمكاناته أقل من غيره، ولا يستطيع مجاراتهم ومواجهتهم، وهذا مختلف تماما عن الحياء، فالحياء شعور نابع من الإحساس برفعة وعظمة النفس.. فالنفس الرفيعة العالية تستحي من أن تضع نفسها في الدنايا، فالحيي، يستحي أن يزني أو يكذب، لأنه لا يقبل أن يكون في هذه المهانة، وإن لم يره أحد، لكن الخجول إذا أتيحت له الفرصة دون أن يراه أحد فإنه يفعل.

«فالحياء صفة مطلوبة في الإنسان الذي يعيش في المجتمع الحديث، أما الخجل فهو الصورة المتطرفة الشاذة للحياء» (٤).

فمن تمثل الحياء في سلوكه فقد فاز فوزا عظيما، ومن استولى الخجل على حياته فقد أضاع فرصا كثيرة، لأنه يعاني من تدني مستوى الثقة بالنفس التي تؤدي في النهاية لحالة من السلبية.

تربية الأطفال على الحياء وليس على الخجل

يقول علماء النفس عن الطفل: إنه مجموعة من القدرات والاستعدادات والميول، ستتفتح فيما بعد بعامل التوجيه والتربية، وكما لا تستطيع أن تستنبت من بذرة المشمش شجرة للتفاح مهما استعنت بالأساليب الزراعية الحديثة. كذلك لا تستطيع أن تجعل من الطفل مؤدبا، إذا لم تغرس فيه القيم (٥).

وأيام الرسول الكريم ﷺ مع صحابته كانت كلها تربية وتهذيبا للخلق، لأنه قال عن نفسه: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، والحياء، من الخلق الكريم الذي ربى رسول الله ﷺ نفوس الصحابة مع أبنائهم عليه، «فهذا رسول الله ﷺ يمر على رجل من الأنصار وهو يعاتب أخاه في الحياء، يقول: إنك لتستحيي حتى كأنه يقول: قد أضر بك، فقال رسول الله ﷺ دعه، فإن الحياء من الإيمان» (صحيح البخاري).

«والظاهر أن الناهي -الذي يعاتب أخاه- ما كان يعرف أن الحياء من مكملات الإيمان، وكأن الرجل كان كثير الحياء، فكان ذلك يمنعه من استيفاء حقوقه، فعاتبه أخوه على ذلك فقال النبي ﷺ للمستحيي: «دعه» أي اترك معاتبتك، واعلم أن الحياء من الإيمان» (٦).

ولم يترك رسول الله ﷺ مناسبة إلا واستغلها في لفت انتباه الصحابة إلى خلق الحياء، «وهذا ابن مسعود يروي لنا أن نبي الله ﷺ قال ذات يوم لأصحابه: استحيوا من الله حق الحياء، قالوا: إنا نستحي يا نبي الله، والحمد لله، قال: ليس ذلك، ولكن من استحيا من الله حق الحياء، فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء» (الترمذي وأحمد).

وكان الصحابة الكرام يربون أبناءهم على ما رباهم عليه رسول الله ﷺ، فيعززون في نفوس الأطفال خلق الحياء وليس الخجل، أو ما يسمى الحياء السلبي، فهذا ابن عمر ينقل رأي أبيه في هذا الموضوع، عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وهي مثل المسلم. حدثوني ما هي؟» فوقع الناس في شجر البادية ووقع في نفسي أنها النخلة، قال عبدالله: فاستحييت. فقالوا: يا رسول الله، أخبرنا بها، فقال رسول الله ﷺ «النخلة» قال عبدالله: فحدثت أبي بما وقع في نفسي، فقال: لأن تكون قلتها أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا»(صحيح البخاري).

فانظر إلى حنكة عمر، علم أن الخجل هو الذي منع ابنه من أن يفصح عما عرفه هو ولم يعرفه الكبار، فعاتبه على أنه لم يتكلم وأشعره بأنه سيفتخر به لو كان تكلم بما عرفه بين يدي رسول الله ﷺ والصحابة رضي الله عنهم، وأشعره أيضا أن صمته هو نقص وعيب، وهذا عكس الحياء.

وقال مجاهد: «لا يتعلم العلم مستح ولا مستكبر». لأنه برأيه سيفوته الخير الكثير، وبالطبع يقصد بكلمة «مستح» أي الخجول الذي يمنعه خجله من السؤال، وليس معناه الحياء المأمور به كخلق.

وقالت عائشة رضي الله عنها: «نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين» (صحيح البخاري).

وهكذا كسا رسول الله ﷺ صحابته، ثوب الحياء، وهم بدورهم كسوا أبناءهم به، حتى أضحى لبنا أرضعته الأمهات للأبناء، وحلة ألبسها الكبار للصغار، وهذا كان دأب من بعدهم من التابعين، ولقد زخرت كتب السيرة بقصص، تظهر أطفال المسلمين وقد ربوا على الحياء الحقيقي، وليس على الخجل.

فهذا طفل لم يبلغ عمره أحد عشر عاما يخاطب عمر ابن عبدالعزيز عندما دخل عليه وفد من أهل الحجاز لتهنئته، فقال عمر: ارجع أنت وليتقدم من هو أكبر منك سنا، فأجابه الصبي: أيد الله أمير المؤمنين، إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فإذا منح الله العبد لسانا لافظا وقلبا حافظا فقد استحق الكلام، ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن، لكان في الأمة من هو أحق منك بمجلسك هذا، فتعجب عمر من الصبي وأكبر شجاعته.

ولكن السؤال هل الحياء صفة يولد بها الإنسان أم أنه يمكن اكتسابه؟

والجواب: نحن جميعا نولد على الفطرة، ولكن هناك حديث يؤكد على أن الفطرة بحاجة إلى جهد الفرد، فقد قال رسول الله ﷺ: «إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقه» (حسنه الألباني).

وكأن النبي ﷺ يقول لنا ليس هناك خلق لا يمكنك اكتسابه، فإذا صبرت تتعلم الصبر، وإذا كنت كاذبا يمكنك أن تكون صادقا بالتدريب، وإذا لم تكن حييا فيمكنك أن تكون صاحب حياء بالتدريب أيضا.

وأكبر دليل على ذلك أن صحابة رسول الله ﷺ، اختلف حالهم بعد أن أسلموا وارتبطوا بهذا الدين وتخلقوا بأخلاقه.

وقد قال رسول الله ﷺ لرجل «استحي من الله كما تستحي رجلا من صالح عشيرتك» (٧).

نماذج لشخصيات عرفت بالحياء

كان رسول الله ﷺ يثني على من عرف بالحياء وتميز به من أصحابه ثناء الحاض على الاقتداء بهذا الخلق المرغب فيه، ذلك لأنه أول المتشربين به وأول من عرف بالحياء، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها» (صحيح البخاري).

يقول أبوالعباس القرطبي: لقد جمع رسول الله ﷺ بين نوعي الحياء: المكتسب والغريزي، فكان في الغريزي أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان في الحياء المكتسب في الذروة العليا (٨).

وأما من اشتهر بالحياء بعد رسول الله ﷺ فرجل قال عنه رسول الله ﷺ: إن الملائكة تستحي منه، يا لها من منزلة! إنه الحيي عثمان بن عفان رضي الله عنه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن أبا بكر استأذن على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على فراشه، لابس مرط عائشة، فأذن لأبي بكر، وهو كذلك، فقضى إليه حاجته ثم انصرف، ثم استأذن عمر، فأذن له، وهو على تلك الحال، فقضى إليه حاجته، ثم انصرف. قال عثمان: ثم استأذنت عليه فجلس، وقال لعائشة: «اجمعي عليك ثيابك» فقضيت إليه حاجتي ثم انصرفت، فقالت عائشة: يا رسول الله، ما لي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما كما فزعت لعثمان؟! قال: رسول الله ﷺ: «إن عثمان رجل حيي، وإني خشيت، إن أذنت له على تلك الحال، أن لا يبلغ إلي حاجته» (صحيح مسلم)، وفي رواية أنه ﷺ قال لعائشة: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟» (صحيح مسلم).

همسة في أذن الآباء

يقال: إن جذور التربية مرة، ولكن ثمارها لذيذة، ويقال: من أدب ولده صغيرا سر به كبيرا، فطوبى لمن ربى أبناءه على الحياء، وأسفا لأسرة كانت سببا في وصول بعض أبنائها إلى الخجل.

وأخيرا يقول الغزالي: «طفلك جوهرة نفيسة، فحافظ عليها».

ونحن نقول: طفلك كنز دفين، خبئ فيه كل سلوك ثمين، ثم انتظر أن يعم خيره عليك وعلى الناس أجمعين.

الهوامش

١- زين العابدين بن الحسين التونسي، معجم المدرسي، دمشق، دار المعارف، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٤٢.

٢- زين العابدين بن الحسين التونسي، المصدر السابق، ص١٤٥.

٣- عبداللطيف أحمد، المستشار النفسي، حمص، دار المعارف، ط١، ١٩٩٥م، ص٢٦ بتصرف بسيط.

٤- معروف زريق، مشاكلنا النفسية، دمشق، دار الفكر، ط١، (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص٨٣.

٥- مشاكلنا النفسية المرجع السابق ص٨٨/٨٩ بتصرف.

٦- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، م٢، ص٩٤.

٧- ابن رجب، جامع العلوم والحكم بشرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، المحقق: ماهر ياسين فحل، د.م، د.ن، د.ت، الحديث العشرون ص٤.

٨- ابن حجر العسقلاني فتح الباري المجلد العاشر، ص ٦١١.

التسامح والحلم مهارتان نكتسبهما

بشرى شاكر - المملكة المغربية

نولد جميعنا على الفطرة، ثم نفتح أعيننا على عالم جديد.. نكبر في بيئات مختلفة، ونستقي منها خبرات مختلفة، ولكننا -كمسلمين- نهذب أخلاقنا بقرآننا وبسيرة نبينا، فنتعلم من نهج ديننا القويم؛ لنتبع الطريق السليم ونبتعد عن المشى العقيم.

سلوكياتنا -في غالبيتها- مكتسبة، لم تولد معنا، وإنما نتعلمها ونتدرب عليها، مثل: الصبر والحلم والتسامح والعفو. وبالحديث عن الحلم، فقد قال فيه رسولنا الكريم عليه أفضل الصلوات والسلام «إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم»، مما يدل على أنه سلوك يكتسب مثلما لو كنا نتعلم علما. والحلم كلما زاد عدل الطباع وقومها وجعلنا أقدر على مجاهدة النفس والتشبث بالأخلاق الحميدة.

وليس عبثا أن يكون الحليم من بين أسماء الله الحسنى، فهو من لا يعجل بالعقوبة والانتقام ويرزق عباده حتى الضالين منهم، ولا يمسك نعمه عنهم بسبب ذنوبهم، بل يمنحهم دائما مساحة للتوبة والتراجع.

وصاحب الحلم منا هو المتسامح الصفوح، ولكن في ظل ما نعيشه الآن من مآس، وما نتعرض له من خذلان يومي من بعضهم، وأيضا بسبب الحياة السريعة والشاقة التي باتت تعيشها شعوبنا، فإن العديد من الأشخاص يشتكون أنهم فقدوا الصبر.. فما بالك بالحلم؟!

من قبل كان العلماء يعتقدون أن هناك أنواعا من الأشخاص بعضهم سريع الغضب بالفطرة، وبعضهم يملك خصائص العفو والود والصداقة، مثلما جاء به صاحب نظرية الأنماط العالم النفسي مايرز، فيما سمي مؤشر مايرز بريغز، وهو يصنف الأفراد إلى صارم وحازم أو مرن ومتساهل، فيكون بالنسبة إليه كل شخص له خواص شخصية تولد معه، حتى وإن تغيرت أو اكتسب غيرها مع نضوجه، إلا أن اختصاصيين ربطوا هذه الصفات السلوكية بطبيعة البيئة التي يعيش فيها الأفراد، فأحيانا حتى الأكثر تسامحا إذا عاش في بيئة عدائية يقل سلوكه التسامحي، ولا يستمع إلى أعذار الآخرين، ولا يغفر لهم هفواتهم، ويصبح عدائيا ربما وقاسيا أيضا. ولذلك، فقد شخص الاختصاصيون طرقا للتدريب على هذه السلوكيات المفيدة للمجتمع ككل، والتي تقلل أيضا من نسبة الجريمة والعنف، وهو ما يتفق مع ما جاء به حديث رسولنا الكريم ﷺ، ويدل على أن هذا السلوك يكتسب، بل يتعلم مثل العلم، وأكده -كما قلنا- علم النفس الحديث كذلك. فيمكننا إذن أن نتدرب لنكون أكثر حلما وأكثر رحابة صدر، ويزيد ذلك مع زيادة تدريبنا على الأمر، ومع توالي الأيام أيضا، فالمراهق العصبي قليل الحلم قد يصبح شابا أكثر تسامحا، وحليما أكثر، يغفر ويسامح ولا يستبق العداء.

وفي الدول الغربية هناك دراسة نفسية تدرس كيفية التدريب على الحلم والصبر، وتسمى لعبة الحلم، وهي مبنية على التصميم الصيني، إذ إنه لدى البوذيين عدة طقوس تمارس يوميا ليتعلم الإنسان منها، ومنذ طفولته، الصبر والحلم. كما أن ذلك أيضا يدخل في بعض تدريبات البرمجة اللغوية العصبية التي تعتبر الصبر والحلم مهارتين مكتسبتين، فكيف بنا نحن ونحن نعلم أن الحلم قد يجنبنا مشاكل جمة وصدامات أكثر وفوق هذا نؤجر عليه؟ فقد قال رسولنا الكريم ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا» (أخرجه مسلم). وما العفو إلا إحدى نتائج الحلم، وكما تحدثنا عن التدريب النفسي ففي القرآن أيضا دليل على بداية هذا التدريب، فقال الله تعالى ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران:١٣٤). فكظم الغيظ وعدم التسرع في الرد هما بوابة الحلم.

أن تعود نفسك على الحلم وكتم الغيظ سيؤدي بك ذلك إلى أن تكون متسامحا أكثر، وأن تعفو أكثر، وبالتالي تجنب نفسك والآخرين زيادة سوء الأمور وتفاقمها وتأزمها.

قد يجرحك الآخرون وقد تتأذى بسبب بعض التصرفات، ولكن تعلم أن تلملم جراحك واصبر وتجلد.. فعليك أن تدرك أن الحلم والعفو من شيم الأقوياء، فليس كل شخص يستطيع أن يكون حليما، وليس الكل يمكنه ذلك بالقدر نفسه، فلكي تكون قويا كن حليما وسامح أكثر...

مديرون لا يعتذرون وموظفون يَسْتَجْدُون حقوقهم

ثقافة الاعتذار بين الحق والكبرياء

القاهرة : منير أديب

المدير كلمة يهابها الموظف، بحكم مسؤولية الأول في إعطاء الأوامر وإصدار الطلبات التي يجب أن تنفذ دون حجة أو ذريعة.

بعض المدراء يستبدون، فلا يقبلون الاعتذار أو التبرير في حال قصر موظفه، وآخرون يراعون حالة الموظف وأعذاره، وفي حالات أخرى قد يخطئ المدير، ولكن الأنا تمنعه من الاعتراف بخطئه أمام موظفيه أو الاعتذار منهم، خائفا أن يؤدي ذلك إلى التقليل من احترامه وهيبته، رافضا أو متناسيا أنه إنسان مثله مثلهم، ولا فرق بينهم سوى المركز.. وجل من لا يخطئ، وآخرون لا مشكلة لديهم في الاعتذار من موظفيهم معتبرين أنها خطورة تزيدهم تقديرا واحتراما، وقد تقربهم إلى موظفيهم أكثر.

فمتى يعتذر المديرون؟، وكيف تكون نظرة الموظفين إليهم إذا لم يعتذروا؟، وهل هناك طريقة مثلى للاعتذار، هذا ما نحاول الإجابة عنه من خلال التحقيق التالي:

ثقافة الاعتذار

يقول أشرف شوقي: كثيرا ما يخطئ مديري، ولكنه يأبى أن يعتذر ويرفض أن يكون صغيرا أمام الآخرين، بمنطق أن المدير لا يعتذر، وإنما يعتذر إليه موظفوه حتى يظل في هيبته ومكانته.

ويحكي أن مديره أخطأ ذات مرة خطأ كبيرا تسبب في ضرر على المؤسسة التي يعمل فيها، خاصة على العمالة، فأبى أن يعتذر وكلف مدير مكتبه أن يعتذر بالنيابة عنه.

وذكر أن أغلب المديرين ينظرون إلى الاعتذار نظرة سيئة، يرون أنه لا يعتذر إلا صاحب الشخصية الضعيفة، الذي لا منطق ولا حجة له.. وهذا خطأ كبير يتسبب في النهاية في فساد العلاقة التي تجمع المدير بموظفيه.

يقول محمود سليمان: إنه يعمل في مؤسسته قرابة عشر سنوات، وأن مديره لم يتغير منذ ذلك الوقت، ورغم أخطائه التي لا تحصى ولا تعد فإنه يرفض الاعتذار، كما أنه يرفض منطق تصحيح الخطأ.

وأضاف: عدم الاعتذار مشكلة يقع فيها المديرون، وهذه المشكلة تربوية، وتؤدي إلى مشاكل أكبر؛ لأنها تكرس لفكرة تقدير المدير من دون الله!، فمن منا لا يخطئ حتى يعتذر.

ولفت إلى ضرورة أن يدرك المديرون أن اعتذارهم في حال الخطأ يسهل لهم العمل ويجعل حالة من التسامح تسود مناخ العمل، وبالتالي تدفع زملاء العمل للارتباط بشكل أكبر بمديرهم، وبالتالي يكون هناك ولاء للمؤسسة التي يعملون جميعا فيها، على اعتبار أن لها قوانين ولوائح يحترمها المدير قبل الموظف.

موظفون: المديرون يعتبرون الاعتذار حقا لا يمكن الاستغناء عنه، والمديرون: الموظفون يعتبرونه إهانة لكبريائهم

تقول سهام الشوادفي: مديرة العمل في المؤسسة التي أعمل فيها سيدة، ورغم ذلك كثيرا ما تعتذر، رغم أن أخطاءها أقل بكثير من غيرها من المديرين، ولذلك يشعر كل موظف في المؤسسة بحقه، ويتعامل بمنطق أن هذه المؤسسة ملكه الشخصي فيعطيها أكثر.

وأضافت: الاعتذار من شروط المدير الناجح، وشرط من شروط نشر الألفة بين الموظفين، ويقوي روابط العلاقة المهنية والإنسانية بين المدير وباقي الموظفين، ويصنع حالة من الرضا في مناخ العمل، ويقتل أي آفات قد تظهر في بيئة العمل عموما.

ولفتت إلى أن مديرة العمل سبق واعتذرت لموظفين صغار، ولم يكن مجرد اعتذار باللسان تحرك الشفاه به، وإنما كان بمثابة تصحيح مسار للخطأ، وغالبا ما يكون ذلك أمام كل الموظفين.

يقول صالح أيوب: اعتذار المديرين مرتبط بالخطأ، فغير مسموح مثلا للمدير لمجرد أنه مسؤول عن إدارة العمل أن يخطئ في حق موظفيه،

وأن يتعرض لهم بالسوء فيما ليس له علاقة بالعمل.

وأضاف: لابد أن يترفع المدير عن إحراج عامله، ويسعى لتدريبه، ولابد أن تكون لديه طاقة تحمل أكبر بكثير مما لدى موظفيه، حتى يستطيع أن يترك أثرا طيبا في موظفيه.

وتابع: إن أغلب المديرين غير مدربين على تولي مهنتهم، ولذلك تجدهم لا يجيدون التعامل مع الموظفين، فبعضهم يحتقرهم والبعض الآخر يسيء تعامله معهم، وبطبيعة الحال لا يعتذر لهم، فتكون المشكلة مديرا لا يعتذر وموظفا في النهاية لا يأبه بمديره.

تقول محاسن توفيق: نظرة الموظف لمديره تصبح سلبية إذا أصر المدير على خطئه، ورفض الاعتذار في نفس الوقت، وبالتالي يفقد العمل قيما عظيمة كإحساس الموظف بانتمائه للمؤسسة التي يعمل فيها.

وأضافت: سبق وحدثت هجرة جماعية لموظفين من مؤسسات بسبب أخطاء مديريها الذين يرفضون الاعتذار، وعدم وجود هذه الكلمة في قاموسهم، وبالتالي هناك أعمال يرفض أصحابها الالتحاق بها، بسبب المدير الذي يرفض الاعتذار لموظفيه، بل قد يقوم بإهانتهم.

وتذكر: هناك مديرون يخطئون في كتابة اسم موظف في عقوبة الجزاءات، أو رفعه من قائمة المكافآت، مع استحقاقه لها، وتجد المدير يأبى الاعتذار، والأدهى من ذلك أنه يرفض تصحيح خطئه، أو يتعلل بحجج وأوهام لا يقبلها الموظف، وتكون بمثابة علامة سلبية في حقه تمنعه من الاستمرار في العمل أو الاندماج فيه.

تقول سماح عوض، مديرة: لا أحد فوق الجزاء، ومن يخطئ يجب أن يعاقب حتى لو كان المدير نفسه، فلا توجد سلطة لا يجرؤ الموظفون

د.عبلة الكحلاوي: ثقافة الاعتذار جزء من الهدي النبوي الغائب عن الأمة

فيها على مجادلة مديرهم، ولكن في نفس الوقت لابد للمديرين أن يكونوا سريعي الاعتذار للحفاظ على موظفيهم، والذين لا يقبلون أخطاء أو إهانات المدراء.

وتضيف: لقد تعاملت مع الموظفين بالطريقتين، فوجدت طريقة الاعتذار مجدية وآثارها على الموظف كبيرة جدا، وبطبيعة الحال على مناخ العلاقات داخل المؤسسة، وعلى إنتاجية العمل.

ولفتت إلى ضرورة أن يفرق المديرون بين مستويات الأخطاء؛ فيدركوا أن هناك نوعا من الأخطاء لا يمكن إلا أن يعتذروا عنها في وحينها، إذا كانت تلك الأخطاء مرتبطة بأشخاص حاضرين من إهانة وخلافها، أو كانت مرتبطة بظلم في العمل، حينها لابد أن يرفع الظلم فورا، ثم الاعتذار لصاحبه، وإن لذلك لمفعول السحر.

يقول محسن عباس، مدير: غالبا ما يهاب الموظفون من مديرهم، ولذلك تصبح هناك نتيجة سلبية على العمل، وعلى العلاقات التي تجمع هؤلاء المديرين بالموظفين، فكلما كانت هذه العلاقة في نطاق العمل فقط، ولا تخرج عنه، كان لذلك آثر سلبي كبير، وبالتالي للاعتذار دخل في هذه العلاقة.

ويضيف: بعض المديرين يرفضون فكرة الاعتذار، ليس لأنهم يريدون الاستبداد بموظفيهم، ولكنهم يتخيلون أن الاعتذار يقلل من هيبتهم أمام موظفيهم، ويعتبرون أن ذلك يشكل خطورة على العمل وعلى احترامهم الشخصي، وتلك نظرة غير موضوعية من المدير لموظفيه.

ووجه نصيحته للمديرين بأن يعتذروا، وأن يكثروا من الاعتذار، على اعتبارها طريقة رائعة في تسويات خلافات العمل، وأيضا الخلافات الاجتماعية، وتعلي من نظر المدير في أعين موظفيه.

الاعتذار والهدي النبوي

تقول د. عبلة الكحلاوي، أستاذ الشريعة الإسلامية بجامعة الأزهر الشريف: الاعتذار قيمة إنسانية عظيمة، وفضيلة أقرها الإسلام وأمر أتباعه بها، وكان الرسول ﷺ يعتذر لأصحابه، وهو من كان رحيما بهم.

وأضافت: من سمات الهدي النبوي، أن الرسول ﷺ وقف ذات مرة وقال لأصحابه: لعلي ظلمت أحدكم أو حكمت لأحدكما، لأن حجته كانت أبلغ، فمن كان له حق عندي فليأت ويقتص مني، فجاءه رجل من أصحابه وقال: أنا يا رسول الله، كنت تسوي الصفوف في الجيش فضربتني بعصا كانت في يدك فأوجعتني، فكشف الرسول ﷺ عن بطنه وقال: يا هذا، تعال فاقتص، فما كان من الصحابي إلا أن اهتبل الفرصة ليقبل بطن رسول الله ﷺ.

وذكرت أن من أهم الصيغ التربوية التي تحمي الأمة وتخلق حالة من الوئام أن يعتذر فيها المدير والقائد لموظفه، بل يدفعه لأخذ حقه، ويكون ذلك أمام الناس، ولذلك إذا بحثت عن حب الصحابة لرسولهم الكريم ﷺ وجدته لا يقارن، وبالتالي على المديرين أن يستفيدوا من ذلك في تعاملاتهم مع الموظفين عموما.

العواصف الغبارية

محيي الدين عواد
باحث سوري

في مقدمته ذكر ابن خلدون أن الأرض بعد تقلب الفصول من فصل إلى فصل.. تبدأ بلفظ أمراض وحشرات لو تركت لأهلكت العالم فيرسل الله الغبار.. فيقوم بقتلها.

هناك فارق بين كلمتي «غبار» و«رمل» فالأولى توحي بحبيبات أدق مما تحويه كلمة رمل، ومع ذلك يبقى هذا الفارق اعتباطيا إلى حد كبير، ويكثر وجود هذه العواصف في المناطق شبه الصحراوية والصحراوية من الأرض، ولعل أكثرها أسطورية تلك العواصف التي تحدث في الصحارى الكبرى في إفريقيا.

تعتبر الصحراء الإفريقية الكبرى أكبر صحاري العالم، وهي تغطي مساحة قدرها ثلاثة ملايين ونصف المليون ميل مربع من شمال إفريقيا في المنطقة الواقعة بين الأطلسي والبحر الأحمر، والصحراء أشد البيئات عداوة للإنسان فوق الأرض. فدرجة الحرارة في جوها تزيد عن ١٣٠درجة فهرنهايت، وفي أرضها تصل إلى ١٧٠ درجة فهرنهايت، بصورة عادية، لذلك جاءت تسميتها في العربية بكلمة «صحراء» مناسبة لما يعنيه التعبير «ويلدرنس» أي البرية الموحشة في الإنكليزية.

وقد ظلت الصحراء مقبرة لآلاف المسافرين الذين يعوزهم الانتباه والحيطة في ترحالهم عبر جوفها الواسع منذ أقدم العصور.. إنها قاسية لا ترحم، فكم من قافلة تحمل العبيد والعاج والذهب والملح اختفت بين كثبان الرمال الصحراوية، دون أثر، قبل ترسخ مسالك التجارة جيدا.

وكم من المآسي الأعمق حدثت جراء الأحوال الدورية العاصفة، وذهب ضحيتها ملايين البشر في العديد من البلدان، إذ تعصف الريح وتتفشى المجاعة.

انكب علماء الجو على دراسة ما يحدث من عواصف رملية، بما في ذلك مظهرها وحدتها وتوزعها وتاريخ حدوثها، ودراسة الأحوال الجوية المرافقة لها. وقد وجد أنه عندما تتجاوز سرعة الريح حدا معينا، فإن ضغطها على الرمال المكشوفة يحمل الذرات الناعمة فتصطدم بالأكبر منها فينسفه ويدحرجه على وجه الأرض، ومع ازدياد سرعة الرياح تتعالى النسافة الرملية في الجو دون أن تبلغ أكثر من بضع مئات الأقدام في حال استقرار الحرارة الجوية. أما في حالة عدم استقرار الهواء فإن دقيق الرمل والغبار قد يرتفعان بقدر ما تحملهما تيارات الهواء، بحيث لا يتجاوز الارتفاع خمسة عشر ألف قدم.

تتوقف السرعة الحرجة للريح التي يبدأ معها انجراف الرمل على توزع الأحجام المختلفة للحبيبات المكشوفة واستقرارها. فالتعرض الطويل لنمط معين من الريح قد يحدث تصنيفا في حبيبات الرمل بصورة تقاوم معها التعرية، وربما تفسد المواشي أو السيارات هذا التوازن.

وقد أصبح من الثابت أن حبات الرمل المرتفعة التي تسخنها الشمس، ربما تدفئ الجو بمقدار خمس درجات فهرنهايت في أيام الصيف، الأمر الذي يرفع من حالة عدم الاستقرار الحراري فيه، وبالتالي يزيد من تصاعد الغبار.

من المتفق عليه بصورة عامة أن هناك شرطين أساسيين لحدوث العاصفة الرملية. فيجب أولا ألا تتجاوز سرعة الريح الحد الحرج، وهو يتراوح بين ١٥- ٣٠ ميلا في الساعة، إذ يتوقف ذلك على شكل الحبيبات الرملية وحجمها وجاذبيتها الخاصة، ودرجة الرطوبة والحرارة فيها، وثانيا يجب أن يحتوي الغطاء الأرضي على حبات جافة مفككة وخفيفة، إلى حد يسمح لها بالارتفاع.

تقع معظم العواصف الرملية في واحد من نمطين رئيسيين. وربما كانت الريح الخماسينية في مصر أفضل مثال على النمط الأول منهما، ففي الرياح الخماسينية تقع الهبات الغبارية فوق منطقة واسعة تتولد فيها كتلتان كبيرتان من الهواء المتحرك نتيجة

هبوط الضغط الجوي، والنمط الثاني ريح الهبوب في السودان، إذ هي تقترن مع تكون كتلة من السحب السوداء أو مع عاصفة رعدية.

رياح الخماسين:

رياح الخماسين ظاهرة تحدث أصلا في فصل البرد، ويغلب أن تقع في نهاية الشتاء أو الربيع، وقد تكون أعم حالات الطقس التي ينجم عنها عواصف رملية فوق الساحل الإفريقي الشمالي. إن منطقة ضغط منخفض يتجه نحو الشرق على طول ساحل البحر المتوسط تعطي غالبا تيارا قويا من الهواء الصحراوي الدافئ؛ قادما من الجنوب، ويعقب ذلك انفجار رياح باردة من الشمال، وتكون الرياح الشمالية نتيجة منشئها الصحراوي وقوتها، محملة بالغبار أو ضبابية، أما في الربيع والخريف فمن المحتمل أن تؤدي إلى حدوث عواصف رعدية قاسية، وبعد أن تفقد استقرارها من خلال الطواف فوق البحر قد تحمل معها الغبار وتنخرط في معمعة العاصفة.

يكون الهواء المحمل بالغبار الذي أثارته الرياح الخماسينية عادة أكبر كثافة، وأشد امتدادا، وأشد وقعا في أثناء النهار، وربما بدأت عاصفة الرمل وانتهت في أية ساعة، وهي غالبا ما تستمر طوال الليل، أو لأيام متتالية عديدة، وفي بعض الأحيان تقترب الرياح الخماسينية المحملة بالغبار، إثر الجبهة الباردة فتبدو كالجدار. غير أن تيار الهواء الدافئ يبدأ عادة بصورة تدريجية مع نشاط الرياح، وتتفاوت درجة الغبار من مناطق مبعثرة مساحتها بضع مئات من الياردات إلى مناطق أحزمة متتالية، يبلغ امتدادها أكثر من مائة ميل. وفي آسيا الدنيا وإيران والاتحاد السوفييتي سابقا والهند والصين وأستراليا والولايات المتحدة، تحدث عواصف رملية مشابهة للعواصف الخماسينية، وتنشأ عواصف الرمل الشديدة فوق منطقة السهول الكبرى الأميركية، وتكون غالبا نتيجة الهواء القطبي الجاف غير المستقر، الذي يتكون في المحيط الهادي.

رياح الهبوب

هذا النوع من عواصف الغبار يتشكل غالبا في السودان، عند طرف السحابة الرعدية، يرتفع الغبار من الأرض بما يشبه الدخان المتصاعد من النار في يوم عاصف. ثم ينمو جدار متلاطم من الغبار ويرتفع حتى يصل إلى أسفل السحابة، ثم يتابع صعوده فيما بعد. ربما تكون عواصف الهبوب صفراء أو داكنة، لكنها أحيانا تكتسب لونا أحمر، وذلك حسب طبيعة الغبار الذي تحمله.

وعلى بعد قد تظهر عواصف الهبوب كضباب شفاف يعلو الغيم، ويعود السبب في ذلك إلى انعكاس أشعة الشمس. تصل العاصفة مع تصاعد الريح المفاجئ منذرة بصوت زعيقها الشديد، وتنخفض درجة الرؤية في نفس تلك اللحظة تقريبا، ثم تهدأ الريح تدريجيا فتتحسن الرؤية ولا تدوم غالبية هذه العواصف أكثر من ساعة أو نحوها، وقد تستمر بضع ساعات أحيانا، وينتهي العديد من عواصف الهبوب بسقوط الأمطار التي تغسل الهواء من الغبار، وتبلل وجه الأرض، فتمنع بذلك هبوب عواصف رملية أخرى، وإذا أفلتت الهبوب من السحابة العاصفة وابتعدت عنها فإن استمرارها عادة يدوم زمنا طويلا، تبدأ معظم حالات الهبوب بين الظهيرة والغسق، وهي تميز فصل الدفء، خاصة أواخر الربيع وبواكير الصيف، وهي كثيرة الحدوث في الأماكن الرملية، خاصة في أستراليا وغرب إفريقيا، وأقاليم من الهند والشرق الأوسط.

آثار العواصف الرملية

عندما يصعد الغبار إلى الجو فإنه يتخذ مظاهر متغيرة، وفي حالة الهبوب الشديد يتشكل الجدار الغباري النموذجي عندما يحمل اندفاعا مفاجئا أو ملحوظا في سرعة الريح جبهة عريضة ومتتابعة من الغبار ويتقدم بها، ولعل إحدى ميزات بعض النماذج من العواصف الخماسينية الرملية حالة الاكفهرار في الجو أو الغبار المرتفع، ويحدث هذا الاكفهرار لدى اجتياز كتلة من الهواء الدافئ المحمل بالأتربة كتلة أخرى من الهواء الأكثر برودة وضعفا، وينجم عن ذلك تساقط غزير في ذرات التراب، وتصل سماكة الغبار المتساقط حول جزر الكناري و«كيب فردي» أحيانا حدا يشكل خطرا على الملاحة، وفي هذه الأوقات تلجأ الطيور إلى حبال الصواري فتجثم فوقها، وربما تساقطت الأمطار الملوثة بالوحل أو الثلوج عندما يحمل جسم إعصاري (سيلكون) الهواء المحمل بالغبار ويجبره على الارتفاع فوق كتلة هوائية أكثر منه برودة، والمطر الموحل معروف في أوروبا، وإن لوحظ أحيانا في الولايات المتحدة وأستراليا أو الصين عند هدوء الريح وحالة اللااستقرار المرتبطة بالعاصفة الترابية؛ تتساقط الحبيبات الأكبر مباشرة إلى الأرض. ومن الممكن أن تحمل تيارات الهواء العليا، وهي تتحرك عادة بسرعة أكبر من الطبقات الهوائية السفلى المحملة بذرات التراب الدقيقة إلى مسافة آلاف الأميال، وهذه الحقيقة تفسر وجود الضباب الغباري المنتشر غالبا في مناطق بعيدة جدا عن أماكن حدوث العواصف الترابية. أخيرا تتم تنقية كمية كافية من الغبار أو أنه ينتشر بصورة كبيرة بحيث يقل تأثيره على الرؤية وعلى لون السماء.

في حالة الهبوب الذي يحدث في السودان تنشر الريح الشرقية السائدة كميات الغبار مما يجعل الضباب الغباري يلف مناطق غرب ووسط إفريقيا بين خطي عرض خمسة إلى ثلاثين شمالا، في معظم أيام السنة، وتتفاوت كثافة الضباب الغباري من يوم إلى آخر، ومن فصل إلى آخر، وأحيانا تشكل عقبة في وجه الملاحة الجوية.

المراجع:

- كوارث الطبيعة، العلوم (٢)، عدد من المؤلفين،
- ترجمة: شاهر حسن عبيد.
- الموسوعة العلمية الميسرة، ترجمة محمد شريف
- الطرح وآخرين، منشورات وزارة الثقافة في سورية.
- الموسوعة العربية العالمية.

الجامع الصحيح للإمام البخاري

إعداد : خالد خلاوي

بين أيدينا أكبر جامع للصحيح من أحاديث الرسول ﷺ، وأكثر كتاب حظي بدراسات وشرح العلماء في القديم والحديث، وهو أصح كتاب في الإسلام بعد القرآن الكريم، إنه كتاب «الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه» المعروف بـ«الجامع الصحيح»، لأمير المؤمنين في الحديث، الإمام محمد بن إسماعيل البخاري.

الإمام البخاري ومكانته

هو أمير المؤمنين في الحديث محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري.

وقد أراد الله لمدينة بخارى، وهي من أعظم مدن ما وراء النهر «نهر جيحون» قرب سمرقند أن يرفع ذكرها ويخلد اسمها وضاء، فولد بها أبوعبدالله محمد بن إسماعيل يوم الجمعة ١٣ شوال ١٩٤هـ، في بيت مبارك، عطره والده إسماعيل بالعلم والتقوى، فقد كان كما يقول الذهبي: من العلماء العاملين والنبلاء الورعين.

إن أبا عبدالله البخاري بعلمه وعقله وخلقه ودينه وصل إلى درجة رفيعة في الكمال الإنساني أجبرت الدنيا بأن تتطلع إليه، وانطلقت الألسن بالثناء عليه، وقد تتابعت الروايات في نباهة شأنه وتقدمه والشهادة له بالإمامة في العلم، واكتظت كتب الطبقات بالإسهاب في هذا المعنى؛ إسهابا لم يتوفر في أي ترجمة من تراجم العلماء..والمقرون له الشاهدون بفضله على حد تعبير الإمام النووي هم الأعلام أئمة المسلمين أولو الورع والدين، والنقاد والمتقون الذين لا يجازفون بالعبارات، بل يتأملونها ويحررونها ويحافظون على صيانتها أشد المحافظات، والناظر يجد أن هذه الروايات إنما تمثل اجتماع

الطبعة الهندية

المسلمين في عصر البخاري، إذ هي تشع من مراكز إشعاع العلوم بالعالم الإسلامي، ولم يقتصر ذلك على أهل بلد بعينه، وقد نسق الخطيب البغدادي هذه الروايات وقسمها بحسب أصحابها إلى فصول ممتعة، تبين أن مكانة البخاري مكانة عالمية. وقد طبقت الآفاق وأن علمه أشرق على دنيا الإسلام في عصره، وأن له الأثر الحسن في كل بلد بما تركه فيه من علم نافع وخلق كريم (١).

وتوفي يرحمه الله يوم السبت ١ شوال عام ٢٥٦ هـ.

أسباب تأليف «الصحيح»

تفاعلت الأسباب الداعية لإبراز هذا المؤلف الجليل ومنها ما يلي:

أولا: الحاجة إلى إفراد الحديث الصحيح، حيث كانت الكتب المصنفة قبله منها ما هو ممزوج بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين، ومنها ما هو مشتمل على الصحيح وغيره، فكانت الحاجة داعية إلى إفراد الحديث الصحيح ليخلص طالب الحديث من عناء السؤال والبحث.

ثانيا: مقدرة البخاري واكتمال نموه في معرفة الحديث.

ثالثا: شعور العلماء بالحاجة وبمكانة البخاري، فوجهت إليه الدعوة من منزل شيخه إمام الحديث والفقه إسحاق بن راهويه بدعوة منه في مجلس العلماء.

رابعا: قوى عزم البخاري وشرح صدره وملأه همة واقداما رؤية النبي ﷺ وهو يذب عنه بمروحة في يده، وفسرت الرؤيا للبخاري بأنه يذب الكذب عن النبي ﷺ، يقول الحافظ ابن حجر: فلما رأى البخاري يرحمه الله هذه التصانيف (الموجودة في عصره) واستشق رياها واستجلى محياها، وجدها بحسب الوضع جعله بين ما يدخل تحت الصحيح والتحسين والكثير

الطبعة السلطانية

منه يشمله التضعيف، فحركت همته لجمع الحديث الصحيح الذي لا يرتاب فيه أمين، وقوى عزمه على ذلك ما سمعه من أستاذه أمير المؤمنين في الحديث والفقه إسحاق ابن إبراهيم العنظلي المعروف بابن راهويه، قال إبراهيم بن معقل النسفي: قال أبوعبدالله محمد ابن إسماعيل البخاري: كنا عند إسحاق ابن راهويه فقال: لو جمعتم كتابا مختصرا لصحيح سنة رسول الله ﷺ. فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع الجامع الصحيح (٢).

مدة تأليف الجامع الصحيح ومكانه

ولقد صنف البخاري جامعه الصحيح على مهل ومكث، ورغم محصوله العلمي فإنه تحرى فيه الدقة الفائقة والعناية النادرة، فصنفه في ستة عشر عاما، فكان يعد نفسه لكل حديث بالغسل والصلاة، قال البخاري: ما كتبت في كتاب الصحيح حديثا إلا اغتسلت قبل ذلك فصليت ركعتين. وقال: صنفت الجامع الصحيح لست عشرة سنة، وخرجته من ستمائة ألف حديث، وجعلته حجة بيني وبين الله عز وجل. أما مكان تأليفه فقد قال عبدالقدوس ابن همام: سمعت عدة مشايخ يقولون حول البخاري تراجم جامعة بين قبر النبي ﷺ ومنبره، وكان يصلي لكل ترجمة ركعتين، وروي عن البخاري أنه قال: صنفت كتاب الجامع في المسجد الحرام، وما أدخلت فيه حديثا إلا بعدما استخرت الله تعالى وصليت ركعتين وتيقنت صحته، وفي شرح البخاري للنووي أن البخاري صنف صحيحه ببخارى، وقيل صنف بمكة، قال الإمام النووي: والجمع بين هذا كله ممكن، بل متعين، فإنا قد قدمنا عنه أنه صنفه في ست عشرة سنة، فكان يصنف منه بمكة والمدينة والبصرة وبخارى، والله أعلم.

نسخة النويري

ورأى الحافظ في الجمع بين هذه الروايات أنه ابتدأ تصنيفه ووضع التخطيط العام للكتاب كمسودة في المسجد الحرام، ثم أكمله وبيضه في بخارى وغيرها، واستدل على قوله بأن البخاري أقام في تصنيفه ست عشرة سنة، وأنه لم يجاور بمكة هذه المدة كلها، وهذا هو الرأي (٣).

شرط أحاديث الصحيح وقيمتها

ومن أمتع ما قيل في هذا المعنى وأدقه قول الحافظ ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢هـ، في مقدمة كتاب «مختصر فتح الباري»،

فقد استخلص منهج البخاري في شرطه من طريقتين:

الأول: من تسمية البخاري نفسه لكتابه.

الثاني: من الاستقراء ومن تصرفه.

فأما أولا: فإنه سماه الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، فعرفنا بقوله «الجامع» أنه لم يختص بصنف دون صنف، ولهذا أورد فيه الأحكام والفضائل، والأخبار المحضة عن الأمور الماضية وعن الأمور الآتية، وغير ذلك من الآداب والرقاق، وبقوله «الصحيح» أنه ليس منه شيء ضعيف عنده، ويصرح بذلك قوله: ما أدخلت في الجامع إلا ما صح، وبقوله المسند أن الأمر الأصلي تخريج الأحاديث التي اتصل إسنادها ببعض الصحابة عن النبي ﷺ، سواء كان من قوله أو فعله أو تقريره، وأن ما وقع في الكتاب مما يخالف ذلك إنما وقع فيه تبعا عرضا لا أصلا مقصودا، فهذا ما عرف من كلامه.

ثانيا: وأما ما عرف بالاستقراء من تصرفه فمحتاج أولا إلى التعريف بالصحيح «عنده وعند غيره» وهو أن يكون الإسناد متصلا، وأن يكون كل من رواته عدلا متصفا بالضبط، فإذا قصر احتاج إلى ما يجبر ذلك التقصير، ويكون الحديث مع ذلك قد خلا من أن يكون معلولا، أي فيه علة قادحة، وأن يكون شاذا، أي خالف رواية من هو أكثر عددا منه وأشد ضبطا. مخالفة تستلزم التنافي ويتعذر معها الجمع الذي لا يكون متعسفا.

ولأجل قوة شرط البخاري فقد أجمع علماء الحديث كابن حجر والسيوطي والنووي بأن أحاديث البخاري، يجب العمل بها، ويقول في ذلك المحدث الحافظ أبوعمرو ابن الصلاح: «جميع ما حكم به الشيخان (البخاري ومسلم) مقطوع بصحته والعلم النظري حاصل بصحته في نفس الأمر، لأن الأمة تلقت ذلك بالقبول (سوى من لا يعتد بخلافه ووفاته في الاجماع)، وقد قال الجويني: لو حلف إنسان بطلاق امرأته أن ما في كتابي البخاري ومسلم مما حكم بصحته من قول النبي ﷺ لما لزمه الطلاق، ولا حنث فيه، لإجماع علماء المسلمين على صحته» (٥).

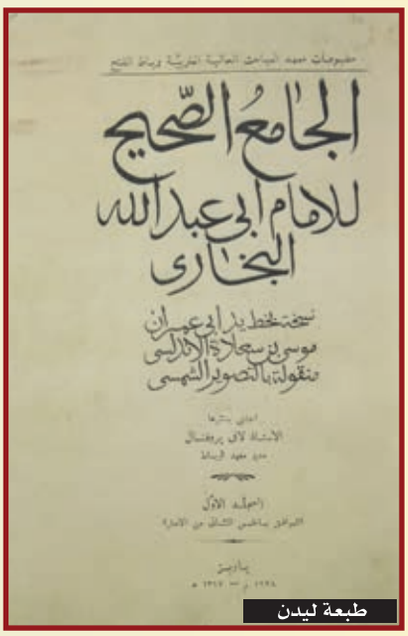

عدد أحاديث الجامع الصحيح

خلاصة ما انتهى إليه العلماء في حصر أحاديث البخاري على سبيل الإجمال:

١- عدد الأحاديث المرفوعة الموصولة، بما فيها المكررة: (٧٣٩٧) حديثا.

٢ - عدد الأحاديث المرفوعة المعلقة، بما فيها المكررة: (١٣٤١) حديثا.

٣ - عدد ما فيه من المتابعات والتنبيه على اختلاف الروايات: (٣٤٤) حديثا.

٤ - عدد ما فيه من الموصول والمعلق والمتابعات المرفوعة بالمكررة: (٩٠٨٢) حديثا.

٥ - عدد الأحاديث المرفوعة الموصولة، بدون تكرار: (٢٦٠٢) من الأحاديث.

٦ - عدد الأحاديث المعلقة، بدون تكرار: (١٥٩) حديثا.

٧ - عدد الأحاديث المرفوعة، موصولة أو معلقة، بدون تكرار: (٢٧٦١) حديثا.

وهذه الأعداد إنما هي في المرفوع خاصة، دون ما في الكتاب من الموقوفات على الصحابة، والمقطوعات عن التابعين ومن بعدهم (٤).

تراجم البخاري في صحيحه

إن تراجم الجامع الصحيح للبخاري تعطي صورة واضحة أن مصنفه صافي الذهن حاد الذكاء قوي الحفظ، يمتاز بفهم عميق للكتاب والسنة، وله المقدرة التامة على استنباط الأحكام منها،

الطبعة الميمنية

وحسن التصرف في ترجمته، وكأن الكتاب والسنة صفحة مرسومة في ذاكرته يقطف منها ما شاء؛ استشهادا أو استنباطا، وإذا نظرت في كتابه جزمت بذلك لاشك، ثم ليس مقصوده الاقتصار على الحديث وتكثير المتون، بل مراده الاستنباط منها والاستدلال لأبواب أرادها من الأصول والفروع والزهد والأدب والأمثال، وغيرها من الفنون، كما قال الإسماعيلي: إن أحدا من المحدثين لم يبلغ من التشدد مبلغ أبي عبدالله، ولا تسبب إلى استنباط المعاني واستخراج لطائف فقه الحديث وتراجم الأبواب الدالة على ما له وصلة بالحديث المروي فيه تسببه، ولله الفضل يختص به من يشاء، وقال الحافظ ابن حجر في شأن صحيح البخاري: ثم رأى ألا يخليه من الفوائد الفقهية والنكت الحكيمة فاستخرج بفهمه من المتون معاني كثيرة، فرقها من أبواب الكتاب بحسب تناسبه، واعتنى بآيات الأحكام، فانتزع منها الدلالات البديعة، وسلك في الإشارة إلى تفسيرها السبل الوسيعة، ويقول الكشميري في تراجمه: إن المصنف سابق غايات وصاحب آيات في وضع التراجم كما لم يسبق به أحد من المتقدمين ولم يستطع أن يحاكيه أحد من المتأخرين، فهو الفاتح لذلك الباب وصار الخاتم، وضع في تراجمه آيات تناسبها مما يتعلق بهذا الباب، ونبه على مسائل مظان الفقه في القرآن، بل أقامها منه ودل على طرق التأنيس من القرآن، وبه يتضح ربط الفقه والحديث بالقرآن بعضه مع بعض، ومن رفعة اجتهاده ودقته في الاجتهاديات وبسطها في التراجم، قيل إن فقه البخاري في تراجمه، فكان في تراجم المصنف علوم متفرقة من الفقه وأصوله والكلام وما إليه بإيجاز واختصار أ. هـ (٦).

ثلاثيات البخاري

أعلى ما عند الجامع الصحيح من حيث الإسناد الثلاثيات، كما أكد ذلك الحافظ ابن حجر، والمراد بثلاثيات البخاري: هو ما اتصل إلى رسول الله ﷺ من الحديث بثلاثة رواة، أي هي الأحاديث ذات العناصر الثلاثة في صحيح البخاري، التي لها رواة ثلاثة فقط، أو هي الأحاديث التي في سندها ثلاث وسائط بين النبي ﷺ وبين المخرج صحابي أو تابعي أو تابع التابعي، فحصل في الإسناد اجتماع من أفراد القرون الثلاثة المفضلة في قوله ﷺ كما في الصحيح «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

وانقسم العلماء في تقدير عدد ثلاثيات البخاري إلى قسمين: القسم الأول جعلها اثنين وعشرين حديثا، وفي مقدمتهم الحافظ ابن حجر والعيني الذي جمعها في عمدة القاري، والقسم الثاني جعلها في عشرين فقط، بحذف حديثين مكررين (٧).

روايات الصحيح

ذكر الفربري أن الذين تحملوا الصحيح عن الإمام البخاري يبلغون تسعين ألفا أو يزيدون، ولذلك تعددت روايات الصحيح، كما تعدد رواته، ولكن اشتهرت من تلك الروايات رواية الفربري (ت٣٢٠هـ) خاصة، وذلك لإتقانها، ولكون صاحبها آخر الرواة سماعا عن الإمام البخاري، ولكون روايته هي التي اتصلت بالسماع في جميع الأقطار (٨).

والاختلافات التي حدثت بين الرواة كثيرة جدا، وعلى كثرتها يمكن وضع صور لها نحصرها فيما يلي (٩):

أولا: اختلافات في السياق العام للكتاب.

وهذه الصورة تشمل الاختلافات الواردة بين الرواة في ترتيب الكتب وأسمائها، ومثال ذلك تقديم كتاب الصوم على كتاب الحج في رواية أبي زيد المروزي (٣٧١هـ)، في حين نجده في باقي الروايات مؤخرا عن كتاب الحج.

وتشمل هذه الصورة أيضا زيادة بعض الأحاديث وتقديمها وتأخيرها، كما تشمل بعض الزيادات من قبل البخاري من تفسير لغريب أو بيان علة أو غير ذلك، أو زيادات عبارة عن تعليقات من الرواة.

ثانيا: اختلافات في أسانيد الأحاديث.

ويشمل ذلك زيادة سند كامل في بعض الروايات دون بعض، واختلافات في شيوخ البخاري،

الطبعة المنيرية

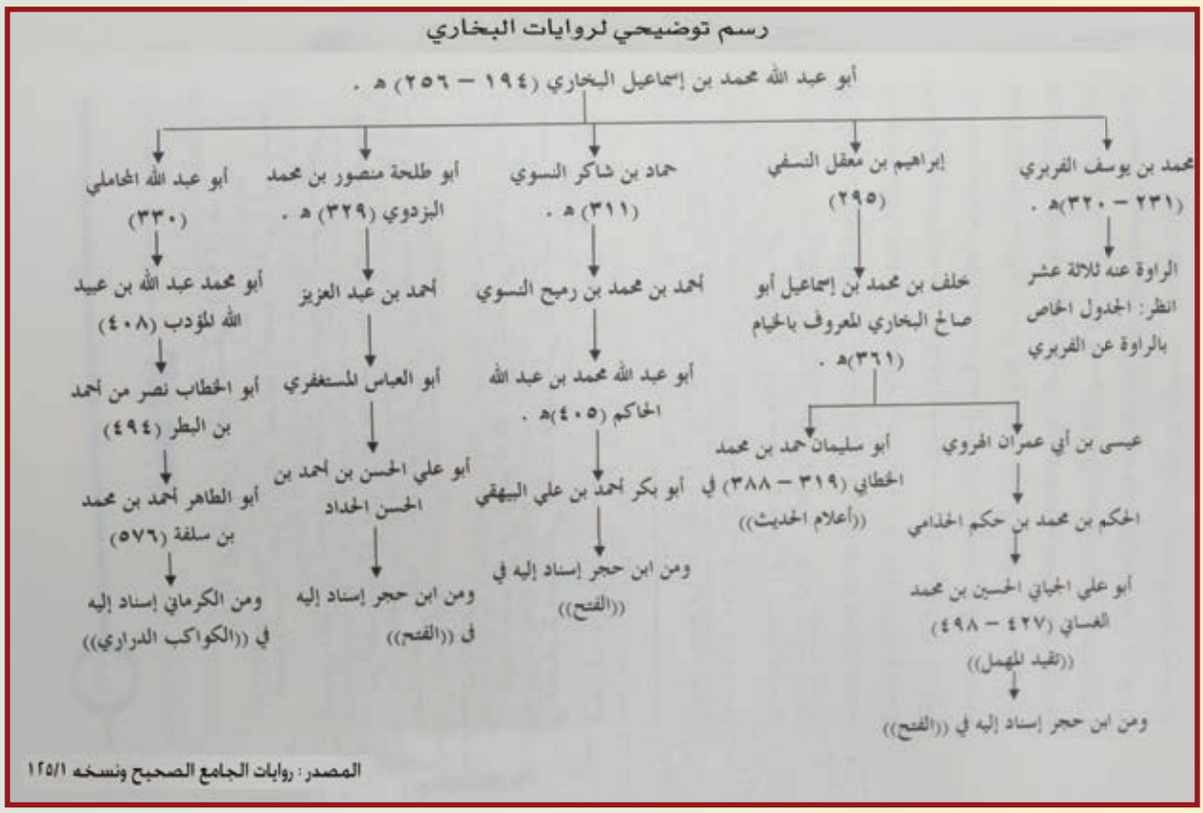

المصدر: روايات الجامع الصحيح ونسخه ١٢٥/١

ومنها ما يكون باختلاف الشيخ، ومنها ما يكون بزيادة توضيحية عند بعض الرواة، وهناك اختلافات في صيغ التحمل والأداء، وهي أنواع: فمنها ما يكون بإبدال «حدثنا» بـ «أخبرنا» والعكس، ومنها ما يكون بإبدال إحدى صيغ السماع إلى «قال» أو «عن» أو غير ذلك.

ثالثا: الاختلافات الواردة في متون الأحاديث:

وأنواع هذه الاختلافات كثيرة، ومنها على سبيل المثال، ما يكون بين الرواة في ذكر متن كامل للحديث أو عدة جمل تؤدي إلى اختصار الحديث أو سوقه بتمامه، وما يكون بزيادة جملة توضيحية أو نقصانها، ومنها الاختلاف بين الرواة في جمل التعظيم لله سبحانه وتعالى أو الصلاة والسلام على النبي ﷺ.

رابعا: الاختلافات الواقعة في الأبواب والتراجم والمعلقات، فهناك الكثير من الاختلافات وقعت بين الرواة في إثبات لفظة باب أو حذفها، ومن هذه الألفاظ ما يكون في ألفاظ الترجمة بالزيادة والنقصان أو التقديم والتأخير.

عناية العلماء بالجامع الصحيح

تنوعت جهود العلماء حول الجامع الصحيح؛ فمن العلماء من ألف له شروحا جامعة، ومنهم من جمعوا رجاله، وآخرون بحثوا في أبوابه الفقهية وتراجمه، وبعضهم شرح غريبه، إلى غير ذلك من أنواع الجهود التي حامت حول هذا الكتاب العظيم، ومن المؤكد أنه لا ينافسه في ذلك أي كتاب من الكتب الدينية بعد كتاب الله عزوجل.

وقد قام الدكتور محمد عصام عرار الحسيني بجمع ما تيسر له من الشروح والتعليقات على صحيح البخاري فبلغ ما ذكره (٣٧٥) مؤلفا، وذلك في كتابه «إتحاف القاري بمعرفة جهود وأعمال العلماء على صحيح البخاري»، وذكر الباحث خالد

نسخة البقاعي

الرباط أنه لم يستوعب كل ما كتب حول البخاري، ثم ذكر بعضها، وهي (١٤٣) عنوانا، كلها حول صحيح البخاري، وأنه بصدد جمعها كلها في كتاب مستقل (١١).

ومن أهم شروح البخاري:

● «أعلام الحديث»: للإمام العلامة أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي (ت٣٨٨هـ).

● «شرح ابن بطال»: للعلامة أبي الحسن علي بن خلف بن بطال البكري القرطبي، ويعرف بابن اللحام (ت٤٤٩هـ).

● «شرح صحيح البخاري»: للإمام النووي (ت٦٧٦هـ).

● «بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها»: لأبي محمد عبدالله ابن أبي جمرة (ت٦٩٩هـ).

● «الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري»: ألفه شمس الدين محمد بن يوسف بن علي الكرماني (ت٧٨٦هـ).

● «التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح»: للعلامة بدر الدين محمد بن عبدالله ابن بهادر الزركشي (ت٧٩٤هـ).

● «فتح الباري شرح صحيح البخاري»: للعلامة أبي الفرج عبدالرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي الدمشقي الحنبلي (ت٧٩٥هـ).

طبعة بولاق

الطبعة العامرة

● «التوضيح لشرح الجامع الصحيح»: للعلامة سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي، المعروف بابن الملقن (ت٨٠٤هـ).

● «فتح الباري بشرح صحيح البخاري»: للحافظ العلامة أحمد ابن علي بن محمد بن محمد الكناني العسقلاني المصري، المعروف بابن حجر (ت٨٥٢هـ).

طبعات «صحيح الإمام البخاري»

صحيح البخاري من أوائل الكتب التي طبعت بعد وجود المطابع في الشرق، بل وفي الغرب أيضا، وفيما يلي ذكر بعض أهم الطبعات القديمة (١٢):

طبع سنة ١٢٦٩هـ، في «بومباي» في ثمانية أجزاء في مجلد واحد.

وطبع سنة ١٢٧٠هـ، في «دلهي» في جزأين.

وطبع في مطبعة بولاق سنة ١٢٨٠هـ، في ثلاثة أجزاء، وفي سنة ١٢٩٦هـ، في ثمانية أجزاء.

كما طبع في مصر سنة ١٢٧٩هـ -طبع حجر- بهامشها «النور الساري من فيض صحيح البخاري»، وهو شرح الشيخ حسن العدوي الحمزاوي.

طبع في تركيا سنة ١٣٢٥هـ، في ثمانية أجزاء، بالمطبعة العامرة مشكولا، معتمدا على النسخة التي اعتمدها القسطلاني.

وفي أوروبا طبع في «ليدن» باعتناء المستشرق كرهل من سنة ١٨٦٢م إلى سنة ١٨٦٨م، في ثلاثة أجزاء.

وفي سنة ١٣١١هـ، أصدر السلطان عبدالحميد الثاني (ت١٩١٨م) أمره بطبع صحيح البخاري، على أن يعتمد في تصحيحه على النسخة اليونينية، وعلى نسخ أخرى عرفت بالصحة والضبط، فكانت من أصح الطبعات وأهمها.

الهوامش:

١- الجامع الصحيح للإمام البخاري، د. الحسيني عبدالمجيد هاشم، ٨٥/١، سلسلة تراث الإنسانية

٢- السابق ٩٠/١ (بتصرف).

٣- السابق نفسه.

٤- المدخل إلى صحيح البخاري، د. محمد المحمدي، ص ٧٠، ط المكتب الفني بوزارة الأوقاف الكويتية.

٥- الجامع الصحيح للإمام البخاري، ٩١/١ (بتصرف).

٦- السابق ٩٢/١.

٧- انظر: ثلاثيات الإمام البخاري، د. يوسف الكتاني، مجلة السنة النبوية، العدد الرابع، ص٤٧٢ (بتصرف)، ط جمعية الإمام البخاري - المغرب.

٨- المدخل إلى صحيح البخاري، ص٦٥.

٩- انظر روايات الجامع الصحيح ونسخه، د.جمعة فتحي عبدالحليم، ٤٢١/١ (بتصرف)، ط وزارة الأوقاف - قطر.

١٠- السابق ٤٣٥/٢.

١١- المدخل إلى صحيح البخاري، ص٧٥.

١٢- انظر: المدخل إلى صحيح البخاري، ص٩٢.

إعداد : د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
-إدارة الإفتاء-

تغير الفتوى؛ شروطه، مسوغاته، وضوابطه.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «الأحكام نوعان: نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها، لا بحسب الأزمنة والأمكنة ولا اجتهاد الأئمة، كوجوب الواجبات وتحريم المحرمات، والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم، ونحو ذلك، فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد مخالف لما وضع عليه. والنوع الثاني: ما يتغير فيها بحسب اقتضاء المصلحة» (إغاثة اللهفان ١/٣٣١).

ومن هنا يعلم أن الأحكام الثابتة في الشرع لا تتغير ولا تتبدل، وإنما تتغير فتوى العالم في زمن دون زمن، وفي مكان دون مكان؛ مع اختلاف العوائد والنيات، وذلك أن الشريعة لا تدور مع دوران شهوات الناس واحتياجاتهم المحضة، وإنما تتجدد بتجدد النظر الاجتهادي في النصوص الشرعية، والاستنباط منها. ولابد مع ذلك من ربط مدارك الأحكام بالأصول الشرعية، والمقاصد العامة؛ فإن تحقق -بعد النظر في مدارك الأحكام- الموجب للتغيير؛ غير المفتي فتواه مستندا في ذلك إلى الدليل الشرعي الثابت.

قال الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى: «فاعلم أن ما جرى ذكره هنا من اختلاف الأحكام عند اختلاف العوائد؛ فليس في الحقيقة باختلاف في أصل الخطاب؛ لأن الشرع موضوع على أنه دائم أبدي لو فرض بقاء الدنيا من غير نهاية، والتكليف كذلك؛ لم يحتج في الشرع على مزيد، وإنما معنى الاختلاف أن العوائد إذا اختلفت رجعت كل عادة إلى أصل شرعي يحكم به عليها؛ كما في البلوغ مثلا، فإن الخطاب التكليفي مرتفع عن الصبي ما كان قبل البلوغ،

بيع الأرض الموقوفة مسجدا

رقم الفتوى (١٤١٤)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

هناك قطعة أرض كانت موقوفة من (ع) و(ح) لإقامة مسجد عليها، وقد تم استملاكها مؤخرا، ولم يكن عليها أي بناء سوى شبرات قديمة؛ برجاء الإفادة عن كيفية التصرف في مال البدل، هل يكون ببناء مسجد آخر أم بناء، أو شراء بناية استثمارية كوقف مساجد؟

أجابت اللجنة بما يلي:

حيث إن الأرض المذكورة قد وقفها صاحبها لتكون مسجدا، وحيث إن الشبرات التي أقيمت في مكان المسجد قد جرت الصلاة فيها فعلا؛ فبذلك تكون الأرض وما أقيم عليها قد أخذت حكم المسجدية، لذلك ترى اللجنة أنه يجب أن يبنى بهذا البدل مسجد، ويكون للمسلمين عامة، لا تختص به فئة دون أخرى؛ لأن المساجد لله وحده. والله أعلم.

عقد الاستصناع

رقم الفتوى (٦٩٨٢)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

رجل اشترى شقة معينة من تاجر عقارات، قبل بدء بنائها، ثم أراد بيعها بعد ذلك، قبل بدء بنائها أيضا، فما حكم شراء الأول ثم بيعه لها بعد ذلك؟ وهل يدخل هذا في بيع الاستصناع؟

أجابت اللجنة بما يلي:

أما العقد الأول فإنه يعتبر من قبيل الاستصناع، وهو جائز شرعا؛ إذا توفرت فيه الشروط التالية: بيان جنس المستصنع، ونوعه، وقدره، وأوصافه المطلوبة، وثمنه، وأن يحدد الأجل الذي يسلم فيه الشيء المستصنع.

ويجوز تأجيل الثمن كله، أو تقسيطه إلى أقساط لآجال محددة.

وأما البيع الثاني لهذا الشيء المستصنع، والذي لم يتم استصناعه فعلا؛ فإنه لا يجوز شرعا، لأنه من قبيل بيع المعدوم، وقد نهى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن بيع المعدوم ورخص في السلم، ولما يترتب عليه من أضرار؛ فقد لا يتم التصنيع لهذا الشيء لأي سبب من الأسباب. والله أعلم.

السمسرة بين البائع والمشتري

رقم الفتوى (٣٣٢١)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

فإذا بلغ وقع عليه التكليف. فسقوط التكليف قبل البلوغ، ثم ثبوته بعده ليس باختلاف في الخطاب، وإنما وقع الاختلاف في العوائد والشواهد». (الموافقات ١٩٧/٢). (بتصرف).

وقد عقد الإمام ابن القيم لهذه القاعدة فصلا مهما؛ فقال: «فصل في تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد» (إعلام الموقعين ١١/٣).

ولابد لاعتبار تغيير الفتوى بحسب الزمان أو المكان من شروط:

١- أن تتحد الصورة في المسألة عينها، مع وجود الشروط وانتفاء الموانع، وإلا كان التغير واقعا على صورة أخرى؛ فلا تكون من قبيل التغيير المقصود هنا.

٢- أن يكون المفتي في الحالين واحدا؛ وذلك أن النظر فيها من قبل مجتهد آخر يخرجها عن المفهوم المعتبر لتغير الفتوى.

ومثال ذلك: السارق من حرز والسارق من غير حرز؛ فإن اختلاف الفتوى هنا لا يعتبر من قبيل ما تكلم عنه، وذلك لاختلال الشرط الشرعي المعتبر لقطع اليد، وهو التعدي على حرز الغير بالسرقة والنهب.

فإذا تحقق اللازم لاعتبار «تغير الفتوى»؛ فليعلم أن الشريعة إنما أتت لجلب المصالح وتكميلها، ودرء المفاسد وتقليلها؛ فلابد للناظر في مصالح الناس ومعاشهم أن يراعي ما سبق؛ وإن قاده اجتهاده إلى تغيير فتواه؛ لاختلاف الزمان أو المكان أو الحال أو العادة والعرف.

وقد ذكر العلماء جملة من المسوغات للتغيير؛ منها:

أولا: وجود ظروف تقتضي تغير الحكم: من ذلك أنه نهى عليه الصلاة والسلام أن تقطع الأيدي في الغزو، كما رواه أبوداود، وهو حد من حدود الله تعالى، خشية أن يترتب عليه ما هو أبغض إلى الله تعالى من تعطيله وتأخيره؛ وهو لحوق صاحبه بالأعداء حمية وغضبا (نظرية العرف؛ للخياط، ص٨٣).

ثانيا: فساد الزمان: ويقصد بفساد الزمان فساد الناس وانحدار أخلاقهم، وفقدان الوازع الديني، وضعف التقوى مما يؤدي إلى تغير الأحكام تبعا لهذا الفساد ومنعا له؛ ومنه لما رأى بعض الصحابة تضمين الصناع حفظا لمصالح الناس؛ فالحكم هنا تغير لتغير سلوك الناس وتصرفاتهم المعبر عنها بفساد الزمان (العادة المحكمة؛ للباحسين، ص٢٢٤).

١ - بعض تجار العقار في حالة بيعه عقارا لدى أحد الدلالين يشترط بأن يكون جزء أو نسبة متفق عليها مع الدلال من قيمة الدلالة تحسب له، ويقوم الدلال بعد بيع العقار وتسلم قيمة الدلالة من المشتري بإعطاء هذا التاجر الجزء أو النسبة المتفق عليها، هل هذا جائز شرعا؟

٢ - بعض تجار العقار يفتح مكتب عقار لوحده أو مع شركاء، ويقوم بعرض عقاراته في مكتبه، ويحصل على قيمة عقاراته، وكذلك رسوم الدلالة بعد بيع العقارات، هل يجوز ذلك شرعا؟

٣ - في حالة الشراء؛ هل يجوز أن يتفق المشتري مع الدلال على أن يدفع المشتري جزءا أو نسبة متفقا عليها من الدلالة، وليس الدلالة كاملة باتفاق الطرفين. هل يجوز ذلك شرعا؟.

أجابت اللجنة بما يلي:

١ - اتفاق البائع مع الدلال على اقتسام أجرة الدلالة بينهما اتفاق غير لازم، فإذا دفع الدلال الجزء المذكور للبائع بعد البيع طائعا فللبائع أخذه، وهو هبة مبتدأة.

٢ - ما يتفق عليه تاجر العقار مع المشتري من الثمن وأجرة السمسرة (الدلالة) بمجموعه ثمن للعقار؛ وهو جائز.

٣ - أجرة السمسرة (الدلالة) هي ما يتفق عليه بين السمسار (الدلال) والمشتري، وعلى ذلك فيجوز أن يتفقا على أي مبلغ يريانه مناسبا أو أكثر. والله أعلم.

زكاة العقار المشترى للسكن

رقم الفتوى (٢٨٥٦)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

أقوم بشراء أراض بقصد بنائها، وأن تكون ملكا لي ولأولادي، ولا توجد نية في بيعها، ثم بعد مضي سنوات عليها يعرض علي سعر جيد أقوم ببيعها، فهل علي زكاة على هذه الأرض؟

أجابت اللجنة بما يلي:

لا زكاة في الأراضي التي شريت للاقتناء والانتفاع بها، وإنما تجب فيها الزكاة إذا أصبحت عروض تجارة، ولا تكون كذلك إلا إذا نوى عند تملكه أنها للتجارة، أو اشتراها بقصد الاقتناء، ثم نوى جعلها عروض تجارة؛ فإنها تكون كذلك من حين النية. والله أعلم.

قبة الصخرة

يوجد اليوم مسجد واحد منفرد لا تنطبق عليه أي صفة من صفات المساجد الأخرى في العالم الإسلامي بأسره، وهذا المسجد هو مسجد قبة الصخرة، الفريد في تاريخ العمارة العربية الإسلامية، وذلك منذ هجرة الرسول ﷺ حتى اليوم، ويقع هذا المسجد بوسط هضبة الحرم الشريف، الذي يقع بدوره في الجهة الجنوبية الشرقية لمدينة بيت المقدس، وقد أمر الخليفة الأموي الخامس عبدالملك بن مروان (٢٦هـ -٨٦هـ/ ٦٤٦- ٧٠٥م) بإقامة مسجد قبة الصخرة، وشرع البناؤون فيه سنة ٦٦هـ/ ٦٨٥م، وفرغوا منه سنة ٧٢هـ/ ٦٩١م، وقد بالغ الخليفة عبدالملك باهتمامه بهذا المسجد، حتى قيل -مبالغة- إنه رصد لبنائه خراج مصر لسبع سنوات، وصمم البناء وأشرف على بنائه مهندسان مسلمان، هما: رجاء بن حيوة الكندي أحد علماء الإسلام من بيسان، ويزيد بن سلام من القدس.

ولقد وضع تصميم هذا المسجد ليلائم الغرض الذي بني لأجله كمشهد يحيط بالصخرة الشريفة، والصخرة ذات شكل نصف دائري، وأقصى ارتفاع لها فوق أرض قبة الصخرة حوالي متر ونصف المتر، وتحت هذه الصخرة يوجد كهف ينزل إليه المرء بدرج، والكهف مربع الشكل مقاسه ٤،٥×٤،٥ متر، وبداخله محراب مسطح من الرخام، وبسقف الكهف فتحة يبلغ قطرها مترا واحدا.

ويعلو هذه الصخرة التي تتوسط المسجد تماما قبة مركزية، صنعت من الخشب، شكلها نصف دائرة، قطرها عشرون مترا وارتفاعها عن سطح الأرض حتى المركز من الداخل خمسة وعشرون مترا، وذلك من غير ارتفاع الهلال الموضوع فوقها، والذي يبلغ ارتفاعه عن سطحها أربعة أمتار ونصف المتر، ويغلف هذه القبة من الخارج ألواح من الرصاص، مغطاة بصفائح من النحاس المذهب، أما من الداخل فهي مكسوة بنقوش مذهبة، وتقوم هذه القبة على رقبة مستديرة مكسوة بالفسيفساء ذات الفصوص المتراصة بأشكال زخرفية، قوامها فروع نباتية بألوان متجانسة، تميل إلى زرقة هادئة، وبوسط الرقبة كرانيش بارزة من الرخام، عليها نقوش مذهبة، يعلوها ست عشرة نافذة، تظهر من الخارج على شكل بلوكات من القاشاني، وبداخلها شبابيك جصية، وترتكز الرقبة على أربع دعامات ضخمة مكسوة بالرخام المعرق، بنيت بحيث تأخذ شكلا دائريا، وبين كل دعامة وأخرى ثلاثة عمد من الرخام الملون، تحمل أربعة عقود نصف دائرية، كسيت بترابيع من الرخام الأبيض والأسود.

أما المثمن الخارجي فارتفاع جداره يبلغ تسعة أمتار ونصف المتر، ويوجد فوقه تصوينة خارجية تعلو الجدران، يبلغ ارتفاعها مترين ونصف المتر، ولهذا المثمن أربعة أبواب محورية، تقع في الاتجاهات الأصلية، يتقدم كل منها سقيفة مقامة على عمد، وأكبر هذه الأبواب هو الذي يواجه المسجد الأقصى المبارك بالجهة القبلية، وارتفاع هذه الأبواب يبلغ أربعة أمتار، وتغطي كل واجهات المثمن الخارجي كسوة من الرخام حتى منتصف ارتفاع الواجهة، يعلوها الآن ترابيع من القيشاني أضيفت في العصر العثماني، وكان هذا الجزء العلوي مغطى أصلا بالفسيفساء، ويوجد في كل واجهة خارجية سبع حنايا رأسية، في خمس منها نوافذ علوية مماثلة لتلك التي برقبة القبة.

كما توجد في المسجد الفروع النباتية، وبعضها لولبي الشكل، وأهمها ذو الشكل الإغريقي، وأحيانا نجد بين كل فرعين خارجين من مزخرفات قوامها شكل شمعداني من الزهور والنباتات، تعلوها زخرفة مجنحة، كما توجد رسوم أشجار بعضها طبيعية والأخرى محورة عن الطبيعة، وأهم هذه الأشجار النخيل والزيتون واللوز، وفواكه من عنب ورمان، وربما نرى في بعض الفسيفساء رسما للنجوم والهلال الذي عرفته إيران أولا، ثم بيزنطية، ثم صار رمزا دينيا للمسلمين في مصر وتركيا.

إن قبة الصخرة هي إعجاز تصميمي، وتفرد إنشائي، وهي تقدم لنا من الناحية الزخرفية تميزا غير مكرر وتفردا منقطع النظير، حيث تشكل المساحات المغطاة بحبات الفسيفساء أندر الأشكال وأجملها، والتي أشار المؤرخون والرحالة إلى أنها كانت تكسو أرضية المبنى وجدرانه، بما في ذلك منطقة القبة ورقبتها من الداخل والخارج.

إن الأسلوب الهندسي لبناء قبة الصخرة يرتبط بأصول هندسية عربية سابقة على الإسلام، ولعل تلك المباني ثمانية الشكل التي عرفت في بلاد الشام عامة وفي فلسطين خاصة منذ القرنين الرابع والسادس الميلاديين تؤكد الجذور الأولى المحلية لهذا الأسلوب، ومنها المباني المشهورة، مثل كنيسة المهد القديمة وكنيسة القيامة وكنيسة الصعود وكاتدرائية بصرى، وعليه لا يعتبر بناء قبة الصخرة بهذا الأسلوب غريبا عن المنطقة، والتي عرفت أساليب محلية أصيلة سعى عبدالملك لإظهارها وإعادة بعثها بقالب عربي مسلم، يتناسب مع الطبيعة الجديدة للدولة، ويظهر عظمتها.

إن قبة الصخرة هو المبنى النادر والوحيد على صعيد العالم في تاريخه الماضي والحاضر، فقد كان نسيج عبقرية عربية إسلامية فياضة، أعطت العالم فكرا وعلما لا يخفى أثره على العالم حتى اليوم، كما أعطته فنا رفيعا إسلامي القلب والقالب، تمثل في فنونه وعمائره التي ستبقى، وقبة الصخرة من شواهده المميزة؛ منارة وعلامة فارقة في تاريخ الإنسانية على مر العصور، تذكر اللاحقين بأمجاد حضارة خلت نأمل لها البعث والتجدد، وهذا لن يكون إلا على أيدي أناس فهموا ماضيهم وقدروه وصانوه وحافظوا عليه سليما معافى.

الحسن محمد

القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم ومساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

aelbarbary@live.com

تغيير المنكر

ارتبط مجد الأمة باتباعها المنهج الذي رسمه الله لها وارتضى لها أن تسير عليه، فأدرك الرعيل الأول أن عزتهم في اتباع ما أمر الله به وأن خذلانهم واندحار مجدهم يكمن في مخالفة ما نهاهم الله عنه، فعملوا جاهدين بكل ما وهبهم الله على تحقيق الأطر العامة التي تحكم هذا الدين، فنعموا ونعمت البلاد، وحقق لهم الله المجد والعز والتمكين، وضربوا أروع الأمثلة وسطروا صفحات خالدة كتبت حروفها بأقلام من نور وضياء، لمع وميضها في السماء وأنار سناها الأرض المظلمة، وهدى بهم ليل الحائرين وصد عن الدين غائلة المعتدين، ورشف أبناء الأمة قاطبة كأسا من معين صاف رائق لذة للشاربين، فهدوا واهتدوا، وكانوا مصابيح للظلام وأعلاما للهداية.. وحين غفل الخلف عن منهاجهم الذي رسم لهم تاهوا وانزلقوا في الحضيض، وأصبحوا تابعين لا متبوعين، محكوم عليهم بالجهل والتخلف ممن أخذ منهم علومهم وطورها وأضاف إليها، برغم عدم كونه لا ينتمي إلى شريعة أو دين.

ارتبطت الخيرية في هذه الأمة باتباع ما هدفت اليه آيات كتاب ربهم وما جاء به الهادي البشير ﷺ من منهاج واضح لا لبس فيه ولا غموض، هذا المنهاج يتمثل في كلمتين لا ثالث لهما، وهما افعل، ولا تفعل.

ويبين لنا الله أن الخيرية في هذه الأمة تتحقق في اتباع الآية الكريمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ (آل عمران:١١٠)، والمنكر ضد المعروف، وهو ما عرف قبحه نقلا وعقلا.

وقد لعن الله من الأمم من لم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (المائدة:٧٨-٧٩).

● محمد الروبي عبدالوهاب

إلى السيد/ رئيس تحرير المجلة

حثني قلمي على الكتابة إليكم، وهذا واجب علي، وعليه أتقدم إلى سيادتكم بشكري الخالص لك ولجميع عمال المجلة الموقرة، تقديرا مني لمجهوداتكم الجبارة والمبذولة من أجل إصدار هذه المجلة الموقرة كل شهر، في حلة وكسوة جديدة، كما أشكر كل الأقلام التي سهرت على هذه المجلة، وأخيرا لكم مني كل التقدير وفائق الاحترام، متمنيا لكم بإذن الله عزوجل التوفيق والنجاح، وإلى اللقاء.

من القارئ الوفي للمجلة

صالح قداش

من كنوز الآباء

قال عبدالله بن شداد لابنه: يا بني إني أوصيك بوصية فاحفظها:

- عليك بتقوى الله تعالى، وكن كما قال الحطيئة العبسي:

وتقوى الله خير الزاد ذخرا

وعند الله للأتقى مزيد

- يا بني: لا تزهدن في معروف فإن الدهر ذو صروف، والأيام ذات نوائب، على الشاهد والغائب، فكم من راغب قد كان مرغوبا إليه.. وطالب قد كان مطلوبا إليه.. واعلم أن الزمان ذو ألوان.. ومن يصحب الزمان ير الهوان.. وكن يا بني كما قال أبوالأسود الدؤلي:

وعدد من الرحمن فضلا ونعمة

عليك إذا ما جاء للخير طالب

- يا بني إن الكريم من كرمت عند الحاجة طبيعته، وظهرت عند الناس نعمته.

- يا بني كن جوادا بالمال في مواضع الحق، بخيلا بالأسرار على جميع الخلق.

عبده بن محمد الجوايدي

الناس بأفعالهم لا أقوالهم

قال الحسن البصري رحمه الله: «اعتبروا الناس بأعمالهم، ودعوا قولهم؛ فإن الله لم يدع قولا إلا جعل عليه دليلا من عمل يصدقه أو يكذبه، فإذا سمعت قولا حسنا فرويدا بصاحبه، فإن وافق قولا وعملا فنعم ونعمة عين، فآخه وأحببه وأوده، وإن خالف قولا وعملا فماذا يشبه عليك منه؟ أو ماذا يخفى عليك منه؟ إياك وإياه، لا يخدعنك كما خدع ابن آدم، إن لك لقولا وعملا، فعملك أحق بك من قولك، وإن لك سريرة وعلانية، فسريرتك أحق بك من علانيتك، وإن لك عاجلة وعاقبة، فعاقبتك أحق بك من عاجلتك».

(**الزهد لابن المبارك** ٢٦/١)

تمام بن غالب

ألف تمام بن غالب (ت ٤٣٦هـ) كتابا سماه «تلقيح العين»، فوجه إليه الأمير أبو الجيش مجاهد العامري ألف دينار أندلسية، على أن يزيد في ترجمة هذا الكتاب: «مما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد». فرد الدنانير، ولم يفعل، وقال: «والله لو بذل لي ملء الدنيا ما فعلت ولا استجزت الكذب، فإني لم أجمعه له خاصة، ولكن لكل طالب علم عامة».

(**انظر: جذوة المقتبس ٣١٣/١٣ ومعجم الأدباء** ١٣٦/٧)

الشريعة عدل كلها

قال العلامة ابن القيم -رحمه الله- في معرض كلامه عن الشريعة: «... هي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصلحة كلها، فأي مسألة خرجت من العدل إلى الجور، ومن الرحمة إلى ضدها، ومن المصلحة إلى المفسدة؛ فليست من الشريعة، وإن دخلت فيها بالتأويل».

(**إعلام الموقعين** ١١/٣)

العجب والكبر

قال القرطبي: «إعجاب المرء بنفسه هو ملاحظته لها بعين الكمال، مع نسيان نعمة الله، فإن احتقر غيره مع ذلك؛ فهو الكبر المذموم»

(**الفتح** ٢١٤/١١)

هكذا يحصل العلم

قيل للشعبي رحمه الله: من أين لك هذا العلم؟

قال: «بنفي الاعتماد، والسير في البلاد، وصبر كصبر الجماد، وبكور كبكور الغراب».

(**تذكرة الحفاظ** ٨١/١)

أقوال وحكم

- ارض من أخيك إذا ولي ولاية بعُشر وده قبلها.
- لا يوجد تبذير قط إلا وإلى جانبه حق مضيع.

(**زهر الآداب وثمر الألباب** ٥٩/١-٦١)

مراعاة حال السامع

كان عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، يقول: «حدث الناس ما حدجوك بأسماعهم، ولحظوك بأبصارهم، فإذا رأيت منهم فتورا؛ فأمسك».

حدجوك: استمعوك بإمعان

(**زهر الآداب وثمر الألباب** ١٩٥/١)

العجب

ركب الحارث بن معاوية إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأله عن ثلاث خلال... قال فسأله عن القصص، قال: «فإنهم أرادوني على القصص.

فقال عمر رضي الله عنه: ما شئت (كأنه كره أن يمنعه).

قال الحارث: إنما أردت أن أنتهي إلى قولك.

قال عمر رضي الله عنه: أخشى عليك أن تقص فترتفع عليهم في نفسك، ثم تقص فترتفع، حتى يخيل إليك أنك فوقهم بمنزلة الثريا، فيضعك الله تحت أقدامهم يوم القيامة بقدر ذلك».

(**رواه أحمد في مسنده رقم** ١١١)

كتاب الجمهرة

كان لأبي الحسن علي بن أحمد بن سلك الفالي (نسبة إلى فال، وهي بلدة في خوزستان)، نسخة من كتاب «الجمهرة» لابن دريد، وكانت النسخة في غاية الجودة، فدعته الحاجة إلى بيعها، فاشتراها الشريف المرتضى أبو القاسم بستين دينارا، وتصفحها فوجد بها أبياتا بخط بائعها أبي الحسن الفالي، وهي:

أنست بها عشرين حولا وبعتها
لقد طال وجدي بعدها وحنيني
وما كان ظني أنني سأبيعها
ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكن لضعف وافتقار وصبية
صغار عليهم تستهل شؤوني
فقلت ولم أملك سوابق عبرة
مقالة مكوي الفؤاد حزين
وقد تخرج الحاجات يا أم مالك
كرائم من رب بهن ضنين!

فأرجع الشريف النسخة إليه، وترك له الدنانير، رحمهما الله تعالى.

(صفحات من صبر العلماء للشيخ عبدالفتاح أبوغدة -٢٦٤)

المال

قال العلامة ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «وكذلك ينبغي أن يستعد لآخر عمره بالمال، مخافة أن يحتاج فيذل أو يسعى، وقد كلت الآلة؛ ولأن يخلف لعدوه أولى من أن يحتاج إلى صديقه، ولا يُلتفت إلى من يذم المال؛ فإنهم الحمقى الجهال الذين اتكلوا على خبز الراحة، فاستطابوا الكسل والدعة، ولم يأنفوا من تناول الصدقة، ولا التعرض للسؤال، وقد كان لكل نبي معاش، ولجميع الصحابة، وخلفوا أموالا كثيرة، فافهم هذا الأصل، ولا تلتفت إلى كلام الجهال».

(صيد الخاطر ٣٨١/١)

كلام الملوك

- كان يزيد بن الوليد يقول: «أخاف على نفسي الكمال، وعوذ الشرف، وآفة السؤدد»... فملك خمسة أشهر.
- وكان مروان بن محمد يقول: «كنزنا الكنوز، فما وجدنا كنزا أنفع من معروف في قلب حر».

(الحديقة لمحب الدين الخطيب رحمه الله)

أصول الخطايا

١ . الكبر: وهو الذي أصار إبليس إلى ما أصاره.
٢ . الحرص: وهو الذي أخرج آدم من الجنة.
٣ . الحسد: وهو الذي جرأ أحد ابني آدم على أخيه.

فمن وقي شر هذه الثلاثة؛ فقد وقي الشر، فالكفر من الكبر، والمعاصي من الحرص، والبغي والظلم من الحسد.

(الفوائد لابن القيم ص٥٥)

الحرص على العلم

عن جعفر بن درستويه قال: «كنا نأخذ المجلس في مجلس علي ابن المديني وقت العصر اليوم لمجلس غد؛ فنقعد طوال الليل مخافة أن لا نلحق من الغد موضعا نسمع فيه».

(الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١٣٨/٢)

رأسمال المسلم

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «رأس مال المؤمن دينه، لا يخلفه في الرحال، ولا يأتمن عليه الرجال»

(الاستذكار لابن عبدالبر ١٩٢/٣)

من حيل الكرماء

أهدى معاوية إلى عبيدالله بن العباس حللا كثيرة، ووجهها إليه مع حاجبه، فالتفت ابن العباس إلى الحاجب -وهو يطيل النظر إليها- فقال: هل في نفسك منها شيء؟ قال: نعم، والله إن في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب من يوسف!، فقال ابن العباس: هي لك! فقال: جعلت فداك! أنا أخاف أن يبلغ ذلك معاوية؛ فيغضب لذلك. قال: فاختمها بخاتمك، وادفعها إلى الخازن، وهو يحملها إليك ليلا. فقال الحاجب: والله إن هذه الحيلة في الكرماء أكثر من الكرم.

(ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي).

حرية التعبير..

د. السيد شعيب
دكتوراه في الفلسفة الإسلامية

عرفت المجتمعات الديموقراطية والدول المتحضرة قيمة الإنسان فجعلت من أولويات حقوقه «حرية التعبير» بل وارتقت هذه القيمة إلى صدارة الحقوق الأساسية في الدساتير المدونة؛ وذلك لإيمانها بأنه بدون «حرية التعبير» لا مجال إلى تطوير الرأي وتحديث الفكر وتجديد الوعي..

وترتب على ذلك حدوث طفرة كبيرة في مجال الإبداع الإنساني في كافة المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية في هذه المجتمعات، على النحو المشاهد الآن في أوروبا وأميركا، مما حدا بنا أن نجزم بأن حرية التعبير لم تقم قياما حقيقيا في العصر الحديث خارج أسوار أوروبا وأميريكا.

وكعادتنا نحن الشرقيين في نقل الأفكار واقتباسها نقلنا إلينا «حرية التعبير» لا كما يفهمها الغربيون ويحسنون تطبيقها، بل على طريقتنا الخاصة، حرية مطلقة، فوضى أدبية، خروج على القانون، تمرد على الأوضاع، انقلاب على الآداب والأعراف والقيم...إلخ

ولا أبالغ في قولي هذا، فإن شئت أن تقرأ طرفا منه فارجع إلى بعض كتابنا الليبراليين أمثال الدكتور «طه حسين»، ودعوته إلى الفوضى الأدبية، تحت شعار «حرية الأدب»، وذلك في كتابه حديث الأربعاء، طبعة دار المعارف، الجزء الثالث ص ٢١٠، وكتاب الدكتور فؤاد زكريا، خطاب إلى العقل العربي ص٨٤، ودعوته إلى نبذ رذيلة الطاعة والاستعاضة عنها بفضيلة التمرد، تحت شعار «أنا متمرد إذن أنا موجود»...إلخ

وفي أيامنا هذه تطورت الدعوة إلى حرية التعبير إلى إشاعة الفوضى، وإذاعة الأخبار الكاذبة والنيل من الأعراض، والولوغ في المسائل الشخصية والعائلية...إلخ

إن حرية التعبير لا تعني أبدا الدعوة إلى التهتك والابتذال والعري، أو الثورة على قيم المجتمع ومبادئه، أو الخروج على القانون أو استهداف الشر والأذى للمواطنين والعبث بأسرارهم، وقذف الناس بالباطل، أو الاستهانة بالأعراف والتقاليد والآداب العامة...إلخ

إنها لا تعني شيئا من ذلك أبدا، ولكنها تعني الكلمة الطيبة والعبارة الواضحة وقول الحق..

إنها تتوخى البناء لا الهدم، الإصلاح لا الإفساد، العلو لا الانحطاط والتسفل..

هذه الكلمات والتعبيرات والآراء الراقية هي التي يفهمها الغربيون ويطبقونها جيدا، ففي بريطانيا، على سبيل المثال، هناك قانون يرسم الحدود ويوضح متى يكون التعبير مقصودا منه الإثارة واستفزاز الآخرين والتحريض على قلب الحكومة أو الدستور بالعنف.

لقد أجمع الفلاسفة والمفكرون العقلاء على أن الانطلاق من جميع القيود شيء غير معقول وغير موجود، حتى في العالم المتمدن الذي يظنه البعض خلوا من القوانين والأعراف والتقاليد، ويحسبونه مجتمعا فوضويا لا تراعى فيه فضيلة، ولا تصان فيه حرمة.

وهذا التقييد لحرية التعبير قرره الإسلام قبل أن تبدأ القوانين الوضعية بتقرير نظريتها في الحرية بأحد عشر قرنا على الأقل، فقد قررت الشريعة حرية القول من يوم نزولها، وقيدت في الوقت نفسه هذه الحرية بالقيود التي تمنع من العدوان وإساءة الاستعمال، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى مخاطبا نبيه ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾ (النحل:١٢٥).